



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0046019910

893.7H954
0

DATE DUE

FEB 15 2005

FEB 15 2005

FEB 15 2007

JAN 23 2007

FEB 16 2009

FEB 15 2010

FEB 14 2010

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

SEP 4 1973

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



39141

PT 40 - 10% Khawaja 12/2/45
2 vols
Rend. 12

طه حسين

(C)

19



١

ALBULLOQ
VTROVIMU
VSAKILL



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

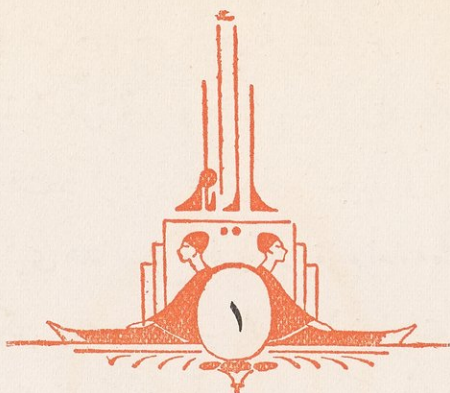
893.711954

0

2 v. in 1

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY



لا يذكر لهذا اليوم اسماً ، ولا يستطيع أن يضعه حيث
 وضعه الله من الشهر والسنة ، بل لا يستطيع أن يذكر من
 هذا اليوم وقتاً بعينه ، وإنما يقرب ذلك تقريباً .
 وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره
 أو في عشائه . يرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى في ذلك
 الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم تذهب به
 حرارة الشمس . ويرجح ذلك لأنه على جهله حقيقة النور
 والظلمة ، يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نوراً
 هادئاً خفيفاً لطيفاً كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه . ثم
 يرجح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه تلقى هذا الهواء وهذا

الضياء لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية ، وإنما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه . وإذا كان قد بقي له من هذا الوقت ذكرى واضحة بينة لا سبيل إلى الشك فيها ، فإنما هي ذكرى هذا السياج الذى كان يقوم أمامه من القصب ، والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار . هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس . يذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقرباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسل فى ثناياه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد عن شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية ، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية . وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً ، فقد كانت تنتهى إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ، وكان لها فى حياته — أو قل فى خياله — تأثير عظيم .

يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسد الأرناب التى كانت تخرج من الدار كما يخرج منها ، وتتخطى السياج وثباً

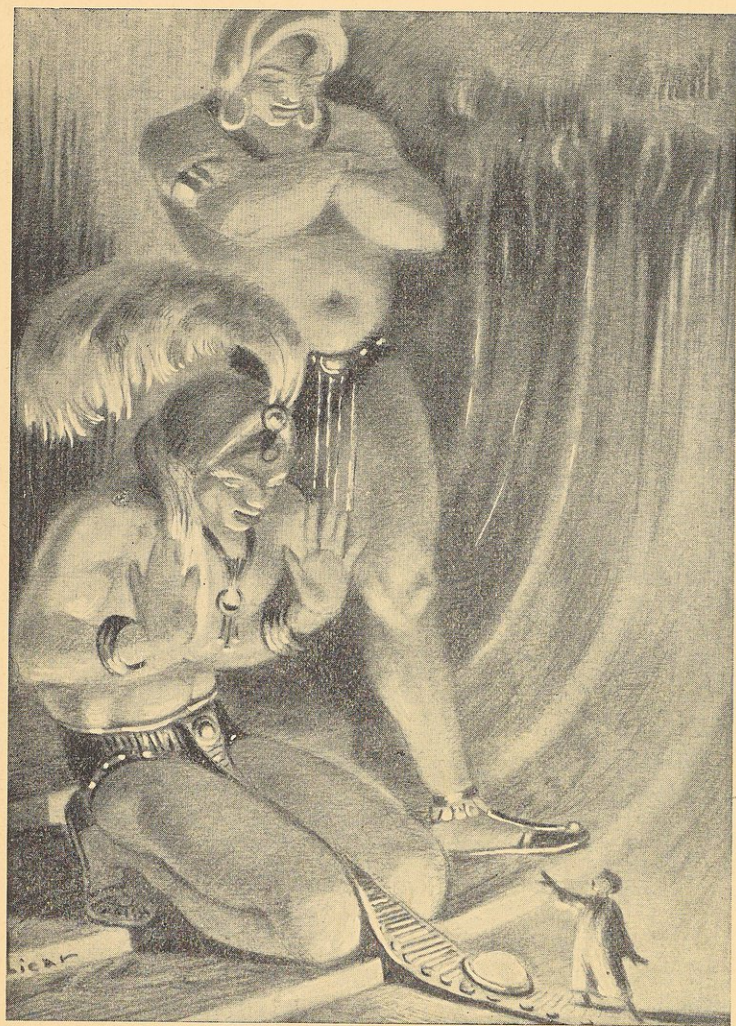
من فوق ، أو انسياً بين قصبه ، إلى حيث تقرض ما كان وراءه من نبت أخضر ، يذكر منه الكرب خاصة .

ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعشى الناس ، فيعتمد على قصب هذا السياج ، مفكراً مغرقاً في التفكير ، حتى يردّه إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتف حوله الناس وأخذ ينشدهم في نعمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب ، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب أو تستفزهم الشهوة ، فيستعيدون ويتمارون ويحتصمون ، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لغظهم بعد وقت قصير أو طويل ، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تكاد تتغير .

ثم يذكر أنه كان لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرة لاذعة ، لأنه كان يقدر أن سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمالة ، وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على

نخذ أمه ، ثم تعمد هذه إلى عينيهِ المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى ، وتقطر فيهما سائلاً يؤذيه ولا يجدى عليه خيراً ، وهو يألم ولكنه لا يشكو ولا يبكي لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكاءً شكاءً .

ثم يُنقل إلى زاوية في حجرة صغيرة ، فتدبمه أخته على حصير قد بسط عليها لحاف ، وتلقى عليه لحافاً آخر ، وتذره وإن في نفسه لحسرات ، وإنه ليمد سمعه مدّاً يكاد يخترق به الحائط لعله يستطيع أن يصله بهذه النغمات الحلوة التي يرددوها الشاعر في الهواء الطلق تحت السماء . ثم يأخذه النوم ، فما يحس إلا وقد استيقظ والناس نيام ، ومن حوله إخوته وأخواته يغطون فيسرفون في الغطيط ، فيلقى اللحاف عن وجهه في خيفة وتردد ، لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه . وكان واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف ، فلا بد من أن يعبث به عفريت من العفاريت الكثيرة التي كانت تعمّر أقطار البيت وتملأ أرجاء ونواحيه ، والتي كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمس واضطرب



الناس . فإذا أوت الشمس إلى كهفها ، والناس إلى مضاجعهم ، وأطفئت السرج ، وهدأت الأصوات ، صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطراباً وتهامساً وصياحاً .

وكان كثيراً ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج ، ويجهد في أن يميز بين هذه الأصوات المختلفة ، فأما بعضها فكانت أصوات ديك حقا ، وأما بعضها الآخر فكانت أصوات عفاريت تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثاً وكيداً . ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا يهابها ، لأنها كانت تصل إليه من بعيد ، إنما كان يخاف الخوف كله أصواتاً أخرى لم يكن يتبينها إلا بمشقة وجهه ، كانت تنبعث من زوايا الحجرة نحيفة ضئيلة ، يمثل بعضها أزيز الرجل يغلى على النار ، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ينقل من مكان إلى مكان ، ويمثل بعضها خشباً ينقصم أو عوداً ينحطم .

وكان يخاف أشد الخوف أشخاصاً يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة فسدته سداً ، وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه

شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر . وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة ، إلا أن يلتف في لحافه من الرأس إلى القدم ، دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذاً أو ثغرة . وكان واثقاً أنه إن ترك ثغرة في لحافه فلا بد من أن تمتد منها يد عفريت إلى جسمه فتتاله بالغمز والعبث .

لذلك كان يقضى ليله خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم ، وما كان يغلبه النوم إلا قليلاً . كان يستيقظ مبكراً أو قل كان يستيقظ في السحر ، ويقضى شطراً طويلاً من الليل في هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت ، حتى إذا وصلت إلى سمعه أصوات النساء يعدن إلى بيوتهن وقد ملأن جرارهن من القنأة وهن يتغنن « الله ياليل الله . . » عرف أن قد بزغ الفجر ، وأن قد هبطت العفاريت إلى مستقرها من الأرض السفلى ، فاستحال هو عفريتاً ، وأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت عال ، ويتغنى بما حفظ من نشيد الشاعر ، ويغمز من حوله من إخوته وأخواته ، حتى يوقظهم واحداً واحداً . فإذا تم له

ذلك ، فهناك الصباح والغناء ، وهناك الضجيج والعجيج ،
وهناك الضوضاء التي لم يكن يضع لها حداً إلا نهوض
الشيخ من سريره ، ودعاؤه بالأبريق ليتوضأ .
حينئذ تخفّت الأصوات وتهدأ الحركة ، حتى يتوضأ
الشيخ ويصلي ويقرأ ورده ويشرب قهوته ويمضي إلى عمله .
فإذا أغلق الباب من دونه نهضت الجماعة كلها من الفراش ،
وانسابت في البيت صائحة لاعبة حتى تختلط بما في البيت
من طير وماشية .





كان مطمئنًا إلى أن الدنيا تنتهي عن يمينه بهذه القناة التي
لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة ولم لا ؟ وهو
لم يكن يرى عرض هذه القناة ، ولم يكن يقدّر أن هذا العرض
ضئيل بحيث يستطيع الشاب النشيط أن يثب من إحدى
الحافتين فيبلغ الأخرى ، ولم يكن يقدر أن حياة الناس
والحيوان والنبات تتصل من وراء هذه القناة على نحو ما هي
من دونها ، ولم يكن يقدر أن الرجل يستطيع أن يعبر هذه
القناة ممتلئة دون أن يبلغ الماء إبطيه ، ولم يكن يقدر أن الماء
ينقطع من حين إلى حين عن هذه القناة ، فإذا هي حفرة
مستطيلة يعبت فيها الصبيان ، ويبحثون في أرضها الرخوة عما
تخلف من صغار السمك فمات لا تقطاع الماء عنه .

لم يكن يقدر هذا كله ، وإنما كان يعلم يقينًا لا يخالطه
الظن أن هذه القناة عالم آخر مستقل عن العالم الذي كان

يعيش فيه ، تعمره كائنات غريبة مختلفة لا تكاد تحصى ؛
منها التماسيح التى تزردد الناس ازدراداً ، ومنها المسحورون
الذين يعيشون تحت الماء بياض النهار وسواد الليل ، حتى إذا
أشرقت الشمس أو غربت طفوا يتنسمون الهواء ، وهم حين
يُطفون خطر على الأطفال وفتنة للرجال والنساء . ومنها
هذه الأسماك الطوال العراض التى لا تكاد تظفر بطفل حتى
تزدرده ازدراداً ، والتى قد يتاح لبعض الأطفال أن يظفروا
فى بطونها بخاتم الملك ، ذلك الخاتم الذى لا يكاد الإنسان
يديره فى أصبعه حتى يسمى إليه دون ملح البصر خادمان من
الجن يقضيان له ما يشاء ، ذلك الخاتم الذى كان يتختمه سليمان
فيسخر له الجن والريح وما شاء من قوى الطبيعة . وما كان
أحب إليه أن يهبط فى هذه القناة لعل سمكة من هذه
الأسماك تزدرده فيظفر فى بطنها بهذا الخاتم ، فقد كانت
حاجته إليه شديدة . . . ألم يكن يطمع على أقل تقدير
فى أن يحمله أحد هذين الخادمين إلى ما وراء هذه القناة
ليرى بعض ما هناك من الأعاجيب ؟ ولكنه كان يخشى

كثيراً من الأهوال قبل أن يصل إلى هذه السمكة المباركة .
على أنه لم يكن يستطيع أن يبلو من شاطئ هذه القناة
مسافة بعيدة ، فقد كان هذا الشاطئ محفوفاً عن يمينه وعن
شماله بالخطر . فأما عن يمينه فقد كان هناك العدويون ، وهم
قوم من الصعيد يقيمون في دار لهم كبيرة ، يقوم على بابها أبداً
كلبان عظيمان لا ينقطع نباحهما ، ولا تنقطع أحاديث الناس
عنهما ، ولا ينجو المار منهما إلا بعد عناء ومشقة . وأما عن
شماله فقد كانت هناك خيام يقيم فيها « سعيد الأعرابي »
الذى كان الناس يتحدثون بشره ومكره وحرصه على سفك
الدماء ، وامراته « كوابس » التى كانت قد اتخذت في أنفها
حلقة من الذهب كبيرة ، والتى كانت تختلف إلى الدار ،
وتقبل صاحبنا من حين إلى حين فيؤذيه خزامها ويروعه .
وكان أخوف الأشياء إليه أن يتقدم عن يمينه فيتعرض لكلبي
العدويين ، أو يتقدم عن شماله فيتعرض لشر « سعيد »
وامراته « كوابس » .

على أنه كان يجد في هذه الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة

من كل ناحية ضروباً من اللهو والعبث تملأ نهاره كله .
ولكن ذاكرة الأطفال غريبة ، أو قل إن ذاكرة الإنسان
غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة ، فهي تشمل
بعض هذه الحوادث واضحاً جلياً كأن لم يمض بينها وبينه من
الوقت شيء ، ثم يمحي منها بعضها الآخر كأن لم يكن بينها
وبينه عهد .

يذكر صاحبنا السياج والمزرعة التي كانت تنبسط من ورائه ،
والقناة التي كانت تنتهي إليها الدنيا ، و « سعيداً » و « كوابس »
وكلاب العدويين ، ولكنه يحاول أن يتذكر مصير هذا
كله فلا يظفر من ذلك بشيء . وكأنه قد نام ذات ليلة ثم
أفاق من نومه فلم ير سياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً ولا كوابس ،
وإنما رأى مكان السياج والمزرعة بيوتاً قائمة وشوارع منظمة ،
تتحدركلها من جسر القناة ممتدة امتداداً قصيراً من الشمال
إلى الجنوب ، وهو يذكر كثيراً من الذين كانوا يسكنون هذه
البيوت رجالاً ونساءً ، ومن الأطفال الذين كانوا يعشون في
هذه الشوارع .

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدم يمينا وشمالا على شاطئ القناة دون أن يخشى كلاب العدويين أو مكر سعيد وامراته . وهو يذكر أنه كان يقضى ساعات من نهاره على شاطئ القناة سعيدا مبتهجا بما سمع من نغمات « حسن » الشاعر يتغنى بشعره في أبي زيد وخليفة ودياب ، حين يرفع الماء بشادوفه ليسقى به زرعه على الشاطئ الآخر للقناة . وهو يذكر أنه استطاع غير مرة أن يعبر هذه القناة على كتف أحد إخوته دون أن يحتاج إلى خاتم الملك ، وأنه ذهب غير مرة إلى حيث كانت تقوم وراء القناة شجرات من التوت فأكل من ثوتها ثمرات لذيدة . وهو يذكر أنه تقدم غير مرة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلم وأكل فيها غير مرة تفاحا ، وقطف له فيها غير مرة نعناع وريحان . ولكنه عاجز كل العجز أن يتذكر كيف استحالت الحال وتغير وجه الأرض من طوره الأول إلى هذا الطور الجديد .



كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقته . وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصاً يمتاز من مكان إخوته وأخواته . أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ الحق أنه لا يتبين ذلك إلا في غموض وإبهام ، والحق أنه لا يستطيع الآن أن يحكم في ذلك حكماً صادقاً . كان يحس من أمه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه ليناً ورفقاً ، وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له . ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئاً من الإهمال أحياناً ، ومن الغلظة أحياناً أخرى . وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضاً ، والأزوارار من وقت إلى وقت . وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه ، لأنه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيء من الازدراء .

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله ، فقد أحس أن
لغيره من الناس عليه فضلاً ، وأن إخوته وأخواته يستطيعون
ما لا يستطيع ، [وينهضون من الأمر لما لا ينهض له] . وأحس
أن أمه تأذن لإخوته وأخواته في أشياء تحظرها عليه ، وكان
ذلك يحفظه . ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى
حزن صامت عميق ، ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له
به ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى .





كان من أول أمره طَلَعَةً لا يحفل بما يليق من الأمر
في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم. وكان ذلك يكلفه كثيراً
من الألم والعناء. ولكن حادثة واحدة حدثت مِيلَهُ إلى
الاستطلاع، وملأت قلبه حياءً لم يفارقه إلى الآن. كان جالساً
إلى العشاء بين إخوته وأبيه، وكانت أمه كعادتها تشرف على
حفلة الطعام، ترشد الخادم وترشد أخواته اللاتي كن يشاركن
الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطاعمون. وكان يأكل كما
يأكل الناس. ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب! ما الذي
يقع لو أنه أخذ اللقمة بكتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد
واحدة؟ وما الذي يمنعه من هذه التجربة؟ لا شيء، وإذا
فقد أخذ اللقمة بكتا يديه وغمسها من الطبق المشترك ثم رفعها
إلى فمه. فأما إخوته فأغرقوا في الضحك. وأما أمه فأجهشت
بالبكاء. وأما أبوه فقال في صوت هادئ حزين: ما هكذا

تؤخذ اللقمة يا بنى . . وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته .
من ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة
والإشفاق والحياء لا حد له . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه
إرادة قوية . ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألواناً من
الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين . حرم
على نفسه الحساء والأرز ، وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق ،
لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة ، وكان يكره أن
يضحك إخوته ، أو تبكي أمه ، أو يعلمه أبوه في هدوء حزين .
هذه الحادثة أعانتها على أن يفهم حقاً ما يتحدث به الرواة
عن أبي العلاء من أنه أكل ذات يوماً دبساً ، فسقط بعضه
على صدره وهو لا يدرى ، فلما خرج إلى الدرس قال له بعض
تلاميذه : ياسيدى أكلت دبساً ، فأسرع بيده إلى صدره
وقال : نعم قاتل الله الشره . ثم حرم الدبس على نفسه
طوال الحياة .

وأعانتها هذه الحادثة على أن يفهم طوراً من أطوار
أبي العلاء حق الفهم ، ذلك أن أبا العلاء كان يتستر في أكله

حتى على خادمه ، فقد كان يأكل في نفق تحت الأرض ، وكان يأمر خادمه أن يعدّ له طعامه في هذا النفق ثم يخرج ، ويخلو هو إلى طعامه فيأخذ منه ما يشتهي . وقد زعموا أن تلاميذه تذاكروا مرة بطيخ حلب وجودته ، فتكلف أبو العلاء وأرسل إلى حلب من اشترى لهم منه شيئاً ، فأكلوا واحتفظ الخادم لسيدة بشيء من البطيخ وضعه في النفق ، وكأنه لم يضعه في المكان الذي تعود أن يضع فيه طعام الشيخ ، وكره الشيخ أن يسأل عن حظه من البطيخ ، فلبث البطيخ في مكانه حتى فسد ولم يدقه الشيخ .

فهم صاحبنا هذه الأطوار من حياة أبي العلاء حق الفهم لأنه رأى نفسه فيها . فكم كان يتمنى طفلاً لو استطاع أن يخلو إلى طعامه ، ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يعلن إلى أهله هذه الرغبة . على أنه خلا إلى بعض الطعام أحياناً كثيرة ، ذلك في شهر رمضان وفي أيام المواسم الحافلة . حين كان أهله يتخذون ألواناً من الطعام حلوة ، ولكنها تؤكل بالملاعق ؛ فكان يأبى أن يصيب منها على المائدة . وكانت أمه تكره له

هذا الحرمان ، فكانت تُفرد له طبقاً خاصاً وتُحلى بينه وبينه في حجرة خاصة ، يُغلقها هو من دونه حتى لا يستطيع أحد أن يشرف عليه وهو يأكل .

على أنه عندما استطاع أن يملك أمر نفسه اتخذ هذه الخطة له نظاماً . بدأ بذلك حين سافر إلى أوروبا لأول مرة ، فتكلف التعب وأبى أن يذهب إلى مائدة السفينة ، فكان يحمل إليه الطعام في غرفته . ثم وصل إلى فرنسا فكانت قاعدته إذا نزل في فندق أو في أسرة أن يحمل إليه الطعام في غرفته دون أن يتكلف الذهاب إلى المائدة العامة . ولم يترك هذه العادة إلا حين خطب قرينته فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألفها .

هذه الحادثة أخذته بألوان من الشدة في حياته ، جعلته مضرب المثل في الأسرة وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية ؛ كان قليل الأكل لا لأنه كان قليل الميل إلى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه إخوته . وقد آلمه ذلك أول الأمر ،

ولكنه لم يلبث أن تعودته حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس . كان يسرف في تصغير اللقمة ، وكان له عم يُغِيظُه [منه ذلك] كلما رآه فيغضب وينهره ويلح عليه في تكبير اللقمة ، فيضحك إخوته . وكان ذلك سبباً في أن كره عمه كرههاً شديداً . كان يستحي أن يشرب على المائدة مخافة أن يضطرب القدح من يده ، أو ألا يحسن تناوله حين يقدم إليه ، فكان طعامه جافاً ما جلس على المائدة ، حتى إذا نهض عنها ليغسل يديه من حنفية كانت هناك شرب من مائها ما شاء الله أن يشرب ، ولم يكن هذا الماء نقياً دائماً ، ولم يكن هذا النوع من رى الظماً ملائماً للصحة ، فانتهى به الأمر إلى أن أصبح ممعوداً ، وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سبباً .

ثم حرم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شيء ، إلا ما لا يكلفه عناء ولا يعرضه للضحك أو الإشفاق . فكان أحب اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتجى بها زاوية من البيت ، فيجمعها ويفرقها ويقرع بعضها ببعض ، يُنفق في ذلك ساعات ، حتى إذ سئمه وقف على إخوته أو أترابه

وهم يلعبون ، فشاركهم في اللعب بعقله لا ييده . وكذلك عرف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بحظ . وانصرافه هذا عن العبت حبب إليه لونا من ألوان اللهو ؛ هو الاستماع إلى القصص والأحاديث ، فكان أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر ، أو حديث الرجال إلى أبيه ، والنساء إلى أمه . ومن هنا تعلم حسن الاستماع . وكان أبوه وطائفة من أصحابه يحبون القصص حباً جمّاً ، فإذا صلوا العصر اجتمعوا إلى واحد منهم يَتْلُو عليهم قصص الغزوات والفتوح ، وأخبار عنتره والظاهر بيبرس ، وأخبار الأنبياء والنسك والصالحين ، وكتباً في الوعظ والسنن . وكان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب وهم عنه غافلون ، ولكنه لم يكن غافلاً عما يسمع ، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر ، فإذا غربت الشمس تفرق القوم إلى طعامهم ، حتى إذا صلوا العشاء اجتمعوا فتحدثوا طرفاً من الليل ، وأقبل الشاعر فأخذ ينشدهم أخبار الهلالين والزناتيين ، وصاحبنا جالس يسمع في أول الليل كما كان يسمع في آخر النهار .



والنساء في قرى مصر لا يُحْبَن الصَّمْتُ ولا يَملَن إليه ،
فإذا خلت إحداهن إلى نفسها ولم تجد من تتحدث إليه ، تحدثت
إلى نفسها ألواناً من الحديث ، فغنت إن كانت فرحة ،
وعدّدت إن كانت محزونة . وكل امرأة في مصر محزونة حين
تريد . وأحب شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن
يذكرن آلامهن وموتاهن فيعدّدن ، وكثيراً ما ينتهي هذا
التعديد إلى البكاء حقاً . وكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع
إلى أخواته وهن يتغنين ، وإلى أمه وهي تعدد . وكان غناء
أخواته يغيظه ولا يترك في نفسه أثراً ، لأنه كان يجده سخيلاً
لا يدل على شيء ؛ في حين كان تعديد أمه يهزه هزاً عنيفاً ،
وكثيراً ما كان يبكيه . وعلى هذا النحو حفظ صاحبنا كثيراً
من الأغاني ، وكثيراً من التعديد ، وكثيراً من جد القصص
وهزله ، وحفظ شيئاً آخر لم تكن بينه وبين هذا كله صلة ؛
وهي الأوراد التي كان يتلوها جده الشيخ الضرير إذا أصبح
أو أمسى .

كان جده هذا ثقیل الظل بغيضاً إليه ، وكان يقضى في

البيت فصل الشتاء من كل سنة ، وكان قد صلح ونسك حين اضطرته الحياة إلى الصلاح والنسك ، فكان يصلي الخمس لأوقاتها ، ولم يكن لسانه يفتر عن ذكر الله . وكان يستيقظ آخر الليل ليقرأ « ورد سحر » وكان ينام في ساعة متأخرة بعد أن يصلي العشاء ويقرأ ألواناً من الأوراد والأدعية . وكان صاحبنا ينام في حجرة مجاورة لحجرة هذا الشيخ ، فكان يسمعه وهو يتلو ، وكان يحفظ ما يتلو حتى حفظ من هذه الأوراد والأدعية شيئاً كثيراً . وكان أهل القرية يحبون التصوف ويقيمون الأذكار ، وكان صاحبنا يحب منهم ذلك ، لأنه كان يلهو بهذا الذكر ، وبما ينشده المنشدون أثناءه . ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغاني والتعديد والقصص وشعر الهلالين والزناتيين والأوراد والأدعية وأنشيد الصوفية جملة صالحة ، وحفظ إلى ذلك كله القرآن .





ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن ، ولا يذكر كيف
 بدأه ، ولا كيف أعاده ، وإن كان يذكر من حياته في الكتاب
 مواقف كثيرة ، منها ما يضحك الآن ، ومنها ما يحزنه ؛ يذكر
 أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكتاب محملاً على كتف أحد
 أخويه ، لأن الكتاب كان بعيداً ، ولأنه كان أضعف من أن
 يقطع ماشياً تلك المسافة . ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى
 الكتاب . ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين
 يدي « سيدنا » ومن حوله طائفة من النعال ؛ كان يعبث
 ببعضها ، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع . وكان
 « سيدنا » جالساً على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعالية
 ولا بالمنخفضة قد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب
 بحيث يمر كل داخل « بسيدنا » . وكان « سيدنا » قد تعود متى
 دخل الكتاب أن يخلع عباءته ، أو بعبارة أدق « دِفْيَتُهُ »

ويلفها لفاً يجعلها في شكل المِخْدَة ويضعها عن يمينه ، ثم يخلع نعله
ويتربع على دِكتِه ، ويشعل سيجارته ، ويبدأ في نداء الأسماء .
وكان « سيدنا » لا يعنى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بدءاً ، كان
يرقعهما من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت . وكان
إذا أَخَلَّتْ به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكتّاب وأخذ
النعل بيده وقال له : تذهب إلى « الحزين » وهو هنا
قريب ، فتقول له : « يقول لك سيدنا إن هذه النعل في حاجة
إلى لوزة من الناحية اليمنى » انظر أترى ؟ هنا حيث أضع
أصبعي ، فيقول لك « الحزين » : « نعم سأضع هذه اللوزة »
فتقول له : « يقول لك سيدنا : يجب أن تتخير الجلد متيناً غليظاً
جديداً ، وأن تحسن الرقع بحيث لا يظهر ، أو بحيث لا يكاد
يظهر » فيقول لك : « نعم سأفعل هذا » فتقول له : « ويقول
لك سيدنا : إنه عميلك منذ زمن طويل ، فاستوص بالأجر
خيراً » ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش ، ثم عد إلى
مسافة ما أغمض عيني ثم أفتحها . وينطلق الصبي ويلهو عنه
سيدنا ، ثم يعود وقد أغمض سيدنا عينه وفتحها مرة ومرة ومرات .

على أن الرجل كان يستطيع أن يغمض عينه ويفتحها دون
أن يرى أو يكاد يرى شيئاً ، فقد كان ضريراً إلا بصيصاً
ضئيلاً جداً من النور في إحدى عينيه ، يمثل له الأشباح
دون أن يمكنه أن يميزها . وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص
الضئيل . . . وكان يخدع نفسه ويظن أنه من المبصرين . . .
ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتاب
وإلى البيت على اثنين من تلاميذه ، يبسط ذراعيه على كتفي
كل واحد منهما ، ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا ! قد
أخذوها على المارة ، حتى إنهم ليتنحون لهم عنها .
وكان منظر سيدنا عجيباً في طريقه إلى الكتاب وإلى
البيت صباحاً ومساءً . كان ضخماً بادناً ، وكانت دفتيه تزيد
في ضخامته ، وكان كما قدمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقه .
وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم
ضرباً . وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم
وأحسنهم صوتاً ؛ ذلك أنه كان يحب الغناء ، وكان يحب
أن يعلم تلاميذه الغناء ، وكان يتخير الطريق لهذا الدرس .

فكان يغنى ويأخذ رفيقه بمصاحبه حيناً ، والاستماع له حيناً آخر ، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر . وكان سيدنا لا يغنى بصوته ولسانه وحدهما ، وإنما يغنى برأسه وبدنه أيضاً ، فكان رأسه يهبط ويصعد ، وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً . وكان سيدنا يغنى بيديه أيضاً . فكان يوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه . وكان سيدنا يعجبه « الدور » أحياناً ، ويرى أن المشى لا يلائمه فيقف حتى يتمه . وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى صوته جميلاً . وما يظن صاحبنا أن الله خلق صوتاً أقبح من صوته . وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل : « إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » إلا ذكر سيدنا وهو يوقع آياتاً من « البردة » في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتاب .

يرى صاحبنا نفسه كما قدمنا ، جالساً على الأرض يعبت بالنعال من حوله ، وسيدنا يقرئه سورة الرحمن ، ولكنه لا يذكر أكان يقرأها بادتاً أم معيداً .

وكأنه يرى نفسه مرة أخرى جالساً لا على الأرض ولا بين
النعال ، بل على يمين سيدنا على دكة أخرى طويلة ، وسيدنا
يقرئه : « أ تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون
الكتاب أفلا تعقلون » وأكبر ظنه أنه كان قد أتم القرآن بدءاً
وأخذ يعيده . وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفظ
القرآن . فقد أتم حفظه ولما يتم التاسعة من عمره . وهو يذكر
في وضوح وجلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن ، ذلك أن
سيدنا كان يتحدث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن ،
وعن أن أباه سيتهج به . وكان يضع لذلك شروطاً ويطالب
بحقوقه . ألم يكن قد علم قبل صاحبنا أربعة من إخوته ذهب
واحد منهم إلى الأزهر ، والآخرون إلى المدارس ، وصاحبنا
هو الخامس . . . فكم لسيدنا على الأسرة من حقوق ! وحقوق
سيدنا على الأسرة كانت تتمثل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً ومالاً .
فأما الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعشوة
دسمة قبل كل شيء ، ثم جبة وقفطان وزوج من الأحذية
وطربوش مغربي وطاقيّة من هذا القماش الذي تتخذ منه العمام

وجنيه أحرر ، لا يرضى بشيء دون ذلك . . . فإذا لم يؤدَّ إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة ، ولا يقبل منها شيئاً ، ولا صلة بينه وبينها ، وهو يقسم على ذلك بمحرجات الإيمان . وكان هذا اليوم يوم الأربعاء . وكان سيدنا قد أنبأ في الصباح بأن صاحبنا سيختم القرآن في هذا اليوم . وأقبلوا في العصر ؛ يمشى سيدنا معتمداً على رفيقيه ، ويمشى صاحبنا من ورائه يقوده يتيم من أيتام القرية . حتى إذا بلغوا البيت دفع سيدنا الباب دفعاً ، وصاح صيحه المعتادة : « يا ستار » واتجه إلى المنطرة فإذا فيها الشيخ قد انفلت من صلاة العصر وهو يقرأ شيئاً من الأدعية كعادته ، فاستقبلهم مبتسماً مطمئناً ، وكان صوته هادئاً ، وكان صوت سيدنا عالياً ، وكان صاحبنا لا يقول شيئاً ، وكان اليتيم مبتهجاً . أجلس الشيخ سيدنا ورفيقه ، ووضع في يد اليتيم قطعة من فضة ، ودعا الخادم وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يصيب شيئاً من الطعام ، ومسح على رأس ابنه وقال : « ففتح الله عليك ، انصرف إلى أمك ، وقل لها إن سيدنا هنا » وكانت أمه قد سمعت صوت سيدنا ، وكانت قد أعدت له



ما لا بد منه في مثل هذا الوقت ، وهو كوز ضخم طويل من
السكر المذاب لا شيء عليه . أخرج إلى سيدنا هذا الكوز
فعبه عبًا ، وشرب رفيقاه كوين من السكر المذاب أيضًا . ثم
أخرجت القهوة فشر بها سيدنا مع الشيخ . وكان سيدنا يلحّ
على الشيخ أن يمتحن الصبي فيما حفظ من القرآن ، وكان
الشيخ يجيب : « دعه يلعب إنه صغير » . ثم نهض سيدنا
لينصرف ، فقال له الشيخ : « نصلي المغرب معًا إن شاء الله »
وكانت هذه هي الدعوة إلى العشاء . وما أحسب أن سيدنا نال
شيئًا آخر أجرًا على ختم صاحبنا للقرآن ، فقد كان يعرف الأسرة
منذ عشرين سنة ، وكان له فيها عادات غير مقطوعة ، وكانت
الكلفة بينه وبينها مرفوعة ، وكان واثقًا أن الحظ إن يخطئه معها
هذه المرة فلن يخطئه مرة أخرى .





منذ هذا اليوم أصبح صبينا شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة
لأنه حفظ القرآن ، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن
سنه . دعاه أبوه شيخاً ، ودعته أمه شيخاً ، وتعود سيدنا
أن يدعوه شيخاً أمام أبويه ، أوحين يرضى عنه ، أوحين يريد
أن يترضاه لأمر من الأمور . فأما فيما عدا ذلك فقد كان
يدعوه باسمه ، وربما دعاه « بالواد » . وكان شيخنا الصبي قصيراً
نحيفاً شاحباً زريّ الهيئة على نحو ما ، ليس له من وقار الشيوخ
ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو كثير . وكان أبواه
يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذي أضافاه إلى اسمه
كبراً منهما وعجباً لا تطفأ به ولا تحبباً إليه . أما هو فقد
أعجبه هذا اللفظ في أول الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر
من مظاهر المكافأة والتشجيع . كان ينتظر أن يكون شيخاً
حقاً ، فيتخذ العمة ويلبس الجبة والقفطان ، وكان من العسير

إِقْناعَه بأنه أصغر من أن يَحْمِلَ العِمةَ ومن أن يدخل في القفطان . . . وكيف السبيل إلى إقْناعِه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن ! وكيف يكون الصغير شيخًا ! وكيف يكون من حفظ القرآن صغيراً ! هو إذاً مظلوم . . . وأى ظلم أشد من أن يحال بينه وبين حَقِّه في العِمة والجبة والقفطان ! . .

وما هي إلا أيام حتى سَمَّ لَقَبَ الشيخ ، وكره أن يدعى به ، وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع .

ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء للقب الشيخ ، وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الغرور والعجب ، ثم لم يلبث أن نسى هذا كله فيما نسى من الأشياء .

على أنه في حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يدعى شيخاً ، وإنما كان خليقاً رغم حفظه للقرآن أن يذهب إلى الكتّاب كما كان يذهب مهمل الهيئة ، على رأسه طاقيته التي تنظف يوماً في الأسبوع ، وفي رجله حذاء يجدد مرة في السنة ،

ولا يدعه حتى لا يحتمل شيئاً ، فإذا تركه فليمش حافياً أسبوعاً
أو أسابيع حتى يأذن الله له بحذاء جديد . كان خليفاً بهذا كله
لأن حفظه للقرآن لم يدم طويلاً . . . أكان وحده مَلُومًا
في ذلك ؟ أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيدنا ؟ الحق أن
سيدنا أهمله حيناً وعنى بغيره من الذين لم يهتموا بالقرآن .
أهمله ليستريح ، وأهمله لأنه لم يتقاض أجراً على ختمه للقرآن ،
واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال ، وأخذ يذهب إلى الكتاب
يقضى فيه طوال النهار في راحة مطلقة ، ولعب متصل ، ينتظر
أن تنتهى السنة ويأتى أخوه الأزهرى من القاهرة ، حتى إذا
انتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة ، اصطحبه ليصبح شيئاً حقاً ،
وليُجاور في الأزهر .

ومضى على هذا شهر وشهر وشهر . يذهب صاحبنا إلى
الكتاب ويعود منه في غير عمل ، وهو واثق بأنه قد حفظ
القرآن ، وسيدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن ، إلى أن كان اليوم
المشئوم . . . كان هذا اليوم مشئوماً حقاً ، ذاق فيه صاحبنا
لأول مرة مرارة الخزي والدلة والضعفة وكره الحياة . عاد من

الكتاب عصر ذلك اليوم مطمئناً راضياً ، ولم يكد يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ ، فأقبل عليه ومعه صديقان له .
فقلقه أبوه مبتهجاً ، وأجلسه في رفق ، وسأله أسئلة عادية ، ثم طلب إليه أن يقرأ « سورة الشعراء » . وما هي إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة ، ففكر وقدّر ، وتحفّز واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وسمى الله الرحمن الرحيم . ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها إحدى سور ثلاث ، أولها (طسم) ، فأخذ يردّد (طسم) مرة ومرة ومرة ، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها . وفتح عليه أبوه بما يلي هذه الكلمة من سورة الشعراء ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة . قال أبوه : فاقراً سورة النمل . فذكر أن أول سورة النمل ، كأول سورة الشعراء (طس) وأخذ يردّد هذا اللفظ ، وفتح عليه أبوه ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى قال أبوه : فاقراً سورة القصص ، فذكر أنها الثالثة ، وأخذ يردّد (طسم) ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة ، ولكنه قال له في هدوء : قم ، فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن . قام خجلاً يصيب عرقاً ، وأخذ الرجلان

يعتذران عنه بالخجل وصغر السن ، ولكنه مضى لا يدرى أي يوم نفسه لأنه نسي القرآن ، أم يوم سيدنا لأنه أهمله ، أم يوم أباه لأنه امتحنه . . . ؟

ومهما يكن من شيء ، فقد أمسى هذا اليوم شرّ مساء ، ولم يظهر على مائدة العشاء ، ولم يسأل عنه أبوه ، ودعته أمه في إعراض إلى أن يتعشى معها ، فأبى . فأنصرفت عنه ونام .

ولكن هذا المساء المنكر كان في جملة خيراً من الغد . ذهب إلى الكتاب ، فإذا سيدنا يدعو في جفوة : ماذا حصل بالأمس ؟ وكيف عجزت عن أن تقرأ سورة الشعراء ؟ وهل نسيتها حقاً ؟ أتلها على ! فأخذ صاحبنا يردد (طسم) وكانت له مع سيدنا قصة كقصته مع أبيه . قال سيدنا : عوضني الله خيراً فيما أنفقت معك من وقت ، وما بذلت في تعليمك من جهد ، فقد نسيت القرآن ويجب أن تعيده . ولكن الذنب ليس عليك ولا على ، وإنما هو على أهلك ؛ فلو أنه أعطاني أجري يوم ختمت القرآن

لبارك الله له في حفظك ، ولكنه منعى حتى فمحا الله القرآن
من صدرك .

ثم بدأ يقرئه القرآن من أوله ، شأنه مع من لم يكن
شيخاً ولا حافظاً .





وليس من شك في أنه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً
جيداً في مدة قصيرة جداً. فهو يذكر أنه عاد من الكتاب
ذات يوم مع سيدنا، وكان سيدنا في هذا اليوم حريصاً على أن
يعود معه، حتى إذا وصلوا إلى الدار عطف عليها سيدنا فدفع
الباب فاندفع له، وصاح صيحته المألوفة: يا ستار! وكان
الشيخ كعادته في المنطرة قد فرغ من صلاة العصر: فلما
استقر سيدنا في مجلسه، قال للشيخ: « زعمت أن ابنك قد
نسي القرآن، ولمتني في ذلك لوماً شديداً، وأقسمت لك أنه
لم ينس وإنما خجل، فكذبني وعبثت بلحيتي هذه، وقد
جئت اليوم لمتجن ابنك أُمّمي، وأنا أقسم: لئن ظهر أنه
لا يحفظ القرآن. لأحلقن لحيتي هذه ولأصبحن معرة الفقهاء
في هذا البلد. قال الشيخ: « هوّن عليك! وما لك لا تقول:
إنه نسي القرآن ثم أقرأته إياه مرة أخرى »؟ قال: « أقسم

بِالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته ، وإنما استمعتُ له القرآن ،
فتلاه على كالماء الجاري ، لم يقف ولم يتردد .

وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار ، وكان مقتنعا أن أباه
مُحَقِّقٌ وأن سيدنا كاذب ، ولكنه لم يقل شيئاً ، ولبت منتظراً
الامتحان .

وكان الامتحان عسيراً شاقاً ، ولكن صاحبنا كان في هذا
اليوم نجيباً بارعاً ، لم يُسأل عن شيء إلا أجاب في غير تردد
وقرأ في إسراع ، حتى كان الشيخ يقول له : « على مهلك فإن
الكر في القرآن خطيئة » . حتى إذا أتم الامتحان قال له أبوه :
« فتح الله عليك ، إذهب إلى أمك فقل لها إنك حفظت
القرآن حقاً » . ذهب إلى أمه ولكنه لم يقل لها شيئاً ولم تسأله
عن شيء . وخرج سيدنا في ذلك اليوم ، ومعه جبة من الجوخ
خلعها عليه الشيخ .





وأقبل سيدنا إلى الكتاب من الغد مسروراً مبهجاً ، فدعا
الشيخ الصبي بلقب الشيخ هذه المرة قائلاً : أمّا اليوم ، فأنت
تستحق أن تدعى شيخاً ، فقد رفعت رأسي وبيضت وجهي
وشرفت لحيتي أمس ، واضطر أبوك إلى أن يعطيني الجبة . ولقد
كنت تتلو القرآن أمس كسلاسل الذهب ، وكنت على النار
مخافة أن نزل أو تحرف ، وكنت أحصنك بالحي القيوم الذي
لا ينام ؛ حتى انتهى هذا الامتحان . وأنا أعفيك اليوم من
القراءة ، ولكن أريد أن آخذ عليك عهداً ، فعدني بأن تكون
وفياً . قال الصبي في استحياء : لك على الوفاء . قال سيدنا :
فأعطني يدك . وأخذ بيد الصبي . فما راع الصبي إلا شئ في يده
غريب ، ما أحس مثله قط ، عريض يترجرج ، ملؤه شعر
تغور فيه الأصابع ، ذلك أن سيدنا قد وضع يد الصبي على لحيته
وقال : هذه لحيتي أسلمك إيّاها ، وأريد ألا تهينها ، فقل :

« والله العظيم » ثلاثاً ، « وحق القرآن المجيد لا أهينها » .
وأقسم الصبي كما أراد سيدنا . حتى إذا فرغ من قسمه ؛ قال له
سيدنا : كم في القرآن من جزء ؟ قال : ثلاثون . قال سيدنا :
وكم نشتغل في الكتاب من يوم ؟ قال الصبي : خمسة أيام .
قال سيدنا : فإذا أردت أن تقرأ القرآن مرة في كل أسبوع ،
فكم تقرأ من جزء كل يوم ؟ فكر الصبي قليلاً ثم قال :
ستة أجزاء . قال سيدنا : فتقسم لتتلون على العريف ستة أجزاء
من القرآن في كل يوم من أيام العمل ، ولتكون هذه التلاوة
أول ما تأتي به حين تصل إلى الكتاب . فإذا فرغت منها
فلا جناح عليك أن تلهو وتلعب ، على ألا تصرف الصبيان عن
أعمالهم . . أعطى الصبي على نفسه هذا العهد . ودعا سيدنا
العريف فأخذ عليه عهداً مثله ، ليسمع للصبي في كل يوم
ستة أجزاء من القرآن ، وأودعه شرفه ، وكرامة لحيته ، ومكانة
الكتاب في البلد ، وقبل العريف الوديعة . وانتهى هذا المنظر
وصبيان الكتاب ينظرون ويعجبون .



من ذلك اليوم انقطعت صلة الصبي التعليمية « بسيدنا » ،
واتصلت بالعزيز . ولم يكن العريف أقل غرابة من سيدنا .
كان شاباً طويلاً نحيفاً أسود فاحماً ، أبوه سودانى ، وأمه
مولدة ، وكان سيء الحظ ، لم يوفق فى حياته إلى خير ، جرب
الأعمال كلها فلم يفلح فى شىء منها . أرسله أبوه عند كثير
من الصنائع ليتعلم صنعة فلم يفلح . وحاول أن يجد له فى معمل
السكر ؛ شغل العامل أو الخفير أو البواب أو الخادم ، فلم يفلح
فى شىء من هذا . وكان أبوه ضيق الصدر به ، يمتقته ويزدريه ،
ويؤثر عليه اخوته الذين يعملون جميعاً ويكسبون . وكان قد
ذهب الى الكتّاب فى صباه فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ
سوراً من القرآن لم يلبث أن نسيها . فلما ضاقت به الحياة
وضاق بها أقبل الى سيدنا فشكا اليه أمره ، قال له سيدنا :
فتعال هنا فكن عريفاً . عليك أن تعلم الصبيان القراءة

والكتابة ، وتلاحظهم وتمنعهم من العبث ، وتقوم مقامى متى غبت ، وعلى أن أقرئهم القرآن وأحفظهم إياه . وعليك أن تفتح الكتاب قبل أن تطلع الشمس ، وتشرف على تنظيفه قبل أن يحضر الصبيان ، وعليك أن تغلق الكتاب متى صليت العصر ، وتأخذ مفتاحه ، وعليك مع هذا كله ؛ أن تكون يدى اليمنى ، ولك ربع ما يأتى به الكتاب من نقد ، تقتضى ذلك فى كل أسبوع أو فى كل شهر . وتم هذا العقد بين الرجلين وقرأ عليه الفاتحة ، وبدأ العريف عمله .

وكان العريف يبغض سيدنا بغضا شديداً ويزدرية ، ولكنه يصانعه . وكان سيدنا يكره العريف كرهاً عنيفاً ويحتقره ، ولكنه يتملقه .

فأما العريف فكان يكره سيدنا ؛ لأنه أثر غشاش كذاب ، يخفى عليه بعض موارد الكتاب ، ويستأثر بخير ما يحمل الصبيان معهم من طعام . ويزدرية ؛ لأنه كان ضريراً يتكلف الإبصار ، وكان قبيح الصوت ، يتكلف حسن الصوت . وأما سيدنا فكان يكره العريف ؛ لأنه مكارهاة ، ولأنه يخفى عليه

كثيراً مما ينبغي أن يعلمه ، ولأنه سارق ؛ يسرق ما يوضع بين يديهما من الطعام وقت الغداء ، ويختلس أطايبه ، ولأنه يأتمر مع كبار الصبيان في الكتاب ، ويعبت معهم على غفلة منه ، فإذا صليت العصر وأغلق الكتاب كان يئنه وبينهم مواعيد هناك عند شجر التوت ، أو عند « القنطرة » أو في « معمل السكر » .

ومن غريب الأمر أن الرجلين كانا صادقين مصيبين ، وأنهما كانا مضطرين إلى أن يتعاونوا على كره ومضض ؛ أحدهما محتاج إلى أن يعيش ، والآخر محتاج إلى من يدبر له أمور الكتاب .

اتصل صبينا بالعريف ، وأخذ يتلو القرآن بين يديه ، ستة أجزاء في كل يوم . ولكن ذلك لم يستمر ثلاثة أيام ، ضاق الصبي بهذه التلاوة منذ اليوم الأول ، وضاق العريف بها منذ اليوم الثاني ، وتكاشفا بهذا الضيق في اليوم الثالث ، واتفقا منذ اليوم الرابع على أن يتلو الصبي في سره ، ستة أجزاء بين يدي العريف ، حتى إذا أحس اضطراباً ، أو غاب عنه لفظ ،

سأل عنه العريف . وأخذ الصبي يأتي في كل يوم ، فيسلم على العريف ، ويجلس على الأرض بين يديه ، ويحرك شفثيه متمماً كأنه يقرأ القرآن ، ويسأل العريف من حين إلى حين عن كلمة ، فيجيبه مرة ، ويتناقل عنه مرة أخرى . ويأتي سيدنا في كل يوم قبيل الظهر ؛ فإذا سلم وجلس ، كان أول عمل يأتيه أن يدعو الصبي فيسأله : أقرأت ؟ — نعم — من أين إلى أين ؟ وكان الصبي يجيب : من البقرة إلى « لتجدن » في يوم السبت ، ومن « لتجدن » إلى « وما أبرئ » في يوم الأحد . . . وكذلك قسم القرآن ستة أقسام اصطلاح عليها الفقهاء ، وخص لكل يوم من الأيام الخمسة ، قسماً من هذه الأقسام يخبر به سيدنا متى سأله .

ولكن العريف لم يكن ليكتفي بهذا الاتفاق الذي يريجه ويريح الصبي ، وإنما كان يطمع في أن يستفيد من موقف الصبي بين يديه ، وكان ينذر الصبي من حين إلى حين ، بأنه سيخبر سيدنا ، أنه قد وجد بعض السور « متعتة » عند الصبي ، « سورة هود » ، أو « سورة الأنبياء » ، أو « سورة

الأحزاب» ، وإذ كان القرآن كله «متنعماً» (سبيء الحفظ) عند الصبي ، لأنه أهمل قراءته منذ أشهر ، فقد كان يكره أن يمتحنه سيدنا ، ويشتري صمت العريف بكل شيء . وكم دفع إلى العريف ما كان يملأ جيبه من خبز ، أو فطير ، أو تمر . . . وكم دفع إليه هذا القرش الذي كان يعطيه إياه أبوه من حين إلى حين ، والذي كان يريد أن يشتري به أقراص النعناع . وكم احتال على أمه ، ليأخذ منها قطعة ضخمة من السكر ، حتى إذا وصل إلى الكتاب دفعها إلى العريف ، وإنه ليشتيها كلها أو بعضها ، فيأخذها العريف ويدعو بالماء يغمس فيه السكر ، ثم يحصه مصاً شديداً ، ثم يزدرد السكر وقد ذاب أو كاد . . . وكم نزل عن طعامه الذي كان يحمل إليه من البيت ظهر كل يوم ، وإنه لشديد الجوع ، ليأكل العريف مكانه ؛ ولا يخبر سيدنا بأن القرآن عنده متنع . . .

على أن هذه الصلوات المستمرة لم تلبث أن ضمنت له مودة العريف ، فقد اتخذه العريف صديقاً ، وأخذ يصطحبه إلى الجامع بعد الغداء ليصلي معه الظهر ، ثم أخذ يعتمد عليه ،

ويشق به ، ويطلب إليه أن يقرئ القرآن بعض الصبيان ، أو يسمعه من بعض الذين أخذوا يعيدون ويحفظون . وهنا كان صاحبنا يسلك مع تلاميذه مسلك العريف معه بالدقة ، كان يجلس الصبيان بين يديه ، ويأخذهم بالتلاوة ثم يتشاغل عنهم بالحديث مع أترابه ، حتى إذا فرغ من حديثه ، التفت إليهم ، فإذا آنس منهم عبثاً أو إبطاءً أو اضطراباً ، فالنذير ، ثم الشتم ، ثم الضرب ، ثم إخبار العريف . والحق أنه لم يكن أحسن حفظاً للقرآن من تلاميذه ، ولكن العريف قد اتخذ معه هذه الخطة ، فيجب أن يكون هو عريفاً حقاً . وإذا كان العريف لا يشتمه ولا يضربه ، ولا يرفع أمره إلى سيدنا ، فذلك لأنه يدفع ثمن ذلك كله غالياً . وقد فهم الصبيان هذا فأخذوا يدفعون له الثمن غالياً أيضاً ، وأخذ هو يسترد بالرشوة ما كان يدفع إلى العريف . على أن رشوته كانت متنوعة ، فلم يكن محروماً في بيته ، ولم يكن في حاجة إلى الخبز ولا إلى التمر ولا إلى السكر ، ولم يكن يستطيع أن يقبل « الفلوس » . وماذا يصنع بالفلوس وهو لا يستطيع أن ينفقها وحده ؟ فهو إن

قبلها دلّ على نفسه ، وافتضح أمره . وإذا فقد كان عسيراً ،
وكان إرضاءه شاقاً . وكان الصبيان يتفننون في إرضائه فيشترون
له أقراص النعناع و « السكر النبات » و « اللب » و « الفول
السوداني » ، وكان يتفضل بكثير من ذلك على العريف .

ولكن لونا من الرشوة خاصاً كان يعجبه ويفتنه ، ويشجعه
على أن يهمل واجبه أشنع إهمال ، وهذا اللون هو القصص
والحكايات والكتب . فإذا استطاع الصبي أن يقص عليه
أحدوثة ، أو يشتري له كتاباً من هذا الرجل الذي يتنقل
بالكتب في قرى الريف ، أو يتلو عليه فصلاً من قصة
« الزير سالم » أو « أبي زيد » فهو واثق بما شاء من رضاه ،
ورفقه ومحاباته ، وكان أمهر تلاميذه في هذه ، صبية مكفوفة
البصر ، يقال لها نفيسة . أرسلها أهلها إلى الكتاب لتحفظ
القرآن فحفظته ، وأتقنت حفظه ، ووكّلها سيدنا إلى العريف ،
ووكّلها العريف إلى صاحبنا ، وأخذ صاحبنا يسلك معها
مسلك العريف معه . وكان أهل هذه الفتاة أغنياء ، ولكنهم
من المحدثين . كان أبوها حماراً ثم أصبح تاجراً ثرياً ، وكان

ينفق على أهله من غير حساب ، ويسبغ عليهم سعة غريبة
من العيش . فلم تكن تنقطع الفلوس من يد نفيسة . وكانت
أقدر الصبيان على تخير الرشا ، ثم كانت أحفظهم للقصص ،
وأقدرهم على الاختراع ، وأحفظهم لألوان الغناء المفرح ،
والتعديد المبكى ، وكانت تحسن الغناء والتعديد معاً . وكانت
غريبة الأطوار ، في عقلها شىء من الاضطراب ، فكانت
تلهى صاحبنا أكثر وقته بحديثها وتعديدها ، وأقاصيصها
وألوان رشوتها . وبينما كان صاحبنا يرشو ويرتشى ، ويخدع
ويُخدع ، كان القرآن يمحي من صدره آية آية ، وسورة وسورة ،
حتى كان اليوم المحتوم . . . ويا له من يوم ! . . .





كان يوم الأربعاء ، وكان صاحبنا قد قضاه فرحاً مسروراً .
زعم لسيدنا في أول النهار أنه قد أتم الختمة ، ثم فرغ بعد ذلك
لاستماع القصص والأحاديث ، وعبث إلى آخر النهار .
فلما انصرف من الكتاب لم يذهب إلى البيت ، وإنما
ذهب مع جماعة من أصحابه إلى الجامع ليصلي العصر . وكان
يجب الذهاب إلى الجامع ، والصعود في المنارة ، والاشتراك مع
المؤذن في التسليم (وهو النداء الذي يلي الأذان الشرعى) .
ذهب في ذلك اليوم وصعد في المنارة ، واشترك في الأذان
وصلى . وأراد أن يعود إلى البيت ، ولكنه افتقد نعله فلم يجدها .
كان قد وضعها إلى جانب المنارة ، فلما فرغ من الصلاة ذهب
يلتمسها فإذا هي قد سرقت . أحزنه ذلك بعض الشيء ،
ولكنه كان فرحاً مبتهجاً هذا اليوم ، فلم يجزع ولم يقدر للامر
عاقبة ، وعاد إلى البيت حافياً . وما كان أبعد المسافة بين البيت

والجامع ! ولكن ذلك لم يرعه فكثيراً ما مشى حافياً .
دخل البيت ، وإذا الشيخ في المنظرة كعادته يدعو :
وأي نعلاك ؟ فيجيب : نسيتهما في الكتاب . فلا يحفل
الشيخ بهذا الجواب ، ثم يهمل الصبي حيناً ريثما يدخل
فيتحدث إلى أمه وإخوته قليلاً ، ويأكل كسرة من الخبز ؛
كان من عادته أن يأكلها متى عاد من الكتاب . ثم يدعو
الشيخ ، فيسرع إلى إجابته . فإذا استقر به مكانه ، قال له أبوه :
ماذا تلوت اليوم من القرآن ؟ فيجيب : ختمته وتلوت الأجزاء
الستة الأخيرة . قال الشيخ : وما زلت تحفظه حفظاً جيداً ؟
قال : نعم . قال الشيخ : فاقراً لي سورة سبأ . وكان صاحبنا قد
نسى سورة سبأ ، كما نسى غيرها من السور ، فلم يفتح الله عليه
بحرف . قال الشيخ : فاقراً سورة فاطر ، فلم يفتح الله عليه
بحرف . قال الشيخ في هدوء وسخرية : وقد زعمت أنك
ما زلت تحفظ القرآن ! فاقراً سورة يس . ففتح الله عليه
بالآيات الأولى من هذه السورة ، ولكن لسانه لم يلبث أن
انعقد ، وريقه لم يلبث أن جف ، وأخذته رعدة منكرة تصبب

على أثرها في وجهه عرق بارد . قال الشيخ في هدوء : قم واجتهد في أن تنسى نعليك كل يوم ، فما أرى إلا أنك أضعتكما كما أضعت القرآن ، ولكن لي مع سيدك شأنًا آخر . خرج صاحبنا من المنطرة منكس الرأس مضطربًا يتعثر ، ومضى في طريقه حتى وصل إلى الكرار — والكرار حجرة في البيت كانت تدخر فيها ألوان من الطعام ، وكان يربي فيها الحمام — وكانت في زاوية من زواياها القرمة — وهي قطعة ضخمة عريضة من الخشب كأنها جذع شجرة — كانت أمه تقطع عليها اللحم . وكانت تدع على هذه القرمة طائفة من السكاكين ؛ منها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها الثقيل ، ومنها الخفيف .

مضى صاحبنا حتى وصل إلى الكرار ، وانعطف إلى الزاوية التي فيها القرمة ، وأهوى إلى الساطور ، وهو أغلظ ما كان عليها من سكين وأحده وأثقله ، فأخذه يميناه وأهوى به إلى قفاه ضربًا ! ثم صاح ، وسقط الساطور من يديه ، وأسرعت أمه إليه ، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مرّ بها ،

فإذا هو واقف يضطرب والدم يسيل من قفاه ! والساطور
ملقى إلى جانبه . . . وما أسرع ما ألفت أمه نظرة إلى الجرح !
وما أسرع ما عرفت أنه ليس شيئاً ! وما هي إلا أن انهالت
عليه شتماً وتأنيباً ، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به
إلى زاوية من زوايا المطبخ ، فألقته فيها إلقاءً وانصرفت إلى
عملها . ولبت صاحبنا في مكانه لا يتحرك ولا يتكلم ، ولا يبكي
ولا يفكر كأنه لا شيء . وإخوته وأخواته من حوله يضطربون
ويلعبون ، لا يحفلون به ولا يلتفت إليهم .

وقربت المغرب ، وإذا هو يدعى ليحيب أباه ، فخرج
خزيان متعثراً حتى انتهى إلى المنطرة . فلم يسأله أبوه عن شيء ،
وإنما ابتدره سيدنا بهذا السؤال : ألم تقرأ على اليوم الأجزاء
الستة من القرآن ؟ قال : بلى . قال : ألم تقرأ على أمس سورة
سبأ ؟ قال : بلى . قال : فما بالك لم تستطع أن تقرأها اليوم ؟ فلم
يجب . قال سيدنا : فاقرا سورة سبأ ، فلم يفتح الله عليه منها
بحرف . قال أبوه : فاقرا السجدة . فلم يحسن شيئاً . هنا اشتد
غضب الشيخ ، ولكن على سيدنا لاعلى الصبي . قال : وإذا فهو

يذهب إلى الكتاب لا ليقراً ولا ليحفظ ، ولا لتغنى به أو
تلتفت إليه ، وإنما هو لعب وعبث ! ولقد عاد اليوم حافياً ،
وزعم أنه نسي نعليه في الكتاب . . . وما أظن عنايتك بحفظه
للقرآن ، الا كعنايتك بعشيه حافياً أو ناعلاً . . .

قال سيدنا : أقسم بالله العظيم ثلاثاً ما أهملته يوماً ، ولولا
أنى خرجت اليوم من الكتاب قبل انصراف الصبيان ، لما
رجع حافياً . وانه ليقراً على القرآن مرة في كل أسبوع : ستة
أجزاء في كل يوم ، أسمعها منه متى وصلت في الصباح . قال
الشيخ : لا أصدق من هذا شيئاً . قال سيدنا : امرأتى طالق ثلاثاً
ما كذبتك قط ، وما أنا بكاذب الآن ، واني لأسمع له القرآن
مرة في كل أسبوع . قال الشيخ : لا أصدق . قال سيدنا :
أفتظن أن ما تدفع إليّ في كل شهر أحب إليّ من امرأتى ؟ أم
تظن أنى في سبيل ما تدفع إليّ أستحل الحرام ، وأعيش
مع امرأة طلقها ثلاثاً بين يديك ؟ قال الشيخ : ذلك شيء
لا شأن لى به ، ولكن هذا الصبي لن يذهب الى الكتاب
منذ غد . ثم نهض فانصرف ، ونهض سيدنا فانصرف كئيباً

محزونًا . وظل صاحبنا في مكانه لا يفكر في القرآن ولا فيما كان ، وإنما يفكر في مقدرة سيدنا على الكذب ، وفي هذا الطلاق المثلث الذي ألقاه كما يلقي سيجارته متى فرغ من تدخينها !!!

ولم يظهر الصبي في هذه الليلة على المائدة . ومكث ثلاثة أيام يتجنب مجلس أبيه ويتجنب المائدة . حتى إذا كان اليوم الرابع دخل أبوه عليه في المطبخ حيث كان يحب أن ينزوى إلى جانب الفرن ؛ فما زال يكلمه في دعاة وعطف ورفق ، حتى أنس الصبي إليه ، وانطلق وجهه بعد عبوسه ، وأخذ أبوه بيده فأجلسه مكانه من المائدة ، وعنى به أثناء الغداء عناية خاصة . حتى إذا فرغ الصبي من طعامه ونهض لينصرف ، قال أبوه هذه الجملة في مزاح قاس لم ينسه قط ، لأنه أضحك منه إخوته جميعًا ، ولأنهم حفظوها له ، وأخذوا يغيظونه بها من حين إلى حين — قال : « أحفظت القرآن ؟ »



وانقطع الصبي عن الكتّاب ، وانقطع سيدنا عن البيت
والتمس الشيخ فقيهاً آخر يختلف إلى البيت في كل يوم ؛
فيتلو فيه سورة من القرآن مكان سيدنا . ويقرىء الصبي
ساعة أو ساعتين . وظل الصبي حراً يعبت ويلعب في البيت
متى انصرف عنه الفقيه الجديد . حتى إذا كان العصر أقبل
عليه أصحابه ورفاقه منصرفهم من الكتّاب ، فيقصون عليه
ما كان في الكتّاب ، وهو يلهو بذلك ، ويعبت بهم وبكتّابهم ،
وبسيدنا وبالعريف . وكان قد خيل إليه أن الأمر قد انبتَّ
بينه وبين الكتّاب ومن فيه ، فلن يعود إليه ، ولن يرى
الفقيه ولا العريف . فأطلق لسانه في الرجلين إطلاقاً شنيعاً ،
وأخذ يظهر من عيوبهما وسيئتهما ما كان يخفيه ، وأخذ
يلغهما أمام الصبيان ويصفهما بالكذب والسرقة والطمع .
ويتحدث عنهما بأشياء منكرة ؛ كان يجد في التحدث بها شفاءً

لنفسه ، ولذة لهؤلاء الصبيان . وما له لا يطلق لسانه في
الرجلين ، وليس بينه وبين السفر إلى القاهرة إلاَّ شهر واحد ؟
فسيعود أخوه الأزهرى من القاهرة بعد أيام ؛ حتى إذا قضى
إجازته اصطحبه إلى الأزهر ، حيث يصبح مجاوراً ، وحيث
تنقطع عنه أخبار الفقيه والعريف .

الحق أنه كان سعيداً في هذه الأيام ؛ كان يشعر بشيء من
التفوق على رفاقه وأترابه ، فهو لا يذهب إلى الكتاب كما
يذهبون ، وإنما يسعى إليه الفقيه سعيًا . وسيسافر إلى
القاهرة حيث الأزهر ، وحيث « سيدنا الحسين » وحيث
« السيدة زينب » وغيرهما من الأولياء . وما كانت القاهرة
عنده شيئاً آخر ، إنما كانت مستقر الأزهر ، ومشاهد
الأولياء والصالحين .

ولكن هذه السعادة لم تدم إلاَّ ريثما يعقبها شقاء شنيع ؛
ذلك أن سيدنا لم يطق صبراً على هذه القطيعة ، ولم يستطع
أن يحتمل انتصار الشيخ عبد الجواد عليه ، فأخذ يتوسل
بفلان وفلان إلى الشيخ . وماهى إلا أن لانت قناة الشيخ ،

وأمر الصبي بالعودة إلى الكتاب متى أصبح . . عاد كارهاً مقدرًا
ما سيلقاه من سيدنا وهو يقرئه القرآن للمرة الثالثة ، ولكن
الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان الصبيان ينقلون إلى
الفقيه والعريف كل ما يسمعون من صاحبهم . ولله أوقات
الغداء طول هذا الأسبوع ! وما كان سيدنا ينال به الصبي من
لوم ! وما كان العريف يعيد عليه من ألفاظه ؛ تلك التي كان
يطلق بها لسانه مقدرًا أنه لن يرى الرجلين !

في هذا الأسبوع تعلم الصبي الاحتياط في اللفظ ، وتعلم أن
من الخطأ والحق ، الاطمئنان إلى وعيد الرجال ، وما يأخذون
أنفسهم به من عهد . ألم يكن الشيخ قد أقسم لا يعود الصبي
إلى الكتاب أبدًا ؟ وها هو ذا قد عاد . وأي فرق بين الشيخ
يقسم ويحنت ! وبين سيدنا يرسل الطلاق والأيمان إرسالاً ،
وهو يعلم أنه كاذب ؟ وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه ، فيشتمون
له الفقيه والعريف ، ويغرونه بشتهمهما ، حتى إذا ظفروا منه
بذلك ، تقربوا به إلى الرجلين وابتغوا به إليهما الوسيلة . وهذه
أمه تضحك منه ، وتغري به سيدنا حين أقبل يتحدث إليها

بما تقل إليه الصبيان . وهؤلاء إخوته يشمتون به ، ويعيدون عليه مقالة سيدنا من حين إلى حين ، يعيظونه ويثيرون سخطه . ولكنه كان يحتمل هذا كله في صبر وجلد . وماله لا يصبر ولا يتجلد ، وليس بينه وبين فراق هذه البيئة كلها ، إلا شهر أو بعض شهر !





ولكن الشهر مضى ، ورجع الأزهرى إلى القاهرة ، وظل صاحبنا حيث هو كما هو ، لم يسافر إلى الأزهر ، ولم يتخذ العمة ، ولم يدخل في جبة أو قفطان ..

كان لا يزال صغيراً ، ولم يكن من اليسير إرساله إلى القاهرة ، ولم يكن أخوه يحب أن يحتمله ، فأشار بأن يبقى حيث هو سنة أخرى ، فبقى ولم يحفل أحد برضاه أو غضبه . على أن حياته تغيرت بعض الشيء ، فقد أشار أخوه الأزهرى بأن يقضى هذه السنة في الاستعداد للأزهر ، ودفع إليه كتابين يحفظ أحدهما جملة ، ويستظهر من الآخر صحفاً مختلفة .

فأما الكتاب الذى لم يكن بدّ من حفظه كله فألفية ابن مالك . وأما الكتاب الآخر فمجموع المتون . وأوصى الأزهرى قبل سفره بأن يبدأ بحفظ الألفية ، حتى إذا فرغ منها وأتقنها

إتقاناً ، حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبة ، بعضها يسمى الجوهرة ، وبعضها يسمى الخريدة ، وبعضها يسمى السراجية ، وبعضها يسمى الرحبية ، وبعضها يسمى لامية الأفعال . وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الصبي مواقع تيه وإعجاب ، لأنه لا يفهم لها معنى ، ولأنه يقدر أنها تدل على العلم ، ولأنه يعلم أن أخاه الأزهرى قد حفظها وفهمها فأصبح عالماً وظفر بهذه المكانة الممتازة في نفس أبويه وإخوته وأهل القرية جميعاً . ألم يكونوا جميعاً يتحدثون بعودته قبل أن يعود بشهر ، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فرحين مبتهجين متلطفين ؟ ألم يكن الشيخ يشرب كلامه شرباً ، ويعيده على الناس في إعجاب ونخار ؟ ألم يكن أهل القرية يتوسلون إليه أن يقرأ لهم درساً في التوحيد أو الفقه ؟ وماذا عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل إليه ، ملحاً مستعظفاً مسرفاً في الوعد ، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأمانى ، ليلقى على الناس خطبة الجمعة ؟ ثم هذا اليوم المشهود يوم مولد النبي . ماذا لقي الأزهرى من إكرام وحفاوة ، ومن

تجلة وإكبار؟ كانوا قد اشتروا له قفطاناً جديداً، وجبة جديدة وطربوشاً جديداً، و «مركوباً» جديداً. وكانوا يتحدثون بهذا اليوم وما سيكون منه قبل أن يظلمهم بأيام. حتى إذا أقبل هذا اليوم وانتصف، أسرعت الأسرة إلى طعامها فلم تصب منه إلا قليلاً، ولبس الفتى الأزهرى ثيابه الجديدة، واتخذ في هذا اليوم عمامة خضراء، وألقى على كتفيه شالاً من الكشمير، وأمه تدعو وتتلو التعاويذ، وأبوه يخرج ويدخل جذلان مضطرباً. حتى إذا تم للفتى من زيه وهيئته ما كان يريد، خرج فإذا فرس ينتظره بالباب، وإذا رجال يحملونه فيضعونه على السرج، وإذا قوم يكتنفونه من يمين ومن شمال وآخرون يسعون بين يديه، وآخرون يمشون من خلفه، وإذا البنادق تطلق في الفضاء، وإذا النساء يزغردن من كل ناحية، وإذا الجو يتأرجح بعرف البخور، وإذا الأصوات ترتفع متعنية بمدح النبي، وإذا هذا الحفل كله يتحرك في بطاء وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دور. كل ذلك لأن هذا الفتى الأزهرى قد اتخذ في هذا اليوم خليفة، فهو يطاف به في المدينة





وما حولها من القرى فى هذا المهرجان الباهر ، وما باله اتخذ
خليفة دون غيره من الشبان ؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ
الألفية والجوهرة والخريدة !

فلم لا يتهج الصبى حين يرى أن سيقراً من العلم ما قرأ
أخوه ، وأن سيمتاز من رفاقه وأترابه بحفظ الألفية والجوهرة
والخريدة ؟

وكم كان فرحاً مختلاً حين غدا إلى الكتاب يوم السبت ،
وفى يده نسخة من «الألفية» ! لقد رفعته هذه النسخة درجات ،
وإن كانت هذه النسخة ضئيلة قدرة سيئة الجلد ؛ ولكنها على
صالتها وقذارتها ، كانت تعدل عنده خمسين مصحفاً من هذه
المصاحف التى كان يحملها أترابه .

المصحف ! لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئاً .
وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحد ، ولا ينتخبون
خلفاء يوم المولد النبوى ...

ولكن الألفية ... وما أدراك ما الألفية ؟ وحسبك أن
سيدنا لا يحفظ منها حرفاً . وحسبك أن العريف لا يحسن

أن يقرأ الآيات الأولى منها . والألفية شعر ، وليس في
المصحف شعر .

الحق أنه ابتهج بهذا البيت :

قال محمد هو ابن مالك * أحمد ربّي الله خير مالك
ابتهاجاً لم يشعر بشيء مثله أمام أي سورة من سور القرآن





وكيف لا يتهيج وقد أحسّ منذ اليوم الأول أنه ارتفع درجات ؛ فأصبح « سيدنا » لا يستطيع أن يشرف على حفظه للألفية ، ولا أن يقرئه إياها ، بل ضاق الكتاب كله بالألفية ، وكلف الصبي أن يذهب في كل يوم إلى المحكمة الشرعية ؛ ليقراً على القاضى ما يريد أن يحفظه من الألفية . القاضى عالم من علماء الأزهر ، أكبر من أخيه الأزهرى ، وإن كان أبوه لا يؤمن بذلك ، ولا يرى أن القاضى يكافئ ابنه . هو على كل حال عالم من علماء الأزهر ، وهو قاضى الشرع (بقاف ضخمة وراء مفخمة) وهو فى المحكمة لا فى الكتاب . وهو يجلس على دكة مرتفعة ، قد وضعت عليها الطنافس والوسائد ، لا تقاس إليها دكة سيدنا ، وليس حولها نعال مرقعة . وعلى بابه رجلان يقومان مقام الحاجب ، ويسميهما الناس هذا الاسم البديع ، الذى لم يكن يخلو من هيبة : « الرّسل »

نعم ! كان يجب على الصبي أن يذهب إلى المحكمة في كل صباح ، فيقرأ على القاضي باباً من أبواب الألفية . وكم كان القاضي يحسن القراءة ! كم كان يملأُفه بالقاف والراء ! وكم كان صوته يتهدج بقول ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم * واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم * وكلمة بها كلام قد يؤم
ولقد استطاع القاضي أن يؤثر في نفس الصبي ، ويعلاه
تواضعاً حين قرأ هذه الآيات :

وتقتضى رضا بغير سُخط * فائقة ألفية ابن معطى
وهو بسبق حائر تفضيلاً * مستوجب ثنائى الجميلا
والله يقضى بهيات وافره * لى وله فى درجات الآخره
قرأ القاضي هذه الآيات بصوت يحطمه البكاء خطماً ،
ثم قال للصبي : من تواضع لله رفعه ، أتفهم هذه الآيات ؟ قال
الصبي : لا . قال القاضي : إن المؤلف رحمه الله تعالى ، عند ما
بدأ فى نظم ألفيته اغترّ وأخذ الكبر فقال : « فائقة ألفية
ابن معطى » فلما كان الليل رأى فيما يرى النائم ، أن ابن معطى

قد أقبل يعاتبه عتاباً شديداً ، فلما أفاق من نومه أصلح من هذا الغرور وقال : « وهو بسبق حازر تفضيلاً » .

وكم كان الشيخ فرحاً مبتهجاً حين عاد إليه الصبي عصر ذلك اليوم ؛ فقص عليه ما سمع من القاضى ، وقرأ عليه الآيات الأولى من الألفية ! فكان يقطع هذه الآيات بهذه الكلمة التى يعبر بها الناس عن الاستحسان : « الله ! الله ! » .

على أن لكل شيء حداً . فقد مضى صاحبنا فى حفظ الألفية فرحاً مبتهجاً حتى انتهى إلى باب المبتدأ ، ثم فترت همته ، وكان أبوه يسأله عصر كل يوم : هل ذهبت إلى المحكمة ؟ فيجيب : نعم . فكم حفظت ؟ فيقرأ له ما حفظ .

ولكن الأمر ثقل عليه منذ باب المبتدأ ، فأخذ يحفظ ويذهب إلى المحكمة متثاقلاً متباطئاً ، حتى وصل إلى باب المفعول المطلق ، ثم لم يستطع أن يتقدم خطوة قصيرة ولا طويلة . ولبت يذهب إلى المحكمة فى كل يوم ، ويقرأ على القاضى فصلاً من فصول الألفية ، حتى إذا عاد إلى الكتاب

ألقى الألفية في ناحية ، وانصرف إلى عبثه ولعبه ، وإلى قراءة القصص والأحاديث .

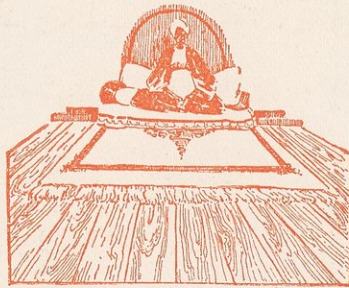
فإذا كان العصر وسأله أبوه : هل ذهبت إلى المحكمة ؟
أجاب : نعم — وكم حفظت من بيت ؟ أجاب : عشرين . من
أى باب ؟ من باب الإضافة ، أو من باب النعت ، أو من باب
جمع التكسير . فإذا قال له : اقرأ على ما حفظت ، قرأ عليه
عشرين بيتاً من المائتين الأوليين ، مرة من المعرب والمبنى ،
وأخرى من النكرة والمعرفة ، وثالثة من المبتدا والخبر ، والشيخ
لا يفهم شيئاً ، ولا يلاحظ أن ابنه يخدعه ! وإنما يكتفى بأن
يسمع كلاماً منظوماً ، وهو مطمئن إلى القاضي . ومن غريب
الأمر أن الشيخ لم يفكر مرة واحدة في أن يفتح الألفية ،
ويقابل على الصبي وهو يقرأ . ولو قد فعل يوماً من الأيام ،
لكانت للصبي قصة كقصته مع سورة الشعراء ، أو سبأ ،
أو فاطر ...

على أن الصبي تعرض لهذا الخطر مرة . ولولا أن أمه
شفعت فيه لكان له مع أبيه موقف مشهود .

كان له أخ يختلف إلى المدارس المدنية ، فعاد من القاهرة ليقضى فصل الصيف . واتفق أنه حضر هذا الامتحان اليوم أياماً متصلة ؛ فسمع الشيخ يسأل الصبي : أى باب قرأت ؟ فيجيب الصبي : باب العطف (مثلاً) . فإذا طلب إليه أن يعيد ما قرأ ، أعاد عليه باب العلم أو باب الصلة والموصول .

سكت الشاب فى أول يوم ، وفى اليوم الذى يليه ، فلما كثر ذلك انتظر حتى انصرف الشيخ ، وقال للصبي أمام أمه : **إنك تخدع أباك وتكذب عليه ، وتلعب فى الكتاب ، ولا تحفظ من الألفية شيئاً . . .** قال الصبي : **إنك كاذب ! وما أنت وذاك ! وإنما الألفية للأزهريين لا لأبناء المدارس !** وسل القاضي ينبئك بآنى أذهب إلى المحكمة فى كل يوم . قال الشاب : **أى باب حفظت اليوم ؟** قال الصبي : **باب كذا .** قال الشاب : **ولكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك ، وإنما قرأت عليه باب كذا ، وهات نسخة الألفية أمتحنك فيها .** بهت الصبي وظهر عليه الوجوم ، وهمّ الشاب أن يقص القصّة على الشيخ ، ولكن أمه توسلت إليه ! وكان الشاب رفيقاً بأمّه

رءوفاً بأخيه ، فسكت . وظل الشيخ على جهله حتى عاد
الأزهرى . فلما عاد امتحن الصبي ، وما هي إلا أن عرف
جلية الأمر ، فلم يعضب ولم ينذر ولم يخبر الشيخ ، وإنما أمر
الصبي أن ينقطع عن الكتاب والمحكمة . وأحفظه الألفية
كلها في عشرة أيام .







للعلم فى القرى ومدن الأقاليم جلال ليس له مثله فى
العاصمة ولا فى بيئاتها العلمية المختلفة . وليس فى هذا شىء من
العجب ولا من الغرابة ، وإنما هو قانون العرض والطلب ،
يجرى على العلم كما يجرى على غيره مما يباع ويشترى . فبينما
يروح العلماء ويغدون فى القاهرة لا يحفل بهم أحد ، أو
لا يكاد يحفل بهم أحد ، وبينما يقول العلماء فيكثرون فى
القول ، ويتصرفون فى فنونه ، دون أن يلتفت إليهم أحد غير
تلاميذهم فى القاهرة ، ترى علماء الريف ، وأشياخ القرى
ومدن الأقاليم ، يغدون ويروحون فى جلال ومهابة ، ويقولون
فيستمع لهم الناس مع شىء من الإكبار مؤثر جذاب . وكان
صاحبنا متأثرًا بنفسية الريف ، يكبر العلماء كما يكبرهم
الريفيون ، ويكاد يؤمن بأنهم فطروا من طينة نقية ممتازة ،
غير الطينة التى فطر منها الناس جميعًا .

وكان يسمع لهم وهم يتكلمون ، فيأخذه شيء من الإعجاب والدesh ، حاول أن يجد مثله في القاهرة أمام كبار العلماء ، وجلة الشيوخ فلم يوفق .

كان علماء المدينة ثلاثة أو أربعة ؛ قد تقسموا فيما بينهم إعجاب الناس ومودتهم . فأما أحدهم فكان كاتباً في المحكمة الشرعية ، قصيراً ضخماً ، غليظ الصوت جهوريه ، يمتلي شذقه بالألفاظ حين يتكلم ؛ فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة كصاحبها ، غليظة كصاحبها ، وتصدمك معانيها كما تصدمك مقاطعها . وكان هذا الشيخ من الذين لم يفلحوا في الأزهر ؛ قضى فيه ما شاء أن يقضى من السنين ، فلم يوفق إلى العالمية ولا إلى القضاء ، فقنع بمنصب الكاتب في المحكمة ، على حين كان أخوه قاضياً ممتازاً ، قد جعل إليه قضاء أحد الأقاليم . ولم يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس في مجلس إلا نخر بأخيه ، وذم القاضى الذى هو معه . كان حنفى المذهب ، وكان أتباع أبى حنيفة فى المدينة قليلين ، أو لم يكن لأبى حنيفة فى المدينة أتباع ؛ فكان ذلك يغیظه ويحنقه على خصومه العلماء الآخرين ،

الذين كانوا يتبعون الشافعى أو مالكا ، ويجدون فى أهل المدينة صدق لعلمهم ، وطلاباً للفتوى عندهم . فكان لا يدع فرصة إلا مجد فيها فقه أبى حنيفة ، وغض فيها من فقه مالك والشافعى . وأهل الريف مكررة أذكاء ، فلم يكن يخفى عليهم أن الشيخ إنما يقول ما يقول ، ويأتى ما يأتى من الأمر ، متأثراً بالحق والموجدة ، فكانوا يعطفون عليه ، ويضحكون منه . وكانت المنافسة شديدة عنيفة بين هذا الشيخ وبين الفتى الأزهرى . كان ينتخب خليفة فى كل سنة ، فعاظه أن ينتخب هذا الفتى خليفة دونه . ولما تحدث الناس أن الفتى سيلقى خطبة الجمعة سمع الشيخ هذا الحديث ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان يوم الجمعة وامتلاً المسجد بالناس ؛ وأقبل الفتى يريد أن يصعد المنبر ، نهض الشيخ حتى انتهى إلى الإمام ، وقال فى صوت سمعه الناس : إن هذا الشاب حديث السن ، وما ينبغى له أن يصعد المنبر ولا أن يخطب ، ولا أن يصلى بالناس وفيهم الشيوخ وأصحاب الأسنان ، ولئن خليت بينه وبين المنبر والصلاة لأنصرفن . ثم التفت إلى الناس وقال : ومن كان

منكم حريصًا على ألا تبطل صلاته فليتبغنى . سمع الناس هذا فاضطربوا ، وكادت تقع بينهم الفتنة لولا أن نهض الإمام فخطبهم وصلى بهم ، وحيل بين الفتى وبين المنبر هذا العام . ومع ذلك فقد كان الفتى أجهد نفسه في حفظ الخطبة واستعد لهذا الموقف أيامًا متصلة ، وتلا الخطبة على أبيه غير مرة ، وكان أبوه ينتظر هذه الساعة أشد ما يكون إليها شوقًا ، وأعظم ما يكون بها ابتهاجًا . وكانت أمه مشفقة تخاف عليه العين ، فما كاد يخرج إلى المسجد ذلك اليوم ، حتى نهضت إلى حجر وضعت في إناء وأخذت تلقى فيه ضرباً من البخور ، وتطوف به البيت حجرة حجرة ، تقف في كل حجرة لحظات وتهتمهم بكلمات . وظلت كذلك حتى عاد ابنها ، فإذا هي تلقاه من وراء الباب مبخرة مهممة ، وإذا الشيخ مغضب يلعن هذا الرجل الذى أكل الحسد قلبه ، فخال بين ابنه وبين المنبر والصلاة .

وكان في المدينة عالم آخر شافعى . كان إمام المسجد ، وصاحب الخطبة والصلاة ، وكان معروفًا بالتقى والورع ، يذهب الناس في إكباره وإجلاله إلى حد يشبه التقديس ، كانوا

يتبركون به ، ويلتمسون عنده شفاء مرضاهم وقضاء حاجاتهم .
وكأنه كان يرى في نفسه شيئاً من الولاية . وظل أهل المدينة
بعد موته سنين يذكرونه بالخير ، ويتحدثون مقتنعين بأنه عند
ما أنزل في قبره قال بصوت سمعه المشيعون جميعاً : اللهم اجعله
منزلاً مباركاً . وكانوا يتحدثون بما رأوا فيما يرى النائم من حظ
هذا الرجل عند الله ، وما أعدّ له في الجنة من نعيم .

وشيخ ثالث كان في المدينة ، وكان مالكي المذهب ، ولم
يكن ينقطع للعلم ولا يتخذ حرفة ، وإنما كان يعمل في الأرض ،
ويتجر ، ويختلف إلى المسجد فيؤدى الخمس ، ويجلس إلى
الناس من حين إلى حين ، فيقرأ لهم الحديث ، ويفقههم في
الدين متواضعاً غير تيّاه ولا نخور ، ولم يكن يحفل به إلا
الأقلون عدداً .

هؤلاء هم العلماء . ولكن علماء آخرين كانوا منبشرين في
هذه المدينة وقراها وريفها . ولم يكونوا أقل من هؤلاء العلماء
الرسميين تأثيراً في دهماء الناس وتسليطاً على عقولهم ، منهم هذا
الحاج . . . الخياط الذي كان دكانه يكاد يقابل الكتاب ،

والذى كان الناس مجمعين على وصفه بالبخل والشح ، والذى كان متصلاً بشيخ من كبار أهل الطرق . والذى كان يزدري العلماء جميعاً ، لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ ، والذى كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم اللدنى ، الذى يهبط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب ؛ بل دون أن تقرأ أو تكتب .

ومنهم هذا الشيخ . . . الذى كان فى أول أمره حمّاراً ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم ، ثم أصبح تاجراً ، واقتصرت حمرة على نقل تجارته ، والذى كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى ، وأثرى على حساب الضعفاء ، والذى كان يكثر من ترديد هذه الآية وتفسيرها : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » والذى كان يكره الصلاة فى المسجد الجامع ، لأنه كان يكره الإمام ومن إليه من العلماء ، ويؤثر الصلاة فى جامع صغير لا قيمة له ولا مكانة .

ومنهم هذا الشيخ . . . الذى لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا

يحسن قراءة الفاتحة ، ولكنه كان شاذلياً من أصحاب الطريق ،
كان يجمع الناس إلى الذكر ، ويفتيهم في أمور دينهم ودنياهم .
ثم منهم الفقهاء الذين كانوا يقرأون القرآن ويقرئونه
للناس ، والذين كانوا يميزون أنفسهم من العلماء ويتسمون
« حملة كتاب الله » والذين كانوا يتصلون بدهماء الناس والنساء
منهم خاصة . كانت جمهورتهم من المكفوفين ، فكانوا يدخلون
البيوت يتلون فيها القرآن ، وكان النساء يتحدثن إليهم ،
ويستفتينهم في أمور الصوم والصلاة وما إلى ذلك من
أمورهن . وكان لهؤلاء الفقهاء علم مخالف كل المخالفة لعلم
العلماء ، الذين يأخذون علمهم من الكتب ، والذين بينهم
وبين الأزهر سبب قوى أو ضعيف . وكان علمهم مخالفاً أيضاً
لعلم أصحاب الطرق وأهل العلم اللدني . كانوا يأخذون علمهم
من القرآن مباشرة ، يفهمونه كما يستطيعون ، لا كما هو ولا
كما ينبغي أن يفهم . يفهمونه كما كان يفهمه سيدنا ، وكان من
أذكي الفقهاء ، وأشدهم علماً ، وأقدرهم على التأويل . سأله الصبي
ذات يوم : ما معنى قول الله تعالى : « وخلقناكم أطواراً » ؟

فأجاب هادئاً مطمئناً : خلقناكم كالثيران لا تعقلون شيئاً .
 أو يفهمونه كما يفهمه جدّ هذا الصبي نفسه ، وكان من أحفظ
 الناس للقرآن ، وأبرعهم في فهمه وتفسيره وتأويله . سأله
 حفيده ذات يوم عن قول الله تعالى : «ومن الناس من يعبد الله
 على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب
 على وجهه خسر الدنيا والآخرة ؟ فقال : « على حرف دكة ،
 على حرف مصطبة ... فإن أصابه خير فهو مطمئن في مكانه ،
 وإن أصابه شر انكفأ على وجهه » .

وكان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعاً ، ويأخذ عنهم
 جميعاً ، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف
 مضطرب متناقض ، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في
 تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض .





وشيوخ الطريق ، وما شيوخ الطريق ؟ كانوا كثيرين
منبثين في أقطار الأرض ، لا تكاد تخلو منهم المدينة أسبوعاً .
وكانت مذاهبهم مختلفة ، وكانوا قد تقسموا الناس فيما بينهم
فجعلوهم شيعاً ، وفرقوا أهواءهم تفريقاً عظيماً . وكانت المنافسة
حادة في الإقليم بين أسرتين من أصحاب الطريق ، لإحداها
أعلاه وللآخرين أسفله .

وإذا كان أهل الإقليم ينتقلون ولا يأبون على أنفسهم الهجرة
من قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى مدينة داخل الإقليم ، فقد
كان يتفق أن ينزل أتباع إحدى الأسرتين حيث تتسلط الأسرة
الأخرى . وكان زعماء الأسرتين يتنقلون في الإقليم يزورون
أتباعهم وأشياءهم . والله ما كان يحدث من الخصومات يوم يهبط
صاحب العالية إلى السافلة ، أو يصعد صاحب السافلة إلى العالية !
وكان أبو الصبي من أتباع صاحب العالية ، أخذ عنه العهد ، وأخذ

عنه أبوه من قبل . وكانت أم الصبي من أتباع صاحب العالية أيضاً ، بل كان أبوها من أنصاره وحوارييه المقربين إليه . ومات صاحب العالية وخلفه على الطريق ابنه الحاج . . . وكان أنشط من أبيه ، وأقدر على الكيد واللؤم ، وأنهض للخصومة . كان أقرب من أبيه إلى الدنيا ، وأبعد من أبيه عن الدين . وكان أبو الصبي قد هبط إلى السافلة واستقر فيها ، فكانت لصاحب العالية عادة أن يزوره مرة في كل سنة . وكان إذا أقبل لم يقبل وحده ، ولم يقبل في نفر قليل ، وإنما أقبل في جيش ضخم ؛ إن لم يبلغ المائة فليس ينحط عنها إلا قليلاً . ولم يكن يتخذ قطر السكة الحديدية ولا سفن النيل ، وإنما كان يتخذ الجياد والبغال والحمير ، يسير ومن حوله أصحابه ، فيمرون بالقرى والداكر ، ينزلون ويرحلون في أبهة وضخامة ، منتصرين حيث لا سلطان إلا لهم ، متحدين حيث لخصومهم شيء من القوة . وكانوا إذا زاروا أسرة الصبي أقبلوا حتى ينزلوا ، فإذا الشارع ممتلئ بهم وبخييلهم وبغالهم وحميرهم ، قد أخذوه من القناة إلى أقصاه الجنوبي . وإذا شاء

تذبح ، وإذا السمط ممدودة في الشارع ، وإذا هم إلى طعامهم في شره لا يعدله شره ، والشيخ جالس في المنطرة ومن حوله أصفياؤه وأولياؤه ، وبين يديه صاحب البيت وأخصاؤه يأثرون بأمره . فإذا فرغوا من الغداء انصرفوا عنه فنام حيث هو ثم نهض فتوضأ . فانظر إلى الناس يستبقون ويختصمون أيهم يصب عليه الماء ! فإذا فرغ فانظر إليهم يستبقون ويختصمون أيهم يصيب من وضوء الشيخ جرعة ! والشيخ عنهم في شغل ، يصلي فيطيل الصلاة ، ويدعو فيطيل الدعاء . حتى إذا فرغ من هذا كله جلس للناس وهم يتقاطرون عليه ؛ منهم من يقبل يده وينصرف خاشعاً ، ومنهم من يتحدث إليه لحظة أو لحظات ، ومنهم من يسأله حاجة ، والشيخ يجيب أولئك وهو لاء بالفاظ غريبة غامضة ، يذهبون في فهمها وتأويلها المذاهب . أدخل عليه الصبي فمسح رأسه وتلا قول الله تعالى : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » . من ذلك اليوم اقتنع أبو الصبي بأن سيكون لابنه شأن . فإذا صليت المغرب مدّت الموائد وأكل الناس ، ثم تصلى العشاء ، ثم ينصب المجلس

ونصب المجلس عبارة عن اجتماع الناس إلى حلقة الذكر ،
يذكرون الله قاعدين ساكنين ، ثم تتحرك رءوسهم وترتفع
أصواتهم قليلاً ، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً ، ثم
تنبت في أجسامهم رعدة فإذا هم جميعاً وقوف ؛ قد دفعوا في الهواء
كأنما حركهم لولب ، وقد انبت في الحلقة شيوخ ينشدون شعر
ابن الفارض وما يشبهه من الشعر . وكان لهذا الشيخ خاصة
كلف بقصيدة معروفة ، فيها ذكر الإسراء والمعراج أولها :
من مكة والبيت الأجدد للقدس سرى ليلاً أحمد
كان الشيوخ يرتلون ترتيلاً ، وكان الذاكرون يحركون
أجسامهم على هذا الترتيل ، ينحنون ويستقيمون كأنما يرقصهم
هؤلاء الشيوخ ترقيصاً .

ومهما ينس الصبي فلن ينسى ليلة غلط فيها أحد المنشدين
فوضع لفظاً مكان لفظ من القصيدة ، وإذا الشيخ قد ثار وفار ،
وأرغى وأزبد ، وصاح بملء صوته : يا بني الكلاب ! لعن الله
آباءكم وآباء آبائكم وآباء آبائكم إلى آدم ! أتريدون أن
تخربوا بيت الرجل !

ومهما ينس الصبي فلن ينسى تأثير هذه الغضبة في نفوس
الذاكرين ، وفي نفوس الناس من حولهم ، وكان الناس قد
اقتنعوا بأن الغلط في هذه القصيدة مصدر شؤم لا يشبهه
شؤم . وأظهر أبو الصبي تأثيراً وفزعاً ، ثم اطمئناناً وهدوءاً .
فاما انصرف الشيخ من الغد وتذاكرت الأسرة ما كان من
أمره ، وما كان من قصته مع الذاكرين والمنشدين ، ضحك
صاحب البيت ضحكة لم يشك الصبي بعدها في أن إيمان أبيه
بهذا الشيخ لم يكن خالصاً من الشك والازدراء . . . نعم من
الشك والازدراء ! فقد كان طمع الشيخ وحرصه أظهر من أن
ينخدع بهما من له حظ من أناة وتفكير .

وكان من أشد الناس مقتاً للشيخ وسخطاً عليه أم الصبي .
كانت تكره زيارته ، وتستثقل ظله ، وتؤدى ما تؤدى ، وتعدّ
ما تعدّ وهي كارهة ساخطة ؛ لا تكاد تمسك لسانها إلا في مشقة
وعناء ؛ ذلك لأن زيارة الشيخ كانت ثقيلة على هذه الأسرة التي
كانت تعيش من سعة ، ولكنها كانت فقيرة على كل حال .
كانت زيارة الشيخ تستهلك كثير من القمح والسمن والعسل

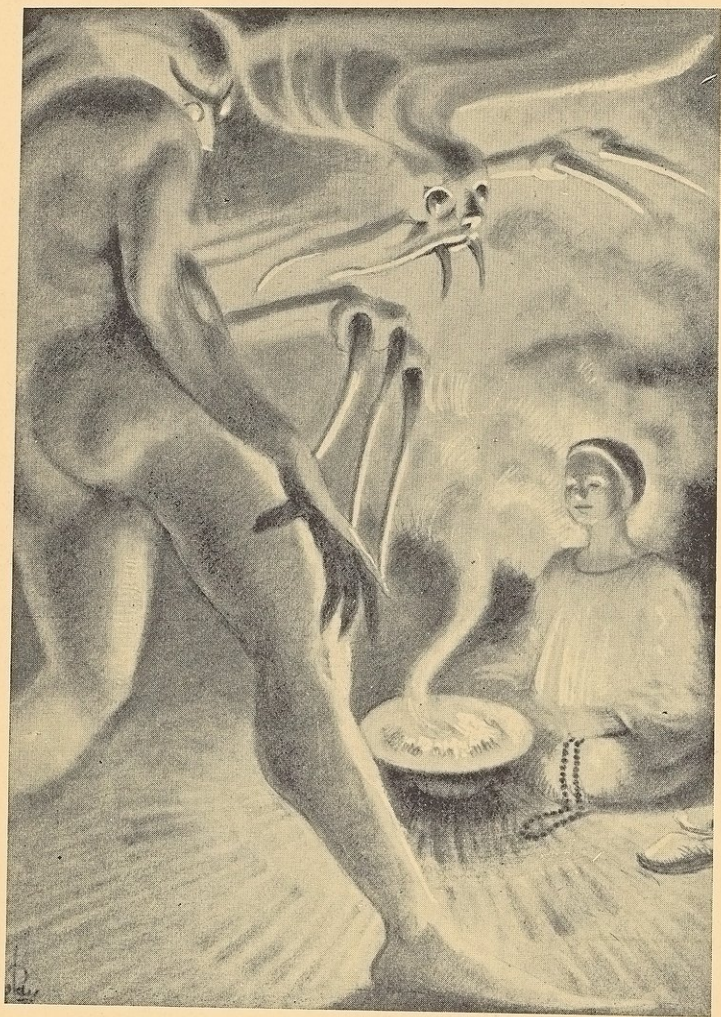
وما إلى ذلك، وكانت تكلف صاحب البيت الاقتراض لشراء ما لا بد منه من الضأن والمعز، وكان الشيخ لا يلم بهذه الأسرة إلا ارتحل من غده وقد أخذ شيئاً راقه وأعجبه . يأخذ في هذه المرة بساطاً ، وفي هذه شالاً من الكشمير ، وعلى هذا النحو .

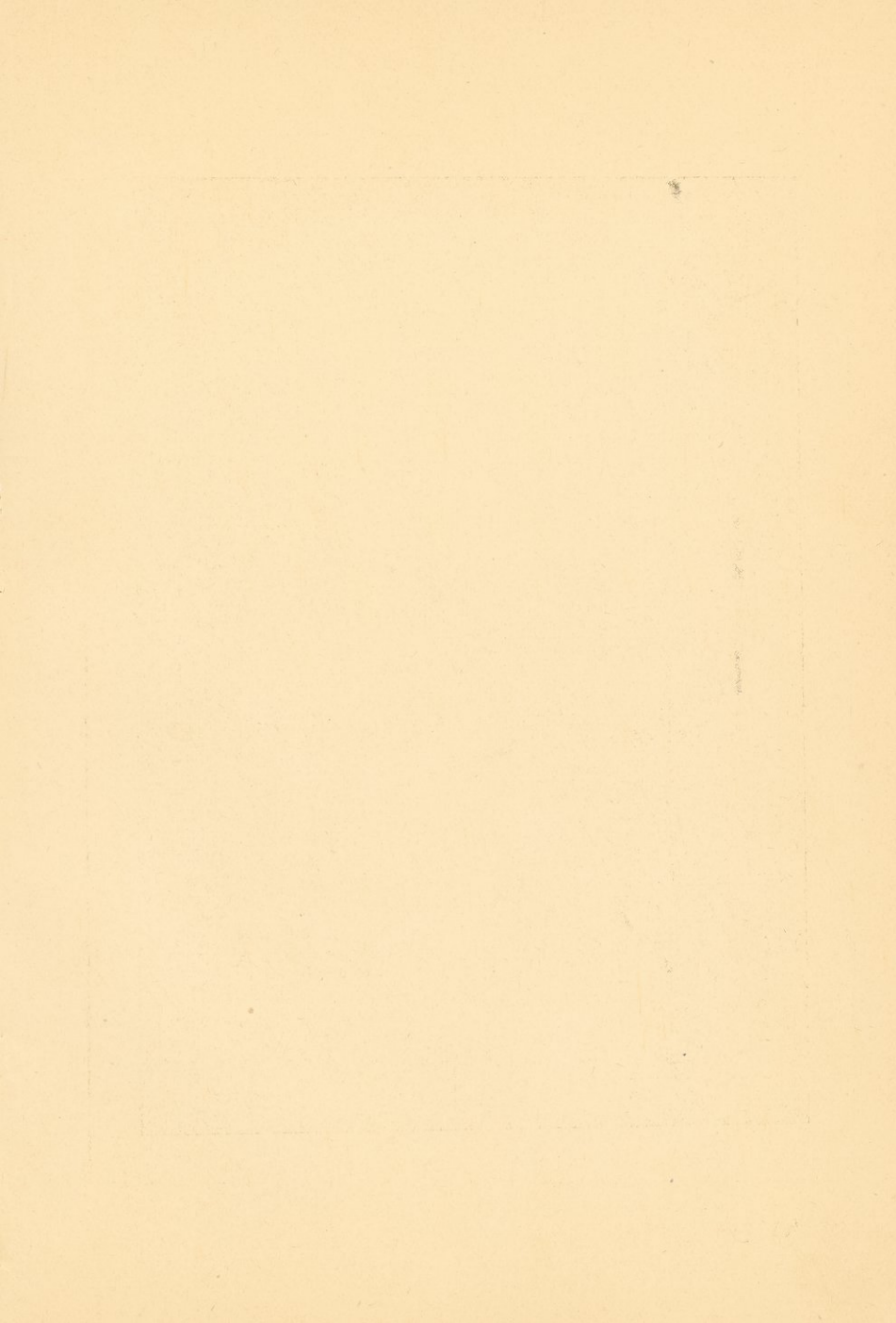
كانت زيارة هذا الشيخ وأصحابه شيئاً ترغب فيه الأسرة رغبة شديدة ، لأنه يمكنها من الفخر ورفع الرأس ، ومناوأة الأشباه والنظائر ، وتكرهه كرهاً شديداً لأنه يكلفها ما يكلفها من المال والمشقة . كانت شراً لا بد منه جرت به العادة ، وصادف هوى في الناس . وكان اتصال الأسرة بهذا البيت من بيوت الطريق قوياً متيناً ، ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص ، وأحاديث الكرامات والمعجزات . وكانت أم الصبي وأبوه يجدان لذة في أن يتحدثا إلى أبنائهما بهذه الأخبار والأحاديث . ولم تكن أم الصبي تدع فرصة إلا قصت فيها هذه القصة : « حبيب أبي ومعه جدتي مع الشيخ خالد مرة ، وكان الشيخ قد حجب ثلاث مرات تبعه فيها أبي ، واصطحب أمه هذه المرة . فلما فرغوا من الحج وانصرفوا إلى المدينة ، وقعت

الشيخة في بعض الطريق من الرحل ، فأنحطم ظهرها انحطاماً ،
وعجزت عن المشى والحركة ، وأخذ ابنها يحملها وينقلها من
مكان إلى مكان ، ويجد في ذلك من المشقة والعناء ما شكاه إلى
الشيخ ذات يوم ، فقال له الشيخ : ألسنت تزعم أنها شريفة
من نسل الحسن بن علي ؟ قال : بلى . قال : فهي ذاهبة
إلى جدها ، فإذا انتهيت بها إلى المسجد النبوي فضعها في
ناحية منه ، وخلّ بينها وبين جدها يصنع بها ما يشاء .
وكذلك فعل الرجل : وضع أمه في ناحية من نواحي المسجد ،
وقال لها في لغة الفلاح الجافية يملؤها مع جفوتها الحب
والإشفاق : أنت وجدك ، فليس لي بكأ شأن ، ثم تركها
وتبع شيخه يريد أن يطوف بقبر النبي . قال الرجل : فوالله
ما خطوت خطوات حتى سمعت أمي تناديني ، فالتفت فإذا هي
قائمة تسمعي ، وأبيت أن أعود إليها ، فإذا هي تعدو من ورأى
عدواً ، وإذا هي تسبقني إلى الشيخ وتطوف مع الطائفين » .
وكان أبو الصبي لا يدع فرصة إلا ذكر فيها عن الشيخ هذه
القصة : ذكر أمامه أن الغزالي قال في بعض كتبه : إن النبي

لا يمكن أن يرى فيما يرى النائم . فغضب الشيخ وقال : والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي ، لقد رأيته بعيني رأسي هذا راكباً بغلته . وذكر له ذلك مرة أخرى فقال : والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي ، لقد رأيته بعيني رأسي هذا راكباً ناقته . وكان أبو الصبي يستنبط من ذلك أن الغزالي قد أخطأ ، وأن عامة الناس يستطيعون أن يروا النبي فيما يرى النائم ، وأن الأولياء والصالحين يستطيعون أن يروه وهم أيقاظ وكان أبو الصبي يثبت هذا بحديث يرويه كلما ذكر هذه القصة وهو : « من رأى في المنام فقد رأى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي » . وعلى هذا النحو حفظ الصبي ألواناً من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفية ، وكان إذا أراد أن يتحدث بشيء من ذلك إلى أترابه ورفاقه في الكتّاب قصوا عليه أمثاله ؛ يضيفونه إلى صاحب السافلة ويؤمنون به إيماناً شديداً .

كانت لأهل الريف شيوخهم وشبانهم وصبيانهم ونسائهم عقلية خاصة فيها سذاجة وتصوّف وغفلة ، وكان أكبر الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطريق .







على أن صبيننا لم يلبث أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم
لوناً آخر جديداً ، وهو علم السحر والطلاسم ، فقد كان باعة
الكتب يتنقلون في القرى والمدن بخليط من الأسفار ؛ لعله
أصدق مثل لعقيدة الريف في ذلك العهد . كانوا يحملون في
حقائبهم مناقب الصالحين ، وأخبار الفتوح والغزوات ،
وقصة القط والفار ، وحوار السلك والوابور ، وشمس المعارف
الكبرى في السحر وكتاباً آخر لست أدري كيف
كان يسمى ، ولكنه كان يعرف بكتاب (الدياربي)
ثم أوراداً مختلفة ، ثم قصص المولد النبوي ، ثم مجموعات
من الشعر الصوفي ، ثم كتباً في الوعظ والإرشاد ، وأخرى في
المحاضرات ومعجائب الأخبار ، ثم قصص الأبطال من الهلالين
والزنايتين ، وعنتر ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذي يزن ،
ثم القرآن الكريم مع هذا كله . وكان الناس يشترون

الكتب كلها ، ويلتهمون ما فيها التهاماً ، وكانت عقليتهم تتكوّن من خلاصته كما تتكون أجسامهم من خلاصة ما كانوا يأكلون ويشربون .

وقد قرئ لصاحبنا من هذا كله ، فحفظ منه الشيء الكثير . ولكنه عني بشيئين عناية خاصة : عني بالسحر ، وعني بالتصوف . ولم يكن في الجمع بين هذين اللونين من العلم شيء من الغرابة ولا من العسر ، فإن التناقض الذي يظهر بينهما ليس إلّا صورياً في حقيقة الأمر . أليس الصوفي يزعم لنفسه وللناس أنه يخترق حجب الغيب ، وينبئ بما كان وما سيكون ، كما أنه يتعدى حدود القوانين الطبيعية ويأتي بضروب الخوارق والكرامات ؟ والساحر ماذا يصنع ؟ أليس يزعم لنفسه القدرة على الإخبار بالغيب ، وتجاوز حدود القوانين الطبيعية أيضاً ، والاتصال بعالم الأرواح ؟ ... بلى ! كل ما يوجد من الفرق بين الساحر والصوفي هو أن هذا يتصل بالملائكة وذلك يتصل بالشياطين . ولكن يجب أن نقرأ ابن خلدون وأمثاله لنصل إلى تحقيق مثل هذا

الفرق ، ونرتب عليه نتائج الطبيعة من تحريم السحر والترغيب عنه ، وتحبيب التصوف والترغيب فيه .

وما كان أبعد صيننا وأترابه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون ! إنما كانت تقع في أيديهم كتب السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء ، فيقرأون ويتأثرون ثم لا يلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة . وإذا هم يسلكون مناهج الصوفية ويأتون ما يأتيه السحرة من ضروب الفن ، وكثيراً ما يختلط في عقولهم السحر والتصوف ، فيصبح كلاهما شيئاً واحداً ، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله .

وكذلك كان الأمر في نفس صاحبنا ، فقد كان يتصوَّف ويتكلف السحر ، وهو واثق بأنه سيرضى الله ، ويظفر من الحياة بأحب لذاتها إليه .

وكان من القصص التي تكثر في أيدي الصبيان يحملها إليهم باعة الكتب ، قصة اقتطعت من « ألف ليلة وليلة » وتعرف بقصة « حسن البصرى » . في هذه القصة أخبار ذلك المجوسى الذى كان يحول النحاس ذهباً . وأخبار ذلك القصر

الذى كان يقوم من وراء الجبل على عمد شاهقة فى الهواء ،
وتقيم فيه بنات سبع من بنات الجن ، والذى أوى إليه حسن
البصرى ، ثم أخبار حسن هذا وما كان من رحلته الطويلة
الشاقة إلى دور الجن . وبين هذه الأخبار خبر ملأ الصبي
إعجاباً ؛ وهو أن قضيباً أهدى إلى حسن هذا فى بعض رحلته
وكان من خواص هذا القضيب أن تضرب به الأرض فتنشق
ويخرج منها تسعة نفر يأترون بأمر صاحب القضيب ، وهم
بالطبع من الجن أقوياء خفاف يطرون ويعدون ويحملون
الأثقال ويقتلعون الجبال ، ويأتون من عجيب الأمر
ما لا حد له .

فتن الصبي بهذه العصا ، ورغب فى أن يظفر بها رغبة
شديدة قوية أرقت ليله ونفصت يومه . فأخذ يقرأ كتب
السحر والتصوف ، يلتمس عند السحرة والمتصوفين وسيلة
تمكنه من هذه العصا .

وكان له قريب صبي مثله يرافقه إلى الكتّاب ، فكان أشد
منه كلفاً بهذه العصا . وما هى إلا أن جدّ الصبيّان فى البحث

حتى انتهيا إلى وسيلة يسيرة تمكنهما مما يريدان . وجداها في كتاب الدياربي ، وهي أن يخلو الفتى إلى نفسه وقد تطهر ووضع بين يديه ناراً ومقداراً من الطيب ثم يأخذ في ترديد هذا الاسم من أسماء الله « يا لطيف يا لطيف » ملقياً في النار شيئاً من الطيب من حين إلى حين ، فيمضي في ترديد هذه الكلمة وتحريق هذا الطيب ، حتى تدور به الأرض ، وينشق أمامه الحائط ، ويمثل أمامه خادم من الجن موكل بهذا الاسم من أسماء الله ، فيطلب إليه ما يريد ، والحاجة مقضية من غير شك .

ظفر الصبيّان بهذه الوسيلة فاعتزما أن يستخدمها . وما هي إلا أن اشتريا ضراباً من الطيب ، وخلا صبينا إلى نفسه في المنظرة ، أغلق بابها من دونه ووضع بين يديه قطعاً من النار وأخذ يلقى فيها الطيب ، ويردد : « يا لطيف ! يا لطيف ! » وطال به هذا وهو ينتظر أن تدور به الأرض وينشق له الحائط ويمثل الخادم بين يديه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وهنا تحول صبيّنا الساحر المتصوف إلى نصّاب .

خرج من المنظرة مضطرباً يمسك رأسه بيديه ولا يكاد

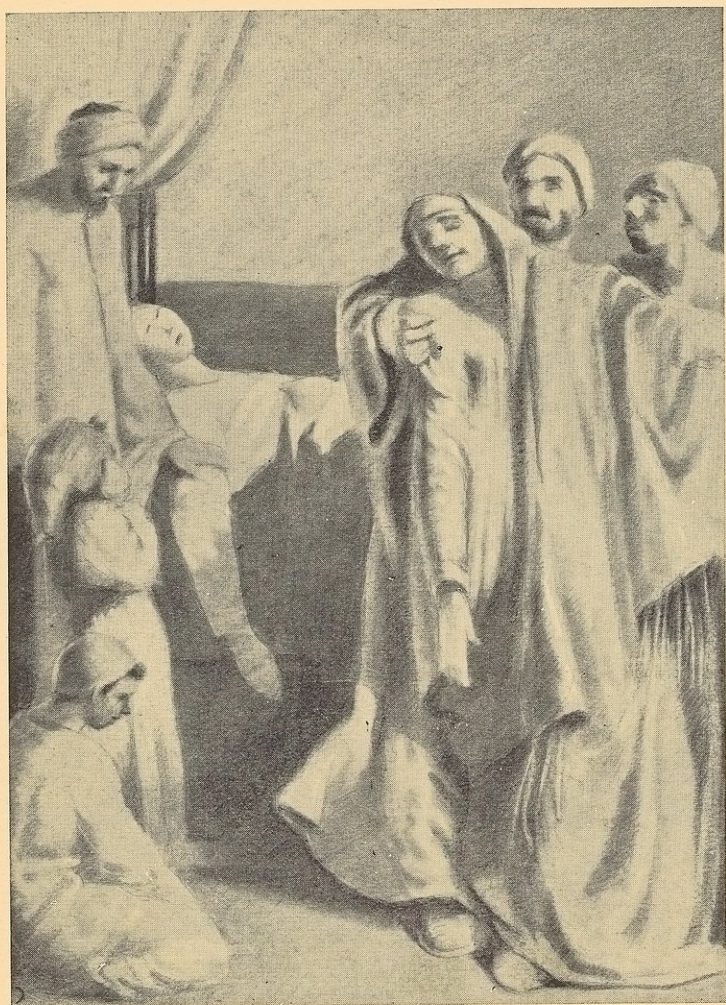
لسانه ينطلق بحرف واحد، فتلقاه صاحبه الصبي يسأله : هل
لقي الخادم ؟ وهل طلب إليه العصا ؟ وصاحبنا لا يجيب إلا
مضطرباً مرتجفاً ، تصطك أسنانه اصطكاكاً ، حتى روع
رفيقه الصبي . وبعد لأي أخذ صاحبنا يهدأ ويحسب في ألفاظ
متقطعة ، وبصوت متهدج : « لقد دارت بي الأرض حتى
كدت أسقط ، وانشق الحائط وسمعت صوتاً ملاً الحجرة
من جميع نواحيها ، ثم أغمى على ، ثم أفقت فخرجت مسرعاً !!
سمع الصبي هذا ! فامتلاً فرحاً وإعجاباً بصاحبه وقال له :
هوّن عليك ، فقد أصابك الرعب وملك الخوف عليك أمرك ،
فلنبحث في الكتاب عن شيء يؤمنك ويشجعك على أن تثبت
للخادم وتطلب منه ما تشاء . واستأنفا البحث في الكتاب .
وانتهى بهما البحث إلى أن صاحب الخلوة يجب أن يصلي
ركعتين قبل أن يجلس إلى النار ويأخذ في ترديد هذا الاسم .
وكذلك فعل الصبي من غده ، وأخذ يلقي الطيب في النار
ويردد دعاء « اللطيف » ينتظر أن تدور به الأرض ، وينشق له
الحائط ، ويمثل الخادم بين يديه . ولكن شيئاً من ذلك

لم يكن. وخرج الصبي إلى صاحبه هادئاً مطمئناً ، فأخبره أن
قد دارت الأرض وانشق الحائط ومثل الخادم بين يديه وسمع
منه حاجته ، ولكنه لم يشأ أن يجيبه إليها حتى يمرن على هذه
الخلوة ويكثر من الصلاة وإطلاق البخور وذكر الله ، وضرب
له موعداً لقضاء هذه الحاجة شهراً كاملاً يأتي فيه هذا الأمر
في نظام ، فإن فسد هذا النظام فلا بد من استئناف الأمر
شهراً كاملاً آخر . وصدق الصبي صاحبه ، وأخذ يلح عليه
في يوم أن يخلو إلى النار ويردد الدعاء ، وأخذ الصبي
يستغل من صاحبه هذا الضعف ، ويكلفه ما شاء من مشقة
وعناء ، فإن أبي أو أظهر الإباء أعلن إليه صاحبنا أنه لن يخلو
إلى النار ، ولن يدعو « اللطيف » ولن يلتمس العصا ، فيذعن
إذعاناً سريعاً .

على أن صاحبنا لم يكن يميل وحده إلى السحر والتصوف ،
وإنما كان يدفع إلى ذلك دفعاً ، يدفعه إليه أبوه ؛ ذلك أن
الشيخ كان كثير الحاجات عند الله . كان له أبناء كثيرون ، وكان
يحرص على تعليمهم وتهذيبهم ، وكان فقيراً لا يستطيع أن

يؤدي نفقات ذلك التعليم ، وكان يستدين من حين إلى حين ويشقل عليه أداء الدين ، وكان يطمع في أن يزداد مرتبه من حين إلى حين ، وكان يطمع في أن يتقدم درجة وينتقل من عمل إلى عمل ، وكان يلتمس هذا كله عند الله بالصلاة والدعاء والاستخارة ، وكان أحب وسائل الالتماس إليه « عديّة يس » . وكان يطلب « عديّة يس » هذه إلى ابنه الصبي ، لأنه صبي ولأنه مكفوف ، وهو بهاتين المزيّتين أثير عند الله رفيع المسكّانة عنده ، وهل يرضى الله أن يرد صبيّاً مكفوفاً حين يطلب إليه أمراً من الأمور متوسلاً بقراءة القرآن ؟

وكانت « عديّة يس » مراتب : أولاها أن يخلو الإنسان إلى نفسه فيقرأ هذه السورة من سور القرآن أربع مرات ثم يطلب ما يشاء وينصرف . والثانية أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة سبع مرات ، ثم يطلب ما يشاء وينصرف . والثالثة أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة إحدى وأربعين مرة لا يفرغ من قراءتها مرة حتى يتبعها بدعاء يس : « يا عصبية الخير بخير المثل » ، فإذا أتم القراءة طلب ما شاء وانصرف .



والبخور محتوم في هذه المرتبة الثالثة . وكان الشيخ يكلف ابنه
العديّة الصغرى في صغار الأمور ، والوسطى في الأمور
الهامة ، والكبرى في الأمور التي تمس حياة الأسرة كلها .
فإذا سعى في أن يدخل أحد أبنائه في المدرسة مجاناً فالعديّة
الصغرى . وإذا التمس إلى الله أداء دين ثقیل فالعديّة الوسطى .
وإذا رغب في أن ينتقل من عمل إلى عمل وأن يزداد مرتبه
جنيهاً أو بعض الجنيه فالعديّة الكبرى . وكان لكل عديّة
أجر: فأما العديّة الصغرى فأجرها قطعة من السكر أو الحلوى ،
وأما العديّة الوسطى فأجرها خمسة مليات ، وأما العديّة
الكبرى فأجرها عشرة . وكثيراً ما خلا الصبي إلى نفسه وقرأ
سورة يس أربعاً أو سبعاً أو إحدى وأربعين . ومن عجيب
الأمر أن الحاجات كانت تقضى دائماً ! وما هي إلا أن تمّ
اقتناع الشيخ بأن ابنه مبارك ، وبأنه أثير عند الله .

ولم يكن أمر السحر والتصوف مقصوراً على قضاء الحاجات
والتنبؤ بما سينجلي عنه الغيب ، وإنما كان يتجاوز هذا كله
إلى دفع المكروه واتقاء النكبات . وقد نسي الصبي أشياء

كثيرة ، ولكنه لم ينس هذا الرعب الذى ملأ قلوب الناس جميعاً فى المدينة وما حولها من القرى ؛ حين وصلت إليهم الأخبار من القاهرة بأن نجماً ذا ذنب سيظهر فى السماء بعد أيام ؛ حتى اذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر مسَّ الأرض بطرف من ذنبه فإذا هى هشيم تذروه الرياح . فأما النساء وعامة الناس فلم يحفلوا بهذا أو لم يكادوا يحفلون به ، وإنما كانوا يشعرون بشيء من الرعب كلما تحدثوا بهذه النازلة أو سمعوا الحديث عنها ، ثم لا يلبثون أن ينصرفوا الى ما هم فيه من حياة عملية . وأما المتفقهون فى الدين وحملة القرآن وأصحاب الطرق وتلاميذهم فكانوا هلعين حقاً مروّعين ، لا تكاد تستقر قلوبهم بين جنوبهم ، وكانوا يتحاورون فى ذلك حواراً متصلاً ، فمنهم من يزعم أن هذه الكارثة لن تقع ، لأنها مخالفة لما عرف من أسراط الساعة . وما كان للأرض أن تبنى قبل أن تظهر الدابة والنار والدَّجَال ، وقبل أن يهبط المسيح إلى الأرض فيملاها عدلاً بعد أن ملئت جوراً . ومنهم من كان يظن أن الكارثة من أسراط الساعة . ومنهم من كان يتحدث

بأن هذه الكارثة قد تقع فتصيب الأرض بشيء من التدمير دون أن تأتى عليها جميعاً . كانوا يتحاورون طول النهار ، حتى إذا أقبل الليل وصليت المغرب اجتمعوا حلقاً في المسجد وأمام الدور ، وأخذوا يردون هذه الكلمة : « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » حتى تصلى العشاء . وانقضت الأيام ، وجاءت الساعة المحتومة ، ولم يظهر في السماء نجم ذو ذنب ولم يصب الأرض دمار قليل ولا كثير . فانقسم المتفقهون في الدين وحملة القرآن وأصحاب الطرق ، فأما أهل العلم الذين يستمدون علمهم من الكتب وينتمون إلى الأزهر فاتصروا ، وقالوا : « ألم نقل لكم : إن هذه الكارثة لا يمكن أن تقع قبل أن تظهر أشرار الساعة ؟ ألم ندعكم إلى تكذيب المنجمين ؟ » وأما حملة القرآن فقالوا : « كلا ، لقد كادت تقع الكارثة لولا أن لطف الله بالرضع والحوامل والبهائم ، وسمع لدعاء الداعين ، وتضرع المتضرعين » . وأما أهل التصوف والعلم اللدنى فقالوا : « كلا لقد كادت تقع الكارثة لولا أن توسط القطب المتولى بين الناس والله ، فصرف عن الناس هذا البلاء ، واحتمل عنهم أوزارهم » .

وأنت تستطيع أن تقول : إن هذا الدافع الذى كان يدفع
الناس إلى التحصن من الخمسين كان سحراً أو تصوفاً . أما أنا
فلا أستطيع إلا أن أحدثك بما يذكر الصبي من أن الأيام
التي كانت تسبق أيام شم النسيم كانت أياماً غريبة ؛ يخالط
فيها قلوب النساء والصبيان وحمة القرآن شئ من الفرح
والخوف . كانوا إذا أظلمهم يوم الجمعة أسرفوا فى الأكل وفى
ألوان خاصة من الطعام ، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا فى
أكل البيض الملوّن . وكان الفقهاء قد استعدوا لهذا اليوم
استعداداً خاصاً فاشتروا ورقاً أبيض صقيلاً ، وقطعوه قطعاً
صغاراً دقاقاً وكتبوا على كل قطعة « الم ص » ثم يطوون
هذه القطع ويملاؤن بها جيوبهم . حتى إذا كان يوم السبت
ألموا بالدور التي كانوا يتصلون بها ففرقوا هذه القطع من
الورق على أهلها ، وطلبوا إلى كل واحد أن يبتلع منها أربعاً
قبل أن يلم بطعام أو شراب . وكانوا يزعمون للناس أن ابتلاع
هذه القطع من الورق يصرف عنهم ما تأتى به الخمسون من
المكروه ، ويصرف عنهم الرمد بنوع خاص . وكان الناس

هذه التماثم والحجب يدفع عنهم أذى هذه الشياطين التي
تحملها رياح الحُسين . وكان النساء يتلقين هذه الحجب
مطمئنات إليها ، ولكن ذلك لم يكن يمنعهن من اتقاء
العفاريت يوم شم النسيم بشق البصل وتعليقه على أبواب
الدور ، وأكل الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام في
هذا اليوم .





وأراد الله أن يشقى سيدنا بتمامه شقاء غير قليل . فلم تكفه تلك الحوادث التي كانت تحدث من حين إلى حين عند ما كان الشيخ يمتحن الصبي ، ولم تكفه هذه النكبات المتصلة التي نشأت عن عناية الصبي بحفظ الألفية وغيرها من المتون ، وجعلت الصبي ثقيلاً سمجاً يتعالى على أترابه وعلى سيده ، ويرى لنفسه مكانة العلماء ، ويعصى أوامر العريف . لم يكفه هذا كله ، بل كانت نكبة أخرى لم يكن الرجل ينتظرها حقاً ، وكانت أشد عليه من كل النكبات الأخرى ، لأنها مسته في صناعته ، ذلك أن رجلاً من أهل القاهرة هبط إلى المدينة في يوم من الأيام على أنه مفتش للطريق الزراعية . وكان هذا الرجل في متوسط عمره . وكان مطربشاً يتكلم الفرنسية ، وكان يقول : إنه تخرج من مدرسة الفنون والصنائع . وكان خفيف الظل جذاباً . فما لبث أن أحبه الناس ودعوه إلى

دورهم ومجالسهم . وما لبث أن اتصلت المودة بينه وبين
أبي الصبي . وكان قد رتب سيدنا في بيته يقرأ له سورة من
القرآن في كل يوم ، وجعل له عشرة قروش في كل شهر ، وهو
الأجر المرتفع الذي كان يدفعه وجوه الناس . فكان سيدنا
محباً لهذا الرجل مثنياً عليه . ولكن رمضان أقبل ، وكان
الناس يجتمعون في ليالى رمضان عند رجل من أهل المدينة
وجيه يعمل في التجارة . وكان سيدنا يقرأ القرآن عند هذا
الرجل طوال الشهر . وكان الصبي يرافق سيدنا ويريمه من
حين إلى حين بقراءة سورة أو جزء مكانه . فقرأ ذات ليلة
وسمعه هذا المفتش ، فقال لأبيه : إن ابنك لشديد الحاجة إلى
تجويد القرآن . قال الشيخ : سيجوده متى ذهب إلى القاهرة
على شيخ من شيوخ الأزهر . قال المفتش : فأنا أستطيع أن
أجوده له القرآن على قراءة حفص حتى إذا ذهب إلى الأزهر
كان قد ألمّ بأصول التجويد ، وسهل عليه أن يفرغ للقراءات
السبع أو العشر أو الأربع عشرة . قال الشيخ : وهل أنت
من حملة القرآن ؟ قال المفتش : ومن المجودين ، ولولا أنى

مشغول لاستطعت أن أقرء ابنك القرآن على الروايات جميعاً،
ولكني أحب أن أخصص له ساعة في كل يوم فأقرئه رواية
حفص ، وأدرس له أصول الفن وأعدّه بذلك للأزهر إعداداً
صحيحاً . قال القوم : وكيف لمطربش يتكلم الفرنسية بحفظ
القرآن ورواية القراءات ؟ قال المفتش : أنا أزهريّ تقدمت
في دراسة العلوم الدينية إلى مدى بعيد ، ثم انصرفت عنها إلى
المدارس فتخرجت من مدرسة الفنون والصنائع . قالوا : فقرأ
لنا شيئاً . فنزع الرجل نعليه وتربع ورتّل لهم سورة هود
ترتيلاً ما سمعوا مثله . فلا تسل عن إعجابهم به وإكبارهم إياه ،
ولا تسل عما أصاب سيدنا من الحزن والغيظ ، فقد قضى
الرجل ليلته كأنه مصعوق .

وأصبح الشيخ فأمر ابنه بأن يختلف إلى بيت المفتش في
كل يوم . وفرح الصبي بهذا فرحاً شديداً ، فأعاده على أثرابه
في الكتاب وتحدّث به إلى الصبيان . ولا تسل عن مقدار
ما كان يترك هذا الحديث في نفس سيدنا من الحزن ، فقد
نهر الصبي وأمر ألا يذكر اسم المفتش مرة في الكتاب .

وذهب الصبي إلى بيت المفتش واتصل ذهابه إلى هذا البيت ، وأقرأه المفتش تحفة الأطفال وشرح له أصول التجويد . علمه المدّ والغن والإخفاء والإدغام وما يتصل بهذا كله . وكان الصبي معجباً بهذا العلم ، وكان يتحدث به إلى أترابه في الكتاب ، وكان يبين لهم أن سيدنا لا يحسن المدّ ولا يتقن الغنّ ، ولا يعرف الفرق بين المد الكلمي والحرفي ، ولا بين المد المثلث والمخفف ، وكانت أصداء هذا كله تصل إلى سيدنا فتغمره وتحزنه وتخرجه أحياناً عن طوره .

وأخذ الصبي يقرأ القرآن على المفتش من أوله ، وأخذ المفتش يعلمه مواضع الوقف والوصل ، وأخذ الصبي يقلد المفتش في ترتيله ويحاكي نغمه ، وأخذ يقرأ القرآن على هذا النحو في الكتاب ، وجعل أبوه يمتحنه . فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أعجب وطرب وأثنى على المفتش . وما كان شيء يغبط سيدنا مثل ما كان يغيظه هذا الشناء .

وقضى الصبي سنة كاملة يتردد على هذا البيت ويقرأ القرآن على المفتش حتى أتقن التجويد برواية حفص ، وكاد

يبدأ في رواية ورش لولا أن حدثت حوادث وسافر الصبي إلى القاهرة .

أ كان الصبي يحب الاختلاف إلى هذا البيت لأنه كان يعجب بالمفتش ولأنه كان يحرص على إتقان القرآن وتجويده وعلى أن يغيظ سيدنا ويظهر التفوق على أترابه ؟ نعم ! في الشهرين الأولين من هذه السنة . فأمّا بعد هذين الشهرين فقد كان يجذبه إلى بيت المفتش ويحببه فيه شيء آخر كان المفتش متوسط العمر قد بلغ الأربعين إن لم يكن قد جاوزها ، وكان قد تزوج من فتاة لم تبلغ السادسة عشرة ، ولم يكن له ولد ، ولم يكن يعمر بيته الكبير إلا هذه الفتاة وجدّة لها قد جاوزت الخمسين ، فأما حين بدأ الصبي يختلف إلى هذه الدار فقد كان يذهب ويعود دون أن يلتفت إليه أحد غير المفتش . وما هي إلا أن كثر تردّد الصبي حتى أخذت الفتاة تتحدث إليه وتسأله عن نفسه وعن أمه وعن إخوته وعن داره ، وأخذ الصبي يجيبها مستحييا ، ثم متبسطا ، ثم مطمئنا ، واتصلت بين هذه الفتاة وهذا الصبي مودة ساذجة

كانت حلوة في نفس الصبي لذيذة الموقع في قلبه ، وكانت
ثقيلة على نفس هذه الشيخة ، وكان المفتش يجهلها جهلاً تاماً .
وأخذ الصبي يذهب إلى دار المفتش قبل الميعاد ليظفر
بساعة أو بعض ساعة يتحدث فيها إلى هذه الفتاة ، وأخذت
الفتاة تنتظره ، حتى إذا أقبل أخذته إلى غرفتها ، فجلست
وأجلسته وتحدثا ، وما هي إلا أن استحال الحديث إلى لعب ،
إلى لعب كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعباً
لذيذاً . وقص الصبي هذا كله على أمه ، فضحكت ورثت
للفتاة قائلة لأخت الصبي : طفلة زوجت من هذا الشيخ
لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد فهي ضيقة الصدر في حاجة إلى
اللهو والعبت .

ومن ذلك اليوم سعت أم الصبي في التعرف إلى هذه الفتاة
ودعتها إلى البيت وإلى أن تكثر التردد عليها .





وكذلك اتصلت أيام الصبي بين البيت والكتاب والمحكمة
والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر، لا هي
بالحلوة ولا هي بالمرّة، ولكنها تحلو حيناً وتمر حيناً آخر،
وتمضى فيما بين ذلك فاترة سخيفة. حتى كان يوم من الأيام
ذاق الصبي فيه الألم حقاً، وعرف منذ ذلك أن تلك الآلام
التي كان يشقى بها ويكره من أجلها الحياة لم تكن شيئاً، وأن
الدهر قادر على أن يؤلم الناس ويؤذيهم ويحبب إليهم الحياة
ويهون من أمرها على نفوسهم في وقت واحد. كانت للصبي
أخت هي صغرى أبناء الأسرة، كانت في الرابعة من عمرها.
كانت خفيفة الروح طليقة الوجه فصيحة اللسان عذبة الحديث
قوية الخيال، كانت لهو الأسرة كلها، كانت تخلو إلى نفسها
ساعات طوالاً في لهو وعبث، تجلس إلى الحائط فتتحدث
إليه كما تتحدث أمها إلى زائرتها، وتبعث في كل اللعب التي

كانت بين يديها روحاً قوياً وتسبغ عليها شخصية . فهذه اللعبة امرأة ، وهذه اللعبة رجل ، وهذه اللعبة فتى ، وهذه اللعبة فتاة ، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعاً تذهب وتجيء ، وتصل بينها الأحاديث مرة في لهو وعبت ، وأخرى في غيظ وغضب ، ومرة ثالثة في هدوء واطمئنان . وكانت الأسرة كلها تجدد لذة قوية في الاستماع إلى هذه الأحاديث والنظر إلى هذه الألوان من اللعب دون أن ترى الطفلة ، أو تسمع ، أو تحس أن أحداً يرقبها .

فما هي إلا أن أقبلت بواذر عيد الأضحى في سنة من السنين ، وأخذت أم الصبي تستعد لهذا العيد تهياً له الدار وتعدّ له الخبز وألوان الفطير ، وأخذ إخوة الصبي يستعدون لهذا العيد ، يختلف كبارهم إلى الخياط حيناً ، وإلى الحذاء حيناً آخر ، ويلهو صغارهم بهذه الحركة الطارئة على الدار ، فينظر صبينا إلى أولئك وهؤلاء في شيء من الفلسفة كان قد تعودّه . فلم يكن في حاجة إلى أن يختلف إلى خياط أو حذاء ، وما كان ميالاً إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة ، وإنما كان يخلو

إلى نفسه ويعيش في عالم من الخيال يستمدّه من هذه القصص والكتب المختلفة التي كان يقرأها فيسرف في قراءتها .

أقبلت بواذر هذا العيد ، وأصبحت الطفلة ذات يوم في شيء من الفتور والهمود لم يكده يلتفت إليه أحد . والأطفال ، في القرى ومدن الأقاليم معرّضون لهذا النوع من الإهمال ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد وربة البيت كثيرة العمل . ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها إثما . يشكو الطفل ، وقاما تعنى به أمه . . . وأى طفل لا يشكو ! إنما هو يوم وليلة ثم يفيق ويبل . فإن عنيت به أمّه فهي تزدري الطبيب أو تجهله ، وهي تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء وأشباه النساء . وعلى هذا النحو فقد صبيننا عينيه ؛ أصابه الرمد فأهمل أيامًا ، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجًا ذهب بعينه . وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة ؛ ظلت فاترة هامدة محمومة يومًا ويومًا ويومًا ، وهي ملقاة على فراشها في ناحية من نواحي الدار ، تعنى بها أمها أو أختها من حين إلى حين ، تدفع إليها شيئًا من الغذاء الله يعلم

أكان جيداً أم رديئاً؟ . والحركة متصلة في البيت : يهياً الخبز
والفطير في ناحية ، وتنظف المنظرة وحجرة الاستقبال في
ناحية أخرى ، والصبيان في لهوهم وعبتهم ، والشبان في ثيابهم
وأحذيتهم ، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه آخر
النهار وأول الليل .

حتى إذا كان عصر اليوم الرابع وقف هذا كله فجأة .
وقف وعرفت أم الصبي أن شبحاً مخيفاً يخلق على هذه الدار .
ولم يكن الموت قد دخل هذه الدار من قبل ، ولم تكن هذه
الأمّ الحنون قد ذقت لذع الألم الصحيح . نعم ! كانت في
عملها وإذا الطفلة تصيح صياحاً منكراً ، فتدع أمّها كل شيء
وتسرع إليها ، والصياح يتصل ويزداد ، فتدع أخوات الطفلة
كل شيء ويسرعن اليهن . والصياح يتصل ويشتد ، والطفلة
تتلوى وتضطرب بين ذراعي أمّها ، فيدع الشيخ أصحابه
ويسرع إليها . والصياح يتصل ويشتد ، والطفلة ترتعد
ارتعاداً منكراً ويتقبض وجهها ويتصبب العرق عليه ،
فينصرف الصبيان والشبان عما هم فيه من لهو وحديث

ويسرعون إليها . ولكن الصياح لا يزداد إلا شدة ، وإذا
هذه الأسرة كلها واجمة مبهوتة محيطة بالطفلة لا تدري ماذا
تصنع ! ويتصل ذلك ساعة وساعة . فأما الشيخ فقد
أخذ الضعف الذي يأخذ الرجال في مثل هذه الحال فينصرف
مهمهما بصلوات وآيات من القرآن يتوسل بها إلى الله . وأما
الشبان والصبيان فيتسللون في شيء من الوجوم لا يكادون
ينسون ما كانوا فيه من لهو وحديث ، ولا يكادون يستأنفونه .
هم كذلك حيارى في الدار ! وأمهم جالسة واجمة تحرق في ابنتها
وتسقيها ألواناً من الدواء لا أعرف ما هي . والصياح متصل
مشتد ، والاضطراب مستمر متزايد .

ما كنت أحسب أن في الأطفال ولماً يتجاوزوا الرابعة قوة
تعديل هذه القوة . وتأتي ساعة العشاء وقد مدت المائدة ،
مدتها كبرى أخوات الصبي ، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا
إليها . ولكن صياح الطفلة متصل فلا تمتد يد إلى طعام ، وإنما
يتفرقون جميعاً وترفع المائدة كما مدت . والطفلة تصيح
وتضطرب ، وأما تحرق فيها حيناً وتبسط يدها إلى السماء

حيناً آخر، وقد كشفت عن رأسها وما كان من عاداتها أن تفعل ! ولكن أبواب السماء كانت قد أغلقت في ذلك اليوم، فقد سبق القضاء بما لا بد منه، فيستطيع الشيخ أن يتلو القرآن، وتستطيع هذه الأم أن تتضرع. ومن غريب الأمر أن أحداً من هؤلاء الناس جميعاً لم يفكر في الطيب. وتقدم الليل وأخذ صياح الفتاة يهدأ، وأخذ صوتها يخفت، وأخذ اضطرابها يخف، وخيل إلى هذه الأمّ التعسة أن قد سمع الله لها ولزوجها، وأن قد أخذت الأزمة تتحل. وفي الحق أن الأزمة كانت قد أخذت تتحل، وأن الله كان قد رآف بهذه الطفلة، وأن خفوت الصوت وهدوء هذا الاضطراب كانا آيتي هذه الرأفة. تنظر الأم إلى ابنتها فيخيل إليها أنها ستنام، ثم تنظر فإذا هدوء متصل لا صوت ولا حركة، وإنما هو نفس خفيف شديد الخفة يتردد بين شفتين مفتحتين قليلاً، ثم ينقطع هذا النفس وإذا الطفلة قد فارقت الحياة.

ماذا كانت علتها ؟ كيف ذهبت بحياتها هذه العلة ؟
الله وحده يعلم هذا .

وهنا يرتفع صياح آخر ويتصل ويشتد . وهنا يظهر اضطراب آخر ويتصل ويشتد . ولكنه ليس صياح الطفلة ولا اضطرابها ، وإنما هو صياح هذه الأم وقد رأت الموت ، واضطرابها وقد أحست الشكل . وإذا الشبان والصبيان قد فزعوا إلى أمّهم وسبقهم إليها الشيخ . وإذا هي في جزع وهلع ينطق لسانها بألفاظ لاصلة بينها ويقطع الدمع صوتها تقطيعاً ، وإذا هي تلطم خديها في عنف متصل ، وزوجها ماثل أمامها لا ينطق لسانه بحرف وإنما تنهر دموعه انهماراً . وإذا الجارات والجيران قد سمعوا هذا الصياح فأقبلوا مسرعين . فأما الشيخ فينصرف إلى الرجال يتقبل عزاءهم في قوة وجلد . وأما الشبان والصبيان فيتفرقون في الدار ، قد قست قلوب بعضهم فنام ، ورقّت قلوب بعضهم فسهر . وأما الأم ففيا هي فيه من جزع وهلع ! أمامها ابنتها هادمة جامدة ، تولول وتخمش وجهها وتصك صدرها ، ومن حولها بناتها وجاراتها يصنعن صنيعها يولولن ويخمشن الوجوه ويصككن الصدور حتى ينقضى الليل كله .

وما أشد نكر هذه الساعة التى أقبل فيها بعض الناس
واحتملوا الطفلة ومضوا بها إلى حيث لا تعود . كان ذلك اليوم
يوم الأضحى ، وكانت الدار قد هيئت للعيد . وكانت الضحايا
قد أعدت . فيا له من يوم ! ويا لها من ضحايا ! ويا نكرها من
ساعة حين عاد الشيخ إلى داره مع الظهر وقد وارى ابنته
فى التراب !

... منذ ذلك اليوم اتصلت الأواصر بين الحزن وبين
هذه الأسرة . فما هى إلا أشهر حتى فقد الشيخ أباه الهرم . وما
هى إلا أشهر أخرى حتى فقدت أم الصبي أمها الفانية . وإنما
هو حداد متصل وألم يقفو بعضه بعضاً ، منه اللاذع ومنه
الهادئ . حتى كان هذا اليوم المنكر الذى لم تعرف الأسرة
يومًا مثله ، والذى طبع حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها ،
والذى ابيض له شعر الأبوين جميعاً ، والذى قضى على هذه
الأم أن تلبس السواد إلى آخر أيامها ، وألاً تذوق للفرح طعماً ،
ولا تضحك إلا بكثيرة ، ولا تنام حتى ترقيق بعض
الدموع ، ولا تفيق من نومها حتى ترقيق دموعاً أخرى ،

ولا تطعم فاكهة حتى تطعم منها الفقراء والصبيان ، ولا تبتمس
لعيد ، ولا تستقبل يوم سرور إلا وهى كارهة راغمة .

كان هذا اليوم يوم ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢ . وكان
الصيف منكرأ فى هذه السنة . وكان وباء الكوليرا قد هبط
إلى مصر ففتك بأهلها فتكاً ذريعاً : دمر مدناً وقرى ،
ومحا أسراً كاملة ، وكان سيدنا قد أكثر من الحجب وكتابة
المخلفات ، وكانت المدارس والكتاتيب قد أقفلت ، وكان
الأطباء ورسل مصلحة الصحة قد انبثوا فى الأرض ومعهم
أدواتهم وخيامهم يحجزون فيها المرضى ، وكان الهلع قد ملأ
النفوس واستأثر بالقلوب ، وكانت الحياة قد هانت على
الناس ، وكانت كل أسرة تتحدث بما أصاب الأسر الأخرى
وتنتظر حظها من المصيبة ، وكانت أم الصبي فى هلع مستمر ،
وكانت تسأل نفسها ألف مرة فى كل يوم بمن تنزل النازلة
من أبنائها وبناتها ! وكان لها ابن فى الثامنة عشرة جميل المنظر
رائع الطلعة نجيب ذكى القلب ، وكان أنجب الأسرة وأذكاهها
وأرقها قلباً ، وأصفاها طبعاً ، وأبرها بأمه ، وأرافها بأبيه ،

وأرفقها بصغار إخوته وأخواته ، وكان مبتهجاً أبداً . وكان قد ظفر بشهادة البكالوريا وانتسب إلى مدرسة الطب وأخذ ينتظر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة . فلما كان هذا الوباء ، اتصل بطبيب المدينة وأخذ يرافقه ويقول : إنه يتمرن على صناعته حتى كان يوم ٢٠ أغسطس .

أقبل الشاب آخر هذا اليوم كعادته باسماء ، فلاطف أمه وداعبها وهدأ من روعها وقال : لم تصب المدينة اليوم بأكثر من عشرين إصابة وقد أخذت وطأة الوباء تخف ، ولكنه مع ذلك شكاً من بعض الغشيان وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحدثه كعادته ، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقهم إلى حيث كان يذهب معهم في كل يوم عند شاطئ الإبراهيمية . فلما كان أول الليل عاد وقضى ساعة في ضحك وعبث مع إخوته ، وفي هذه الليلة زعم لأهل البيت جميعاً أن في أكل الثوم وقاية من الكوليرا ، وأكل الثوم وأخذ كبار إخوته وصغارهم بالأكل منه وحاول أن يقنع أبويه بذلك فلم يوفق .

وكانت الدار هادئة مغرقة في النوم كبارها وصغارها

وحيوانها عندما انتصف الليل . ولكن صيحة غريبة ملأت
هذا الجو الهادئ ، فهبّ لها القوم جميعاً . فأّمّا الشيخ وزوجته
فكانا في هذا الدهليز المنبسط الذي تظله السماء يدعوان ابنهما
باسمه . وأما الشبان من أهل الدار فكانوا يثبون من فراشهم
مسرعين إلى حيث الصوت . وأما الصبيان فكانوا يجلسون
يحكون أعينهم بأيديهم يحاولون أن يتبينوا في شيء من الهلع
من أين يأتي الصوت وماذا كانت الحركة الغريبة !

وكان مصدر هذا كله صوت هذا الفتى وهو يعالج القى ،
وكان الفتى قد قضى ساعة أو ساعتين يخرج من الحجرة على
أطراف قدميه ويعضى إلى الخلاء ليقى مجتهداً ألا يوقظ أحداً .
حتى إذا بلغت العلة منه أقصاها لم يملك نفسه ولم يستطع أن
يقى في لطف ، فسمع أبواه هذه الحشرة ففرعا لها ، وفرع
معهما أهل الدار جميعاً .

إذاً فقد أصيب الشاب ووجد الوباء طريقه إلى الدار ،
وعرفت أم الفتى بأى أبنائها تنزل النازلة . لقد كان الشيخ في
تلك الليلة خليقاً بالإعجاب حقاً . كان هادئاً رزيناً مروّعاً مع

ذلك ، ولكنّه يملك نفسه . وكان في صوته شيء يدل على أن قلبه مفطور ، وعلى أنه مع ذلك جلد مستعد لاحتلال النازلة . آوى ابنه إلى حجرته وأمر بالفصل بينه وبين بقية إخوته ، وخرج مسرعاً فدعا جارين من جيرانه ، وماهى إلا ساعة حتى عاد ومعه الطبيب .

وفي أثناء ذلك كانت أمّ الفتى مروّعة جلدة مؤمنة تعنى بابنها ، حتى إذا أمهله القىء خرجت إلى الدهليز فرفعت يدها ووجهها إلى السماء وفنيت في الدعاء والصلاة ، حتى تسمع حشجة القىء فتسرع إلى ابنها تسنده إلى صدرها وتأخذ رأسه بين يديها ، ولسانها مع ذلك لا يكف عن الدعاء والابتهاال .

ولم تستطع أن تحول بين الصبيان والشبان وبين المريض ، فملأوا عليه الحجرة وأحاطوا به واجمين ، وهو يداعب أمّه كلما أمهله القىء ، ويعبث مع صغار إخوته ، حتى إذا جاء الطبيب فوصف ما وصف وأمر بما أمر به وانصرف على أن يعود مع الصبح ، لزمّت أمّ الفتى حجرة ابنها وجلس الشيخ قريباً من

هذه الحجرة واجماً لا يدعو ولا يصلى ولا يجيب أحداً من الذين كانوا يتحدثون إليه .

وأقبل الصبح بعد لآى ، وأخذ الفتى يشكو ألماً فى ساقيه . وأقبلت إليه أخواته يدلكن له ساقيه ، وهو يشكو صائحاً مرة كاتماً ألمه مرة أخرى ، والقتى يجهدده ويخلع فى الوقت نفسه قلب أبويه . وقضت الأسرة كلها صباحاً لم تقض مثله قط : صباحاً واجماً مظماً فيه شىء مفرع مروع . فأما خارج الدار فكان يزدهم بالناس ، أقبلوا إلى الشيخ يواسونه . وأما داخل الدار فكان مزدهماً بالناس أقبلن يواسين أمَّ الفتى . وكان الشيخ وزوجه عن أولئك وهو لاء فى شغل . وكان الطبيب يتردد بين ساعة وساعة . وكان الفتى قد طلب أن يبرق إلى أخيه الأزهرى فى القاهرة وإلى عمه فى أعلى الإقليم . وكان يطلب الساعة من حين إلى حين ينظر فيها كأنه يتعجل الوقت ، وكأنه يشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشاب وعمه الشيخ . يالها من ساعة منكرة ، هذه الساعة الثالثة من الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢

انصرف الطبيب من الحجرة يائساً ، وكأنه قد أسرَّ إلى رجلين من أقرب أصحاب الشيخ إليه بأن الفتى يختصر ، فأقبل الرجلان حتى دخلا الحجرة على الفتى ومعه أمه . ظهرت في هذا اليوم لأول مرة في حياتها أمام الرجال .

والفتى في سرير يتضور : يقف ثم يلقى بنفسه ، ثم يجلس ثم يطلب الساعة ، ثم يعالج القىء ، وأمّه واجمة ، والرجلان يواسيانه وهو يجيبهما : لست خيراً من النبي . أليس النبي قد مات ! ويدعو أباه يريد أن يواسيه فلا يجيبه الشيخ . وهو يقوم ويقعد ويلقى نفسه في السرير مرة ومن دون السرير مرة أخرى ، وصبينا منزو في ناحية من هذه الحجرة ، واجم كئيب دهش يمزق الحزن قلبه تمزيقاً .

ثم ألقى نفسه على السرير وعجز عن الحركة ، وأخذ يئن أنيناً يخفت من حين إلى حين . وكان صوت هذا الأنين يبعد شيئاً فشيئاً . وإن الصبي لينسى كل شيء قبل أن ينسى هذه الأننة الأخيرة التي أرسلها الفتى نحيلة ضئيلة طويلة ثم سكت . في هذه اللحظة نهضت أم الفتى وقد انتهى صبرها ووهى

جلدها ، فلم تكد تقف حتى هوت أو كادت ، وأسندها الرجلان
كما لكت نفسها وخرجت من الحجرة مطرقة ساعية في هدوء ،
حتى إذا جاوزتها انبعثت من صدرها شكاة ، لا يذكرها الصبي
إلا انخلع لها قلبه انخلاعاً . واضطرب الفتى قليلاً ومرت في
جسمه رعدة تبعها سكوت الموت . وأقبل الرجلان إليه فهيأه
وعصباه وألقيا على وجهه لثاماً ، وخرجا إلى الشيخ . ثم ذكرا
أن الصبي منزوف في ناحية من نواحي الحجرة ، فعادا أحدهما إليه
فجذبه جذباً وهو ذاهل حتى انتهى به إلى مكان بين الناس
فوضعه فيه كما يوضع الشيء .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى هيئ الفتى للدفن
وخرج الرجال به على أعناقهم .

فيا للقضاء ! ما كادوا يبلغون به باب الدار حتى كان أول من لقي
النعش هذا العم الشيخ الذي كان الفتى يتمهل الموت دقائق ليراه .
من ذلك اليوم استقر الحزن العميق في هذه الدار وأصبح
إظهار الابتهاج أو السرور بأى حادث من الحوادث شيئاً
ينبغي أن يتجنبه الشبان والأطفال جميعاً .

من ذلك اليوم تعود الشيخ ألا يجلس إلى غذائه ولا إلى
عشائه حتى يذكر ابنه ويكيه ساعة أو بعض ساعة ، وأمامه
امراته تعينه على البكاء ، ومن حوله أبنائوه وبناته يحاولون
تعزية هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئاً فيجهشون جميعاً
بالبكاء ..

من ذلك اليوم تعودت هذه الأسرة أن تعبر النيل إلى مقر
الموتى من حين إلى حين ، وكانت من قبل ذلك تعيب الذين
يزورون الموتى .

ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيراً تاماً . عرف الله
حقاً . وحرص على أن يتقرب إليه بكل ألوان التقريب : بالصدقة
حيناً وبالصلاة حيناً آخرو بتلاوة القرآن مرة ثالثة . ولقد شهد
الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوف ولا إشفاق ولا إيثار للحياة ،
ولكنه كان يعلم أن أخاه الشاب كان من أبناء المدارس ، وكان
يقصر في أداء واجباته الدينية ، فكان الصبي يأتي ما يأتي من
ضروب العبادة يريد أن يحط عن أخيه بعض السيئات . كان
أخوه في الثامنة عشرة من عمره ، وكان الصبي قد سمع من الشيوخ

أن الصلاة والصوم فرض على الإنسان متى بلغ الخامسة عشرة .
فقدّر الصبي في نفسه أن أخاه مدين لله بالصوم والصلاة ثلاثة
أعوام كاملة ، وفرض الصبي على نفسه ليصلين الخمس في كل
يوم مرتين : مرة لنفسه ومرة لأخيه ! وليصومن من السنة
شهرين : شهراً لنفسه وشهراً لأخيه ، وليكتمن ذلك عن أهله
جميعاً وليجعلن ذلك عهداً بينه وبين الله خاصة ، وليطعمن
فقيراً أو يتيماً مما تصل إليه يده من طعام أو فاكهة قبل أن
يأخذ بحظه منه . وشهد الله لقد وفي الصبي بهذا العهد أشهراً
وما غير سيرته هذه إلا حين ذهب إلى الأزهر .

من ذلك اليوم عرف الصبي أرق الليل . فكم أنفق سواد
الليل كاملاً يفكر في أخيه أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف
المرات ثم يهب ذلك كله لأخيه ، أو ينظم شعراً على نحو هذا
الشعر الذي كان يقرؤه في كتب القصص يذكر فيه حزنه
وآلمه لفقد أخيه ، معنياً بالألّا يفرغ من قصيدة حتى يصلى في
آخرها على النبي واهباً ثواب هذه الصلاة لأخيه .

نعم ! ومن ذلك اليوم عرف الصبي الأحلام المروعة ، فقد

كانت علة أخيه تتمثل له في كل ليلة ، واستمرت الحال كذلك أعوامًا . ثم تقدمت به السن وعمل فيه الأزهر عمله ، فأخذت علة أخيه تتمثل له من حين إلى حين ، وأصبح فتى ورجلاً وتقلبت به أطوار الحياة ، وإنه لعلى ما هو عليه من وفاء لهذا الأخ ، يذكره ويراه فيما يرى النائم مرة في الأسبوع على أقل تقدير .

ولقد تعزى عن هذا الفتى إخوته وأخواته ، ونسيه من نسيه من أصحابه وأترابه ، وأخذت ذكره لا تزور أباه الشيخ إلا لمأماً ، ولكن اثنين يذكرانه أبدأً ، وسيدكرانه أبدأً أول الليل من كل يوم ، هما : أمه وهذا الصبي .





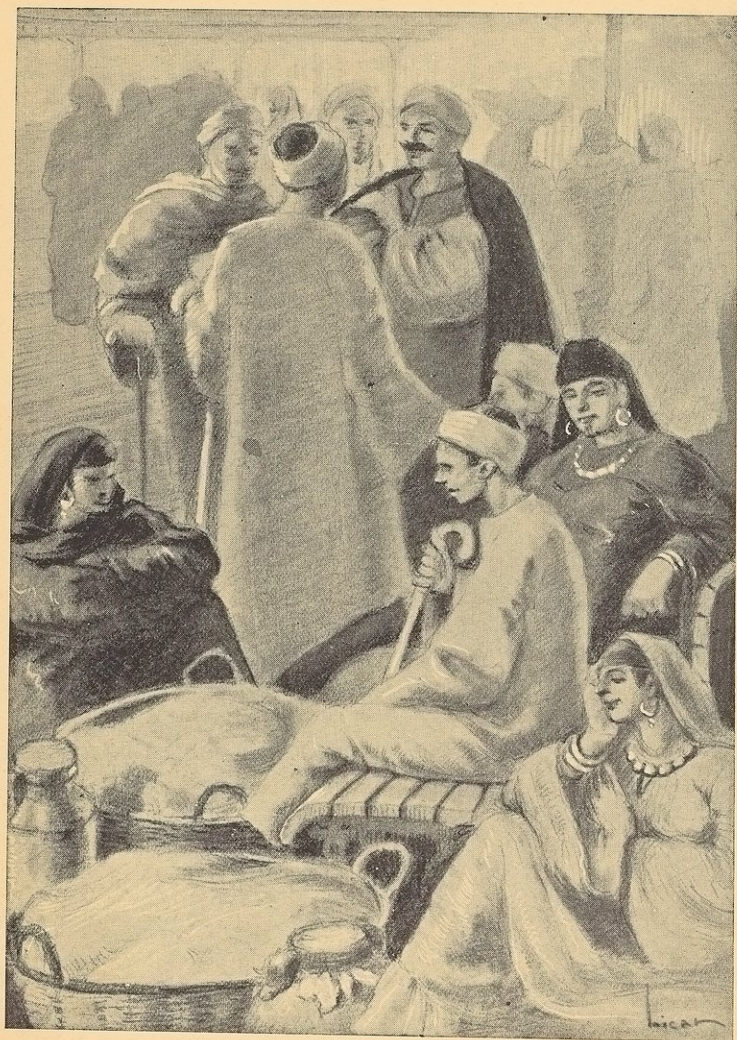
أما في هذه المرة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك ،
وستصبح مجاوراً ، وستجتهد في طلب العلم ، وأنا أرجو
أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً وأراك من علماء
الأزهر ، قد جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقة
واسعة بعيدة المدى .

قال الشيخ ذلك لابنه آخر النهار في يوم من خريف
سنة ١٩٠٢ ، وسمع الصبي هذا الكلام فلم يصدّق ولم يكذب ،
ولكنه آثر أن ينتظر تصديق الأيام أو تكذيبها له ، فكثيراً
ما قال له أبوه مثل هذا الكلام ، وكثيراً ما وعده أخوه
الأزهري مثل هذا الوعد ، ثم سافر الأزهرى إلى القاهرة ،
ولبت الصبي في المدينة يتردد بين البيت والكتّاب والمحكمة
ومجالس الشيوخ .

وفي الحق أنه لم يفهم لماذا صدّق وعد أبيه في هذه السنة ،

فقد أخبر الصبي ذات يوم أنه مسافر بعد أيام . وأقبل يوم الخميس ، فإذا الصبي يرى نفسه يتأهب للسفر حقاً ، وإذا هو يرى نفسه في المحطة ولما تشرق الشمس . وهو يرى نفسه جالساً القرفصاء منكس الرأس كئيباً محزوناً ، ويسمع أكبر إخوته ينهره في لطف قائلاً له : لا تنكس رأسك هكذا ، ولا تأخذ هذا الوجه الحزين فتحزن أخاك . ويسمع أباه يشجعه في لطف قائلاً : ماذا يحزنك ؟ أأنت رجلاً ؟ أأنت قادرٌ على أن تفارق أمك ؟ أم أنت تريد أن تلعب ؟ ألم يكفك هذا اللعب الطويل ؟

شهد الله ما كان الصبي حزيناً لفراق أمه ، وما كان الصبي حزيناً لأنه لن يلعب ، إنما كان يذكر هذا الذي ينام هنالك من وراء النيل . كان يذكره ، وكان يذكر أنه كثيراً ما فكر في أنه سيكون معهما في القاهرة تلميذاً في مدرسة الطب . كان يذكر هذا كله فيحزن ، ولكنه لم يقل شيئاً ولم يظهر حزناً ، وإنما تكلف الابتسام . ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكى ولا يبكى من حوله أباه وأخويه .



وانطلق القطار ومضت ساعات ورأى صاحبنا نفسه في
القاهرة بين جماعة من المجاورين قد أقبلوا إلى أخيه فحيوه
وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام .

وانقضى هذا اليوم . وكان يوم الجمعة ، وإذا الصبي يرى
نفسه في الأزهر للصلاة . وإذا هو يسمع الخطيب شيخاً صرخ
الصوت عالياً ، نغم الرءات والقافات ، لا فرق بينه وبين
خطيب المدينة إلا في هذا . فأما الخطبة فهي ما كان تعود أن
يسمع في المدينة . وأما الحديث فهو هو . وأما النعت فهو هو .
وأما الصلاة فهي هي ليست أطول من صلاة المدينة ولا أقصر .
وعاد الصبي إلى بيته أو قل إلى حجرة أخيه خائب الظن
بعض الشيء . وسأله أخوه : ما رأيك في تجويد القرآن ودرس
القراءات ؟ قال الصبي : لست في حاجة إلى شيء من هذا ،
فأما التجويد فأنا أتقنه ، وأما القراءات فلست في حاجة إليها ،
وهل درست أنت القراءات ؟ أليس يكفيني أن أكون مثلك ؟
إنما أنا في حاجة إلى العلم ، أريد أن أدرس الفقه والنحو
والمنطق والتوحيد .

قال أخوه : حسبك ! يكفي أن تدرس الفقه والنحو في هذه السنة .

وكان يوم السبت ، فاستيقظ الصبي مع الفجر ، وتوضأ وصلى ، ونهض أخوه فتوضأ وصلى كذلك ، ثم قال له : ستذهب معي الآن إلى مسجد كذا ، وستحضر درساً ليس لك وإنما هو لي ، حتى إذا فرغنا من هذا الدرس ذهبت بك إلى الأزهر فالتمت لك شيخاً من أصحابنا تختلف إليه وتأخذ عنه مبادئ العلم . قال الصبي : وما هذا الدرس الذي سأحضره ؟ قال أخوه ضاحكاً : هو درس الفقه وهو ابن عابدين على الدرر . قال ذلك يملأ به فيه . قال الصبي : ومن الشيخ ؟ قال أخوه : هو الشيخ ... وكان الصبي قد سمع اسم الشيخ ... ألف مرة ومرة . فقد كان أبوه يذكر هذا الاسم ويفتخر بأنه عرف الشيخ حين كان قاضياً للاقليم . وكانت أمه تذكر هذا الاسم ، وتذكر أنها عرفت امرأته فتاة هوجاء جلقة ، تتكلف زى أهل المدينة وماهى من زى أهل المدن في شيء ، وكان أبو الصبي يسأل ابنه الأزهرى كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه .

وكان ابنه الأزهرى يحدثه عن الشيخ ومكانته فى المحكمة العليا وحلقته التى تعد بالمئات. وكان أبو الصبى يلح على ابنه الأزهرى فى أن يقرأ كما كان يقرأ الشيخ ، فيحاول الفتى تقليده فيضحك أبوه فى إعجاب وإكبار. وكان أبو الصبى يسأل ابنه : أيعرفك الشيخ ؟ فيجيب الفتى : وكيف لا ! وأنا ورفاقى من أخص تلاميذه وآثرهم عنده ، نحضر درسه العام ثم نحضر عليه درساً خاصاً فى بيته ، وكثيراً ما نتعدى لنعمل معه بعد ذلك فى كتبه الكثيرة التى يؤلفها . ثم يمضى الفتى فى وصف بيت الشيخ وحجرة استقباله ودار كتبه ، وأبوه يسمع ذلك معجباً ، حتى إذا خرج إلى أصحابه قص عليهم ما سمع من ابنه فى شيء من التيه والفخار .

كان الصبى إذاً يعرف الشيخ ، وكان سعيداً بالذهاب إلى حلقاته والاستماع له . وكم كان مبتهجاً حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصى ثم على الرخام ثم على هذا البساط الرقيق الذى فرش به المسجد . وكم كان سعيداً حين أخذ مكانه فى الحلقة على هذا البساط إلى جانب عمود من الرخام ، لمسه

فأحب ملاسته ونعومته ، وأطال التفكير في قول أبيه : إني لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً وأراك صاحب عمود في الأزهر . وفيما هو يفكر في هذا ويتمنى أن يمس أعمدة الأزهر ليرى أهى كأعمدة هذا المسجد ، وللطلاب من حوله دوى غريب ، أحس أن هذا الدوى يخفت ثم ينقطع ، وغمره أخوه بيده قائلاً في صوت خافت : لقد أقبل الشيخ . اجتمعت شخصية الصبي كلها حينئذ في أذنيه . وأنصت . ماذا يسمع ؟ يسمع صوتاً خافتاً هادئاً رزيناً ملؤه شيء قل إنه الكبر ، أو قل إنه الجلال ، أو قل إنه ما شئت ، ولكنه شيء غريب لم يحبه الصبي . ولبت الصبي دقائق لا يعيز مما يقول الشيخ حرفاً ، حتى إذا تعودت أذناه صوت الشيخ وصدى المكان سمع وتبين وفهم . وقد أقسم لى بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم . سمع الشيخ يقول : ولو قال لها أنت طلاق أو أنت ظلام أو أنت طلال أو أنت طلاة وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ . يقول ذلك متغنياً به مرتلاً له ترتيلاً في صوت لا يخلو من حشجة ، ولكن صاحبه يحتمل أن يجعله عذبا ،

ثم يحتتم هذا الغناء بهذه الكلمة التي أعادها طوال الدرس :
« فاهم يا أدع » . وأخذ الصبي يسأل نفسه عن « الأدع » هذا
ما هو ؟ حتى إذا انصرف عن الدرس سأل أخاه : ما الأدع ؟
ففقّقه أخوه وقال : الأدع الجدع في لغة الشيخ .
ومضى به بعد ذلك إلى الأزهر فقدمه إلى أستاذه الذي
علمه مبادئ الفقه والنحو سنة كاملة .





إنك يا ابنتي لساذجة سليمة القلب طيبة النفس .
أنت في التاسعة من عمرك ، في هذه السن التي يعجب
فيها الأطفال بأبائهم وأمهاتهم ويتخذونهم مثلاً عليا في
الحياة : يتأثرونهم في القول والعمل ، ويحاولون أن
يكونوا مثلهم في كل شيء ، ويفاخرون بهم إذا تحدثوا
إلى أقرانهم أثناء اللعب ، ويخيل إليهم أنهم كانوا أثناء
طفولتهم كما هم الآن مثلاً عليا يصلحون أن يكونوا قدوة
حسنة وأسوة صالحة .

أليس الأمر كما أقول ؟ أأنت ترين أن أباك خير الرجال
وأكرمهم ؟ أأنت ترين أنه قد كان كذلك خير الأطفال
وأنبأهم ؟ أأنت مقتنعة أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً
مما تعيشين ؟ أأنت تحبين أن تعيشي الآن كما كان يعيش
أبوك حين كان في الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فإن أباك يبذل

من الجهد ما يملك ، ويتكلف من المشقة ما يطيق وما لا يطيق ،
ليجنبك حياته حين كان صبيغاً .

لقد عرفته يا ابنتى فى هذا الطور من أطوار حياته . ولو أنى
حدثتك ما كان عليه حينئذ لكذبت كثيراً من ظنك ،
ولخيت كثيراً من أملك ، ولفتحت إلى قلبك الساذج ونفسك
الحلوة باباً من أبواب الحزن ؛ حرام أن يفتح إليهما وأنت فى
هذا الطور اللذيذ من الحياة . ولكنى لن أحدثك بشىء مما
كان عليه أبوك فى ذلك الطور الآن . لن أحدثك بشىء من
هذا حتى تتقدم بك السن قليلاً فتستطيعين أن تقرئى وتفهمى
وتحكمى ، ويومئذ تستطيعين أن تعرفى أن أباك أحبك حقاً ،
وجدّ فى إسعادك حقاً ، ووفق بعض التوفيق إلى أن يجنبك
طفولته وصباه .

نعم يا ابنتى لقد عرفت أباك فى هذا الطور من حياته .
وإنى لأعرف أن فى قلبك رقة وليناً ، وإنى لأخشى لو حدثتك
بما عرفت من أمر أهلك حينئذ أن يملكك الإشفاق وتأخذك
الرافة فتجهش بالبكاء .

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر أيبك وهو يقص عليك قصة « أوديب ملكاً » وقد خرج من قصره بعد أن فقأ عينيه لا يدرى كيف يسير ، وأقبلت ابنته « أنتيجون » فقادته وأرشدته . رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجة من أولها ، ثم أخذ لونك يتغير قليلاً قليلاً ، وأخذت جبهتك السمحة تبرد شيئاً فشيئاً ، وماهى إلا أن أجهشت بالبكاء وانكبت على أيبك لثماً وتقيلاً ، وأقبلت أمك فانتزعتك من بين ذراعيه ، وما زالت بك حتى هدأ روعك ، وفهمت أمك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضاً أنك إنما بكيت لأنك رأيت أوديب الملك كأيبك مكفوفاً لا يبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحده . فبكيت لأيبك كما بكيت « لأوديب » .

نعم ! وإني لأعرف أن فيك عبث الأطفال وميلهم إلى اللهو والضحك وشيئاً من قسوتهم ، وإني لأخشى يا ابنتي إن حدثتك بما كان عليه أبوك في بعض أطوار صباه أن تضحكى منه قاسية لاهية ، وما أحب أن يضحك طفل من

أييه ، وما أحب أن يلهو به أو يقسو عليه . ومع ذلك فقد
عرفت أباك في طور من أطوار حياته أستطيع أن أحدثك به
دون أن أثير في نفسك حزناً ، ودون أن أغريك بالضحك
أو اللهو .

عرفته في الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة
ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر ؛ إن كان في ذلك الوقت
لصبي جد وعمل . كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الزى أقرب
إلى الفقر منه إلى الغنى ، تفتحمه العين اقتحاماً في عباءته القذرة
وطاقيته التي استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفي هذا القميص
الذي يبين أثناء عباءته وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة
ما سقط عليه من الطعام ، ومن نعليه الباليين المرقعتين .
تفتحمه العين في هذا كله ، ولكنها تبسم له حين تراه على
ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف ، واضح الجبين مبتسم
الشعر مسرعاً مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد
في مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظامة التي تغشى عادة
وجوه المكفوفين . تفتحمه العين ولكنها تبسم له وتلاحظه

فى شىء من الرفق ، حين تراه فى حلقة الدرس مصغياً كله
إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً ، مبتسماً مع ذلك لا متألماً ولا
متبرماً ولا مظهرًا ميلًا إلى هو ، على حين يلهو الصبيان من
حوله أو يشربون إلى اللهو .

عرفته يا ابنتى فى هذا الطور ، وكم أحب لو تعرفينه
كما عرفته . إذًا تقدرين ما بينك وبينه من فرق ، ولكن
أنت لك هذا وأنت فى التاسعة من عمرك ترين الحياة كلها
نعيمًا وصفوًا .

عرفته ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل
إلا لونا واحداً ، يأخذ منه حظه فى الصباح ويأخذ منه
حظه فى المساء ، لا شاكيًا ولا متبرماً ولا متجلداً ،
ولا مفكرًا فى أن حاله خليقة بالشكوى . ولو أخذت
يا ابنتى من هذا اللون حظًا قليلًا فى يوم واحد لأشفقت
أمك ولقدمت إليك قدحًا من الماء المعدنى ولا تنتظرت أن
تدعو الطبيب .

لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على

خبز الأزهر ، وويل للأزهريين من خبز الأزهر ؛ إن كانوا
ليجدون فيه ضروباً من القش وألواناً من الحصى وفنونا
من الحشرات .

وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز
إلا في العسل الأسود ، وأنت لا تعرفين العسل الأسود ،
وخير لك ألا تعرفيه .

كذلك كان يعيش أبوك جاداً مبتسماً للحياة والدرس ،
محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان . حتى إذا انقضت السنة وعاد
إلى أبويه وأقبل عليه يسأله كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟
أخذ ينظم لهما الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص ،
فيحدثهما بحياة يحياها كلها رغد ونعيم . وما كان يدفعه إلى
هذا الكذب حب الكذب . إنما كان يرفق بهذين الشيخين
ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان ، وكان يرفق بأخيه
الأزهري ، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من
اللبن . كذلك كانت حياة أبيك في الثالثة عشرة من عمره .

فإن سألتني كيف انتهى إلى حيث هو الآن ؟ وكيف

أصبح شكله مقبولاً لا تقتحمه العين ولا تزدريه ؟ وكيف استطاع أن يهيء لك ولأخيك ما أتما فيه من حياة راضية ؟ وكيف استطاع أن يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة ، وأن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضى عنه وإكرام له وتشجيع ؟ إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال ، فلست أستطيع أن أجيبك ! وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب ، فسليه ينبئك .

أتعرفينه ؟ أنظرى إليه ! هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج . ألسنت مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار !

لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك ، فبدله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا .

ليس دين أيبك لهذا الملك بأقل من دينك . فلتتعاوننا
يا ابنتى على أداء هذا الدين . وما أتما ببالعين من ذلك بعض
ما تريدان ؟

طه حسين



۱۹۴۴/۷/۱۰/۱۲۷۵



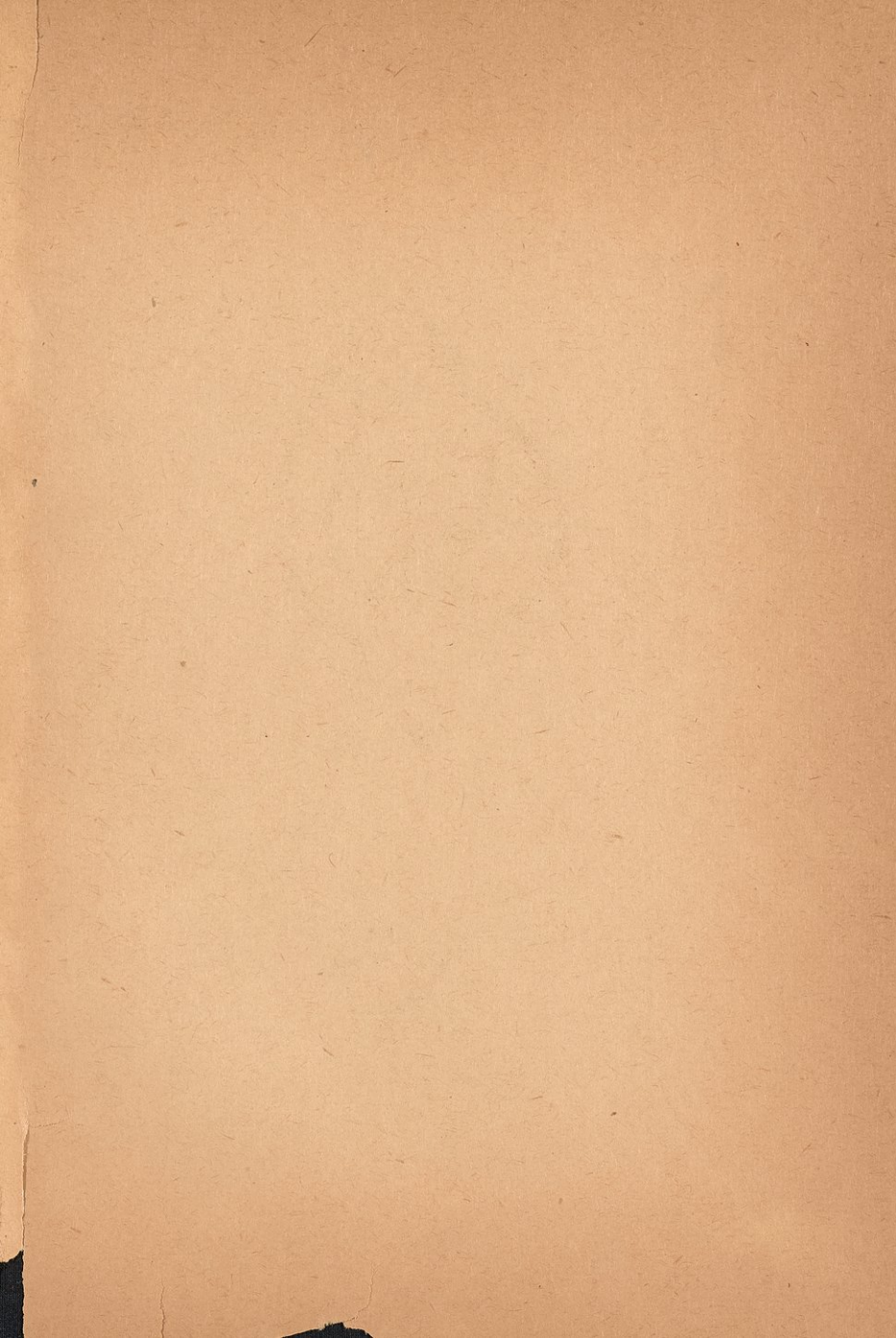
طَهَّ مَيَّن



٢



مطبعة المعارف وكتبتها ببصر



أقام في القاهرة أسبوعين أو أكثر من أسبوعين لا يعرف من أمره إلا أنه ترك الريف وانتقل إلى العاصمة ليطلق فيها المقام طالباً للعلم مختلفاً إلى مجالس الدرس في الأزهر ، وإلا أنه يقضى يومه في أحد هذه الأطوار الثلاثة التي يتخيلها ولا يحققها .

فهو يسكن بيتاً غريباً يسلك إليه طريقاً غريبة أيضاً ، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل ، وتفتح في وسطه فجوة ضيقة بعد أن تصلى العشاء . فإذا تجاوز هذا الباب أحس عن يمينه حراً خفيفاً يبلغ صفحة وجهه اليمنى ودخانا خفيفاً يداعب خياشيمه ، وأحس من شماله صوتاً غريباً يبلغ سمعه ويثير في نفسه شيئاً من العجب . وقد ظل أياماً يسمع هذا الصوت إذا عاد من الأزهر مصباحاً وإذا عاد منه ممسياً . يسمعه وينكره ويستحي أن يسأل عنه ، ثم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدخنها بعض تجار الحى ويهيئها صاحب القهوة التي كان ينبعث منها ذلك الحر الخفيف وذلك الدخان الرقيق . فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك

المكان الرطب المستقوف الذى لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء ، خرج إلى طريق مكشوفة ولكنها ضيقة قدرة تنبعث فيها روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها . تنبعث هادئة بغيزة فى أول النهار وحين يقبل الليل ، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار ويشتد حر الشمس .

وكان صاحبنا يمضى أمامه فى هذه الطريق الضيقة ، وقلمَا كانت تستقيم له هذه الطريق . وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات اليمين أو ذات الشمال ليجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك ، فكان يسعى حينئذ مستعرضاً قد أدار وجهه نحو هذا البناء عن يمين أو ذاك البناء عن شمال ، حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها ساعياً أمامه فى خطى رفيقه قلقة تأخذ أنفه تلك الروائح المنكرة وتأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطنعة تنحدر من عل وتصعد من أسفل وتنبعث من يمين وتنبعث من شمال وتلتقى كلها فى الجو ، فكأنما كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأس الصبي سحابة رقيقة ولكنه مترام قد غشى بعضه بعضاً .

وكانت هذه الأصوات مختلفة أشد الاختلاف . أصوات النساء يختصمن ، وأصوات الرجال يتنادون فى عنف ويتخذون فى رفق ،

وأصوات الأثقال تحط وتعتل ، وصوت السقاء يتغنى ببيع الماء ،
وصوت الحوذى يزجر حماره أو بغله أو فرسه ، وصوت العربة تنز
عجلاتها أزا ، وربما شق هذا السحاب من الأصوات نهيق حمار
أو صهيل فرس .

وكان صاحبنا يمضى بين هذا كله مشرد النفس قد غفل أو كاد
يغفل عن كل أمره ، حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكاناً بعينه
سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله فعرف أنه
سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذى
سينتهى به إلى حيث يقيم . وكان هذا السلم متوسطاً ليس بشديد
السعة ولا بشديد الضيق قد اتخذ درجة من الحجر ولكن كثر
التصعيد فيه والهبوط منه ولم يتعهد بالغسل ولا بالتنظيف ، فتراكم
عليه تراب كثيف ، ثم انعقد ولزم بعضه بعضاً حتى استخفى الحجر
استخفاء وخيل إلى المصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سلماً
من الطين .

ومع أن الصبى كان كلفاً باحصاء الدرج كلما صعد في سلم أو هبط
منه ، فقد أقام ما شاء الله له أن يقيم في ذلك المكان وصعد في ذلك
السلم وهبط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط . ولم يخطر له قط

أن يحصى درج هذا السلم وإنما علم بعد أن اتخذته مرتين أو مرات أنه إذا صعد منه درجات فلا بد من أن ينحرف قليلاً نحو الشمال ليمضى فى التصعيد تاركاً عن يمينه فجوة لم يلجها قط ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدى إلى الطبقة الأولى من ذلك البناء الذى أقام فيه أعواماً طويلاً .

كان يترك إذن عن يمينه مدخل تلك الطبقة من البناء التى لم يكن يسكنها طلاب العلم وإنما كان يسكنها أخطا من العمال والباعة ، ويمضى مصعداً حتى يبلغ الطبقة الثانية فلا يكاد يبلغها حتى تجد نفسه المكدودة شيئاً من الراحة يأتية من هذا الهواء الطلق الذى كان يبيع له التنفس بعد أن كاد يختنق فى ذلك السلم القذر ، وتأتيه من صوت تلك البغاء التى كانت تصوت فى غير انقطاع كأنما تشهد الناس جميعاً على ظلم صاحبها الفارسى الذى سجنها فى ذلك القفص البغيض لبيعها غداً أو بعد غد لرجل آخر يسجنها فى قفص بغيض ، حتى إذا تخفف منها وقبض ثمنها نقداً اشترى لها خليفة تقوم فى ذلك السجن مقامها وتدعو فيه دعاءها وتنتظر فيه مثل ما كانت تنتظر صاحبها أن تنقل من يد إلى يد ومن قفص إلى قفص ، وأن ينتقل معها دعاؤها الحزين الذى يتهج الناس به من مكان إلى مكان .

كان صاحبنا إذا بلغ أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه ودعته صوت البغواء إلى أن ينحرف نحو اليمين فيفعل ويمضى في طريق ضيقة فيمر أمام بيتين يسكنهما رجلان من فارس . أحدهما لا يزال شابا والآخر قد تقدمت به السن . فى أحدهما شراسة وغلظة وانتباض عن الناس وفى أحدهما الآخر دعة ورقة وتبسط للناس .

ثم يبلغ الصبي بيته فيدخل إلى غرفة هى أشبه بالدھليز قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت وهى تنتهى به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت . وهى على ذلك غرفة النوم وغرفة الطعام وغرفة الحديث وغرفة السمر وغرفة القراءة والدرس . فيها الكتب وفيها أدوات الشاى ، وفيها بعض رقائق الطعام . وكان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفاً محدوداً كمجلسه من كل غرفة سكنها واختلف إليها .

كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة يمضى خطوة أوخطوتين فيجد حصيراً قد بسط على الأرض القى عليه بساط قديم ولكنه قيم . هنالك يجلس أثناء النهار وهنالك ينام أثناء الليل . تلقى له وسادة يضع عليها رأسه ولحاف يلتف فيه . وكان يحاذى مجلسه

من الغرفة مجلس أخيه الشيخ وهو أرقى من مجلسه قليلا أو كثيراً .
حصير قد بسط على الأرض وألقى عليه بساط لا بأس به ثم ألقى
على البساط فرش آخر من اللبد ثم ألقى من فوق هذا الفراش
حشية طويلة عريضة من القطن ، ثم بسطت من فوقها ملاءة .
على هذه الحشية كان يجلس الفتي الشيخ ويجلس معه أصفياؤه
ولم يكونوا يسندون ظهورهم إلى الحائط كما كان يفعل الصبي وإنما
كانوا يسندونها إلى وسائد قد رصت على الحشية رصاً ؛ فإذا كان
الليل استحال هذا المجلس سريراً ينام عليه الفتي الشيخ .

(٢)

لم يكن الصبي يعرف من بيئته القريبة أكثر من هذا . فاما
الطور الثانى من أطواره فقد كان اضطرابه فى الطريق بين هذه
البيئة وبين الأزهر . وكان يخرج من ذلك المكان المستوف فيجد
حر القهوة على صفحة وجهه من شمال وتبلغ قرقرة الشيشة أذنه
اليمنى فيستقبل حانوتا كان له فى حياته أثر عظيم . حانوت
الحاج فيروز الذى كان يبيع لأهل الحى أكثر ما كانت تقوم
عليه حياتهم من الغذاء . يبيع لهم ألوان الفول المدمس إذا
أصبحوا ، وكان الفول عنده كما هو عند غيره ألوانا مختلفة ولكنه
كان يمتاز باتقانه ويغالى بشمعه ، فقد كان يبيع الفول صرفا
وكان يبيعه بالزيت على اختلاف ألوانه وكان يبيعه بالسمن وكان
يبيعه بالزبد وكان يضيف إليه عند الحاجة فنونا من التوابل
ترغب فيه وتغرى به وتدفع طلاب العلم إلى أن يسرفوا على
أنفسهم إذا طعموا منه . ثم يتقنون بعد ذلك عن درس الضحى
وينامون أثناء درس الظهر .

فاذا أقبل المساء فقد كان الحاج فيروز يبيع لأهل الحى
طعامهم من الجبن والزيتون والطحينة والعسل ، وربما باع للمتفرفين

منهم علب التونة والسردين . وربما باع لبعضهم حين يتقدم الليل أشياء لم تكن تسمى ولم تكن تؤكل وإنما كان يتحدث المتحدثون عنها همساً ويتنافسون فيها تنافساً شديداً .

وكان الصبي يسمع لهذا الهمس فيفهم حيناً ويستغلق الأمر عليه في أكثر الأحيان . حتى إذا مضت الأيام وتبعثها الأيام وشب الصبي وأتيح له أن يفهم عن الملغزين وأصحاب الرمز علم ما علم فتغيرت في نفسه قيم كثير من الأشياء ومعايير كثير من الأحكام وأقدار كثير من الناس .

وكان الحاج فيروز رجلاً أسود فاحماً طويلاً قليل الكلام . فإذا تكلم لم يكذبين وإنما كان يلتوى لسانه بالعربية التواء غريباً ترك في نفس الصبي أثراً لا يمحي . فهو لا يقرأ في البيان والتبيين قصة زياد مع غلامه حين أراد أن يقول له أهدى إلينا حمار وحش فجعل الحاء هاء في الكلمتين . وأنكر زياد عليه ذلك فقال له ويلك قل أهدى إلينا غير . فلما قال الغلام ذلك جعل العين همزة فارتاع زياد وردّه إلى حمار الوحش لا يقرأ هذه القصة إلا ذكر الحاج فيروز . وكان للحاج فيروز في الحى وبين طلاب العلم من أهله خاصة خطر عظيم .

فإليه كانوا يفزعون إذا تقدم الشهر أو تأخر المرتب أو نفذت النقود . يفزعون إليه ليطعمهم نسيئة ، ويفزعون إليه ليقرضهم القرش أو القروش ، ويفزعون إليه في كثير من شؤونهم . ولذلك كان اسمه يدور على ألسنتهم كما كانت تدور عليها أسماء كثير من شيوخهم الأعلام في الأزهر الشريف .

وكان للحاج فيروز خطر عظيم آخر في حياة هؤلاء الطلاب . فباسمه كانت ترسل إليهم الرسائل التي تحمل إليهم أخبار الأسر والتي تحمل إليهم في طياتها أحياناً تلك الورقة الضئيلة التي كانوا يذهبون بها إلى مكتب البريد فيدخلون وجيوبهم خالية ويخرجون والفضة في جيوبهم صليل حسن الوقع في آذانهم وقلوبهم أيضاً .

ومن هنا لم يكن بد لكل واحد منهم من أن يمر بالحاج فيروز ليحييه إذا أصبح وليحييه إذا أمسى ويلقى في أثناء ذلك نظرة سريعة خاطفة إلى ذلك المكان الذي كانت الرسائل تنتظر فيه أصحابها . وما أكثر ما كان أحدهم يعود إلى بيته وفي يده ذلك الغلاف المقل قد أصابه كثير من ضرر الزيت والزبد ، وإن هذا الغلاف على قذارته لآثر عنده من هذه المزمة أو

تلك من هذا الكتاب أو ذاك بين كتب الفقه أو كتب النحو أو كتب الأصول .

كان الصبي إذن يستقبل حانوت الحاج فيروز إذا خرج من ذلك الممر المسقوف وربما خطا مع صاحبه خطوات فحيا الحاج فيروز والتمس عنده رسالة فوجدها أو لم يجدها فانصرف مبتسماً أو عابساً ، واستدار إلى الشمال فمضى أمامه في ذلك الشارع الطويل الضيق المزدهم بالمارة من الطلاب والتجار والباعة والعمال ومجلات الحمل تجرها الحمر أو تجرها الخيول أو تجرها البغال ويصيح بها الحوزية زاجرين حيناً ومتلاحين حيناً آخر ومخاصمين لمن يعترض طريقهم من الرجال والنساء والصبية . وعن يمين هذا الشارع وعن شماله حوانيت مختلفة منها ما يهيأ فيه طعام الفقراء والبائسين . فيحمل الهواء روائح كريهة ولكنها مع ذلك كانت محببة إلى كثير من هؤلاء المارة بين طلاب العلم والعاملين بأيديهم والحاملين على ظهورهم وكواهلهم ، منهم من كان يعطف على هذه الحوانيت فيشتري منها القليل يلتمسه في مكانه التهاماً أو يحمله إلى بيته ليستأثر به أو يشارك فيه ، ومنهم من تبلغه هذه الروائح فتثيرة ولكنه لا يثور وتدعوه ولكنه

لا يجيب ، قد رأت عينه وشم أنفه وتحركت شهوته ولكن
قصرت يده وخانه جيبه فمضى وفى نفسه حاجة وفى قلبه موجدة
وحفيظة وفيه مع ذلك رضى بالقضاء وإذعان للقدر .

ومن هذه الحوانيت ما كانت تدار فيه تجارة هادئة مطمئنة
صامتة لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً . فإن نطقت فانما
تنطق همساً لا يكاد يسمع وتنطقه فى ظرف وأدب وفى رقة
وتلطف وهى على هذا كله بل لهذا كله تغل على أهلها الثراء
الضخم والمال الكثير . وكانت أكثر هذه الحوانيت إنما تدار
فيها تجارة البن والصابون وربما أديرت فى بعضها تجارة السكر
والأرز أيضاً .

وكان الصبي يسعى بين هذا كله يحسه إحساساً قوياً ويجهله
جهلاً شديداً لولا أن صاحبه كان يفسر له بعض ذلك من حين
إلى حين . وما يزال الصبي ماضياً فى طريقه تعتدل مواطئ أقدامه
حيناً وتعوج مرة أخرى وهو يسعى حسن السعى ما اعتدلت له
الطريق ويسعى متعثراً فى أذياله حين تعوج أو تضطرب حتى يبلغ
موضعاً ينحرف فيه قليلاً نحو الشمال ثم يندفع فى طريق ضيقة
أشد الضيق ، ملتوية أشد الالتواء ، قدرة أشد القذارة ، قد

استقر فيها هواء فاسد كل الفساد انعقدت فيه روائح كريهة
منكرة وانبعثت فيه بين حين وحين أصوات نحيلة ضئيلة تصور
البؤس وتبين عن الضر وتلحف في السؤال يبعثها وقع الخطي
كأن أصحابها لا يحسون الحياة إلا بأذانهم فهم يدعونها كلما سمعوها ،
وتجواب فيها أصوات أخرى قصيرة غليظة مختنقة متقطعة
هى أصوات هذه الطير التى تحب الظلمة وتأنس إلى الخلوة
وتألف الخراب . وربما اختلطت هذه الأصوات بخفق الأجنحة
وربما دنا هذا الخفق من أذن الصبي أو من وجهه فأخافه
وأفزعه ، وإذا يده ترتفع فجأة وعلى غير إرادة لتحمى وجهه
أو أذنه وإذا قلبه يخفق خفقا خفيفا متصلا .

وهو يمضى مع صاحبه فى هذه الطريق الضيقة المظلمة الملتوية
يصعد قليلا لينحدر قليلا ويمضى أمامه ليعطف عن يمينه ثم
يمضى أمامه ليعطف عن شماله . وهذه الأصوات المنكرة المختلفة
تدعوه مرة وتشيعه مرة أخرى وتؤذيه دائما حتى يشعر بغد حين
بأن قلبه قد هدا وبأن صدره قد اتسع وبأن طريق التنفس
قد استقامت له فيبعث من جوفه نفسا طويلا كأنه يحمل كلما
استقر فى نفس الصبي من ألوان الذعر والألم والحزن .

ثم يتنفس حرّاً طليقاً كأنما يستنشق الحياة في هذا الهواء
الطلق الذي أخذ يغمره منذ خرج من حارة الوطاويط ومضى
أمامه في تلك الطريق المنحدرة التي لا تعتدل لقدميه ولكنها
لحظات قصيرة ، وهذه الأرض قد استوت لقدميه فهو يسعى معتدلاً
مطمئناً قد تهيأت نفسه لشيء من الفرح والمرح تحملها إليه هذه
الأصوات الغريبة المختلطة التي يسمعها حين يسعى في ذلك الشارع
المهادئ الحلو وعن شماله مسجد سيدنا الحسين وعن يمينه هذه
الحوانيت الصغيرة التي طالما وقف عند بعضها حين تقدمت به
الأيام فذاق من طيباتها ما شاء الله أن يذوق .

ذاق التين المرطب وشرب نقيعه أثناء الصيف ، وذاق
البسبوسة واستمتع بما تبعثه من الحرارة في الأجواف أثناء الشتاء .
وربما وقف عند بعض الباعة من السوريين فذاق ألواناً من
الطعام منها الحار ومنها البارد ومنها الحلو ومنها المالح . كان يجد
في ذوقها لذة لا تقدر ولو قدمت إليه الآن لأشفق أن تحمل
إليه العلة أو تغرى به الموت .

وكان يمضى في طريقه هذه حتى يبلغ مكاناً تختلط فيه
الأصوات وترتفع ويشعر بأن الطريق قد افترت فيه فهو يستطيع

أن يمضى أمامه وأن يمضى عن يمين وأن يمضى عن شمال وأن يعود أدراجه .

وكان صاحبه يقول له هذه هى المفارق الأربعة إن مضيت عن يمينك فإلى السكة الجديدة ثم الموسيقى ثم العتبة الخضراء . وإن مضيت عن شمالك فهى الدراسة ، ولكننا سنمضى أمامنا فنسلك شارع الحلوجى وهو شارع العلم والجد والعمل . ضيق تكاد تبلغ جانبيه إذا مددت يديك عن يمين وشمال . ولكنك تمضى بين حوانيت صغيرة تباع فيها الكتب جديدها وقديمها ، جيدها ورديئها مطبوعها ومخطوطها . وكما كانت للصبي فى ذلك الشارع الضيق وقفات حصبة ممتعة لم ينسها قط حين تقدمت به الأيام واختلفت عليه أطوار الحياة . ولكنه عجل فيجب أن يبلغ صاحبه الأزهر قبل أن يبتدئ الدرس . وها هو ذا قد بلغ باب المزينين نخلع نعليه وخالف بينهما وأخذهما فى يده ومضى مع صاحبه . فلما تقدم قليلا تخطى عتبة قليلة الارتفاع ثم انفرج له صحن الأزهر هادئاً مطمئناً يترقرق فيه نسيم بارد هو نسيم الصباح . وهو الآن فى الطور الثالث من أطوار حياته الأولى .

(٣)

وكان هذا الطور أحب أطوار حياته تلك إليه وآثرها عنده .
كان أحب إليه من طوره ذاك فى غرفته التى كان يشعر فيها
بالغربة شعوراً قاسياً لأنه لا يعرفها ولا يعرف مما اشتملته من
الأثاث والمتاع إلا أقله وأدناه إليه . فهو لا يعيش فيها كما كان
يعيش فى بيته الريفى وفى غرفاته وحجراته تلك التى لم يكن
يجهل منها ومما احتوت عليه شيئاً . وإنما كان يعيش فيها غريباً
عن الناس وغريباً عن الأشياء وضيقاً حتى بذلك الهواء الثقيل
الذى كان يتنفسه فلا يجد فيه راحة ولا حياة ، وإنما يجد فيه
ألماً وثقلاً .

وكان أحب إليه من طوره الثانى فى طريقه تلك بين البيت
والأزهر ، فقد كان فى ذلك الطور مشرداً مفرق النفس مضطرب
الخطى ممتلئ القلب بهذه الحيرة المضلة المبهطة التى تفسد على المرء
أمره وتجعله يتقدم أمامه لا على غير هدى فى طريقه المادية
وحدها فقد كان ذلك محتوماً عليه بل على غير هدى فى طريقه
المعنوية أيضاً ، فقد كان مصروفاً عن نفسه بما يرتفع حوله من

الأصوات وما يضطرب حوله من الحركات . وقد كان مستخذاً في نفسه من اضطراب خطاه وعجزه عن أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهادئة ومشية صاحبه المهتدية العازمة العنيفة .

فأما في طوره الثالث هذا فقد كان يجد راحة وأمناً وطمانينة واستقراراً . كان هذا النسيم الذي يترقق في صحن الأزهر حين تضلي الفجر يتلقى وجهه بالتحية فيملاً قلبه أمناً وأملاً ، وما كان يشبه وقع هذا النسيم على جبهته التي كانت تندى بالعرق من سرعة ما سعى إلا بتلك القبلات التي كانت أمه تضعها على جبهته بين حين وحين أثناء إقامته في الريف حين يقرأها آيات من القرآن أو يمتعها بقصة مما قرأ في الكتب أثناء عبثه في الكتاب أو حين كان يخرج ضعيفاً شاحباً من خلوته تلك التي كان يتوسل فيها إلى الله بعديّة يس ليقضى هذه الحاجة أو تلك من حاجات الأسرة .

كانت تلك القبلات تنعش قلبه وتشيع في نفسه أمناً وأملاً وحناناً ، وكان ذلك النسيم الذي كان يتلقاه في صحن الأزهر يشيع في نفسه هذا كله ويرده إلى الراحة بعد التعب وإلى الهدوء بعد الاضطراب وإلى الابتسام بعد العبوس . ومع ذلك فلم يكن يعلم من أمر الأزهر شيئاً . ولم يكن يعرف مما يحتويه

الأزهر شيئاً ، وإنما كان يكفيهِ أن تمس قدميهِ الحافيتين أرض
هذا الصحن وأن يمس وجهه نسيم هذا الصحن وأن يحس الأزهر
من حوله نأماً يريد أن يستيقظ وهادئاً يريد أن ينشط ليعود إلى
نفسه أو لتعود إليه نفسه . وإذا هو يشعر أنه في وطنه وبين
أهله لا يحس غربة ولا يجد ألماً وإنما هي نفسه تتفتح من جميع
أنحاءها وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى . . . ليتلقى ماذا ؟
ليتلقى شيئاً لم يكن يعرفه ولكنه كان يحبه ويدفع إليه دفعاً ،
طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء هذا الاسم : وهو العلم .
وكان يشعر شعوراً غامضاً ولكنه قوى بأن هذا العلم لا حد له
وبأن الناس قد ينفقون حياتهم كلها ولا يبلغون منه إلا أيسره .
وكان يريد أن ينفق حياته كلها وأن يبلغ من هذا العلم أكثر
ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن في نفسه يسيراً . وكان قد سمع
من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم
أن العلم بحر لا ساحل له ، فلم يأخذ هذا الكلام على أنه
تشبيه أو تجوز ، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق .

وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقي نفسه في هذا
البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقاً .

وأى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتیه
من العلم ويأتیه وهو غرق فى العلم .

كانت هذه الخواطر كلها تثور فى نفسه الناشئة فجأة فتملؤها
وتملكها وتنسبها تلك الغرفة الموحشة وتلك الطريق المضطربة
الملتوية ، بل تنسبها الريف ولذات الريف وتشعرها بأنها لم تكن
مخطئة ولا غالية حين كانت تتحرق شوقاً إلى الأزهر
وضيقاً بالريف .

وكان الصبى يسعى أمامه مع صاحبه حتى يقطع الصحن
ويعصد هذه الدرجة اليسيرة التى يبتدىء بها الأزهر نفسه
فيتملىء قلبه خشوعاً وخضوعاً وتمتلىء نفسه إكباراً وإجلالاً .
ويخفف الخطو على هذه الحصر المبسوطة البالية التى كانت تتفرج
أحياناً عما تحتها من الأرض كأنها تريد أن تتيح لأقدام
الساعين عليها شيئاً من البركة بلمس هذه الأرض المطهرة . وكان
الصبى يحب الأزهر فى هذه اللحظة حين ينفث المصلون من
صلاة الفجر وينصرفون وفى عيونهم آثار النعاس ليتحللوا حول
هذا العمود أو ذاك وينتظروا هذا الأستاذ أو ذاك فيسمعوا منه
درس الحديث أو درس التفسير أو درس الأصول أو درس التوحيد .

كان الأزهر في هذه اللحظة هادئاً لا ينعقد فيه ذلك
الدوى الغريب الذي كان يملأوه منذ تطلع الشمس إلى أن تصلي
العشاء . وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهامس بها أصحابها
وربما سمعت فتى يتلو القرآن في صوت هادئ معتدل ، وربما
مررت إلى جانب مصلى لم يدرك الجماعة أو أدركها ولكنه مضى
في التنفل بعد أن أدى الفريضة . وربما سمعت أستاذاً هنا أو
هناك يبدأ درسه بهذا الصوت الفاتر صوت الذي استيقظ من
نومه فأدى صلاته ولم يطعم بعد شيئاً يبعث في جسمه النشاط
والقوة فهو يقول في صوت هادئ حلو منكسر بعض الشيء
« باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . قال
المؤلف رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه آمين . »

والطلاب يسمعون لهذا الصوت في هدوء وفتور يشبهان هدوء
الشيخ وفتوره ، وما أكثر ما كان الصبي يوازن في نفسه بين
أصوات الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة في درس الفجر ،
وأصواتهم حين ينطقون بها في درس الظهر . فأما أصوات الفجر
فكانت فاترة حلوة فيها بقية من نوم . وأما أصوات الظهر فكانت

قوية غنيمة ممتلئة فيها شيء من كسل أيضاً تصور امتلاء
البطون بما كانت تمتلئ به من طعام الأزهريين في ذلك الوقت
الذي كان الأزهريون يعيشون فيه على الفول والخلل وما يشبه
الفول والخلل من ألوان الطعام .

كان في أصوات الفجر دعاء للمؤلفين يشبه الاستعطاف وكان
في أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدواناً
وكانت هذه الموازنة تعجب الصبي وتثير في نفسه لذة ومتاعاً
وكان يسعى مع صاحبه حتى يرقى هاتين الدرجتين اللتين يبتدىء
بهما الليوان . وهناك إلى جانب عامود من هذه الأعمدة المباركة قد
شد إليه كرسي بسلسلة غليظة يجلسه صاحبه ويقول له : انتظر هنا
فستسمع درساً في الحديث فإذا فرغت من درسي فسأعود إليك .
وكان درس صاحبه في أصول الفقه وكان أستاذ صاحبه
الشيخ راضى رحمه الله . وكان الكتاب الذى يدرسه
الشيخ راضى كتاب التحرير للكمال بن الهمام . وكان الصبي
يسمع هذه الألفاظ كلها فيمتلئ لها قلبه رهباً ورغباً ومهابة
وإجلالاً . أصول الفقه ! ما عسى أن يكون هذا العلم ؟ الشيخ راضى
من عسى أن يكون هذا الشيخ ! التحرير ! ما معنى هذه الكلمة !

الكمال بن الهمام ! ما أعظم هذين الأسمين ! حقاً أن العلم بحر لا ساحل له والخير كل الخير للرجل الذكى أن يغرق فيه .
وكان إجلال الصبي لهذا الدرس خاصة يزداد ويعظم من يوم إلى يوم حين كان يسمع أخاه ورفاقه يطالعون الدرس قبل حضوره فيقرأون كلاماً غريباً ولكنه حاول الموقع في النفس .

كان الصبي يسمعه فيمتحرق شوقاً إلى أن تتقدم به السن ستة أعوام أو سبعة ليستطيع أن يفهمه وأن يحل ألغازه ويفك رموزه ويتصرف فيه كما كان يتصرف فيه أولئك الشبان البارعون ويجادل فيه أساتذته كما كان يجادل فيه أولئك الشبان البارعون ، ولكنه الآن مضطر إلى أن يسمع ولا يفهم . وما كان أكثر ما يقلب في نفسه هذه الجملة أو تلك لعله يجد وراءها شيئاً فلا يظفر بباطل ، ولا يزيده ذلك إلا إكباراً للعلم ، وإجلالاً للعلماء ، وإصغاراً لنفسه ، واستعداداً للعمل والجد .

وقد سمع جملة بعينها شهد الله أنها أرقتة غير ليلة من لياليه ، ونعصت عليه حياته غير يوم من أيامه ، ولعلها أن تكون قد صرفته عن غير درس من دروسه اليسيرة ؛ فقد كان يفهم دروسه الأولى في غير مشقة ، وكان ذلك يغريه بالانصراف عن

حديث الشيخ إلى التفكير في بعض ما سمع من أولئك
الشبان النجباء .

وكانت هذه الجملة التي ملأت نفسه وقلبه غريبة في حقيقة
الأمر ، وقعت على أذنه وهو في أول النوم وآخر اليقظة فردته
إلى اليقظة ليله كله ، وهي و « الحق هدم الهدم . ما معنى هذا
الكلام ؟ كيف يهدم الهدم ؟ وما عسى أن يكون هذا الهدم ؟
وكيف يكون هدم الهدم حقاً ؟ وجعلت هذه الجملة تدور في رأسه
كما يدور هذيان الحمى في رأس المريض ، حتى صرف عنها ذات
يوم بإشكال من إشكالات الكفراوى ، أقبل عليه ففهمه وجادل
فيه ، وأحس أنه بدأ يشرب من ذلك البحر الذي لا ساحل له
وهو بحر العلم .

وكان الصبي يجلس إلى جانب ذلك العمود يعبت بتلك
السلسلة ويسمع للشيخ وهو يلقي دروسه في الحديث فيفهم عنه
في وضوح وجلاء ، ولا ينكر منه إلا تلك الأسماء التي كانت
تساقط على الطلبة يتبع بعضها بعضاً ، تسبقها كلمة حدثنا وتفصل
بينها كلمة عن .

وكان الصبي لا يفهم معنى هذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه العننة المملة ، وكان يتمنى أن تنقطع هذه العننة وأن يصل الشيخ إلى الحديث ، فإذا وصل إليه سمعه الصبي ملتقياً إليه نفسه كلها فحفظه وفهمه وأعرض عن تفسير الشيخ ، لأنه كان يذكره ما كان يسمع في الريف من إمام المسجد ، ومن ذلك الشيخ الذي كان يعلمه أوليات الفقه .

وبينا كان الشيخ يمضي في دروسه كان الأزهر يستيقظ شيئاً فشيئاً كما كانت تنبهه أصوات أولئك الشيوخ الذين كانوا يلقون دروسهم وما كان يثور بينهم وبين طلابهم من حوار يبلغ العنف أحياناً . فهؤلاء الطلاب يقبلون ، وهذه الأصوات ترتفع ، وهذا الدوى ينعقد ، وهؤلاء الشيوخ ترتفع أصواتهم لتبلغ آذان التلاميذ ، بل هؤلاء الشيوخ يضطرون أن ينطقوا بهذه الصيغة التي تؤذن بانتهاء الدرس ، وهي : « والله أعلم » . لأن الطلاب قد أقبلوا ينتظرون درس الفقه من شيخ غير هذا الشيخ ، أو من الشيخ نفسه ، فلا بد من أن ينتهي درس الفجر ليبدأ درس الصباح . هنالك كان يقبل على الصبي صاحبه فيأخذه بيده في غير كلام ويجذبه في غير رفق ، ويمضي به إلى مجلس آخر فيضعه فيه كما يضع المتاع وينصرف عنه .

وقد فهم الصبي أنه قد نقل إلى درس الفقه ، وأنه سيسمع هذا الدرس وسيفرغ منه ، وسينصرف الشيخ ويتفرق الطلاب ، ويبقى هو في مكانه لا يتحول عنه حتى يعود إليه صاحبه من سيدنا الحسين حيث كان يسمع درس الفقه الذي كان يلقيه الشيخ بخيت رحمه الله .

وكان الشيخ بخيت يحب الإطالة في الدرس ، وكان طلابه يلحون عليه في الجدل . فلم يكن يقطع درسه حتى يرتفع الضحى ، وهنالك يعود إلى الصبي صاحبه فيأخذه بيده في غير كلام ، ويجذبه في غير رفق ، ويمضى به حتى يخرج به من الأزهر وحتى يرده إلى طوره الثاني ، فيقطع به الطريق بين الأزهر والبيت ، ثم إلى طوره الثالث فيلقيه في مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم الذي ألقى على حصير بال عتيق .

(٤)

ولم يكن الصبي يفرغ لنفسه إذا أخذ مجلسه على ذلك البساط في ركن من أركان الغرفة ، واعتمد بيده أو بساعده على النافذة عن شماله ، وإنما كان يستعرض تلك الخواطر التي كانت تملأ رأسه . خواطر الطريق وخواطر صحن الأزهر وخواطر ما سمع من أستاذ الحديث وما سمع من أستاذ الفقه . كان يستعرض هذه الخواطر ويعيش معها لحظات لا تطول فإن أخاه لم ينصرف عنه حين ألقاه في مجلسه ذاك ليفرغ لنفسه وحدها ، أو لدرسه وحده ، وإنما انصرف عنه ليعد طعام الافطار .

وكان هذا الافطار يختلف بين يوم ويوم لا في مادته ، فقد كان الفول يغرقه السمن أو يغرقه الزيت . ولكن فيما يحيط به من الظروف والأطوار . فقد كان هذا الافطار صامتاً يوماً وناطقاً مصطنعاً يوماً آخر . صامتاً حين يخلو الصبي إلى أخيه فيفطران معاً إفطاراً سريعاً مظلماً قائماً لا يكاد أحدهما ينطق فيه بشيء ، وإنما هي جمل متقطعة قصار يردها الصبي على الشيخ الفتي . وناطقاً مصطنعاً حين يشارك فيه زملاء الشيخ الفتي . وكانوا ثلاثة

حيناً وأربعة حيناً وربما بلغوا خمسة في بعض الأيام ، ولكن
لخامسهم هذا شأنًا آخر فالخير ألا يذكر الآن .

هنالك كان هؤلاء الشباب من طلاب العلم ينفقون ساعة
حلوة من ساعات حياتهم وكان الصبي يهمل اهمالاً تاماً لا تلقى
إليه جملة ولا يحتاج إلى أن يرجع على أحد جواباً .

وكان ذلك أحب إليه وآثر عنده فقد كان يروقه أن يسمع
وما أكثر ما كان يسمع وما أغرب ما كان يسمع . وما أشد
اختلاف ألوان الأحاديث التي كان يسمعها حول هذه المائدة
المستديرة المنخفضة التي كانوا يسمونها الطبلية والتي كان يجلس
الطاعمون من حولها على الأرض وقد وضع في وسطها طبق
عظيم مليء بالفول والسمن أو الزيت وإلى جانبه إناء عظيم مليء
بالوان الخلل الغارقة في ماء يعب فيه هؤلاء الشباب قبل أن
يأخذوا في طعامهم . يبدأ أحدهم ثم يدار الإناء على سائرهم ولكنه
لا يعرض على الصبي . حتى إذا أخذوا حظهم من هذا الماء
الملح الحاد الذي كان يحرش المعدة فيما يقولون مخلصين ، أقبوا
على طعامهم . وقد أقيمت على المائدة جماعات من الأرغفة منها
ما يشتري ومنها ما أخذ جراية من الأزهر . والشباب يتنافسون

أيهم يقهر أصحابه في الأكل . يقهرهم في عدد ما يلتهم من الأرغفة ويقهرهم في مقدار اللقمة التي يقطعها . ويقهرهم في مقدار ما يعترف فيها من الفول وما يبيلها به من السمن أو الزيت ويقهرهم فيما يستعين به على هذا كله من الفت أو الفلفل أو الخيار . وهم يتنافسون ويزدحمون في أصوات مرتفعة وضحكات تملأ الغرفة وتخترق النافذة عن شمال فتتردد في الحارة من ورائها وتخترق الباب عن يمين فتتردد في الربع وتهبط إلى الطبقة السفلى حيث نساء العمال يختصمن أو يتناجين أو يتناغين فتقطع لهذه الضحكات خصومتهم ومناجاتهن ومناغاتهم . وإذا هن قد فرغن لهذه الأصوات المرتفعة وهذه الضحكات المضطربة التي يحملها إليهن الهواء كأنما يجدن في الاستماع لها والاستمتاع بها لذة لا تعدلها إلا اللذة التي يجدها هؤلاء الشباب فيما يلتهمون ويلتقمون من الطعام .

والصبي جالس بينهم قد أطرق إلى الأرض وحنى ظهره حتى كأنه القوس ويده تذهب وتجيء في أناة وخوف واستحياء بين هذا الرغيف قد ألقى أمامه على المائدة ، وهذا الطبق قد قام بعيداً عنه في وسط المائدة ، ويده تصطدم بهذه الأيدي الكثيرة المسرعة التي تهوى لترتفع وترتفع لتهوى

وتنزع الطبق في أثناء ذلك نزحاً . والصبي معجب بذلك منكراً
له لا يكاد يلائم في نفسه بين هذا التهلك على الفول والخلل
وذلك التهلك على العلم والدرس . وما كانت تعرف به هذه
الجماعة من النجاسة والنشاط وحدة الذكاء .

ولم يكن هذا الإفطار يستغرق من هؤلاء الشباب وقتاً طويلاً .
وإنما هي لحظات لا تتجاوز ربع الساعة وقد فرغ ما كان في الطبق
ونظفت المائدة إلا من فتات ضئيل ومن نصف الرغيف الذي كان
قد ألقى أمام الصبي فلم يستطع أو لم يرد أن يتجاوز نصفه . وما هي إلا
لحظة حتى ترفع المائدة ويذهب بها ذاهب إلى خارج الغرفة فينقيها
مما كان عليها ثم يعود بها إلى مكانها نظيفة ملساء إلا مما كان قد
تقاطر عليها من السمن أو ماء الخل . وقد ذهب أحد هؤلاء الشبان
فاستخرج مقداراً من الفحم ، فحم الخشب ، وأعد أداة الشاي هذه
الأداة التي يصطنعها الفرس والروس ، فأوقد فيها النار بعد أن مלאها
بالماء وعاد بها وقد صفت جذوتها فوضعها من المائدة مكان الطبق
وصف على حافة المائدة أكواب الشاي وأخذ مجلسه ينتظر أن
يغلي الماء وأخذ الشبان يتحدثون حديثاً هادئاً فاتراً يضطرم إلى
هدوئه وفتوره اشتغال بطونهم بما ألقوا فيها من الجامد والسائل ،

ومن البارد والحرار . ولكن ماذا ؟ لقد خفتت الأصوات ، ثم سكنت ،
ثم ملاً الغرفة صمت رهيب ، ثم تردد فيها صوت ضئيل جداً نحيل
جداً متقطع أول الأمر ، متصل بعد ذلك .

وإذا هؤلاء الشبان قد تحركوا حركة الطرب ثم انفتحت أفواههم
في وقت واحد عن كلمة واحدة يقولونها في صوت هادئ متصل مستقر
وهي « الله » يمدون بها أصواتهم مداً كأنما أشاعت الطرب في نفوسهم
موسيقى حلوة تأتيمهم من بعيد . ولا غرابة في ذلك فقد سمعوا أزيز الماء
وهو يدور من حول هذا الموقد الذي تضطرم فيه تلك الجذوة الهادئة
الصفافية . وقد فرغ لأداة الشاي صاحب الشاي فجعل يتبعها بقلبه
وعينه وأذنه حتى إذا استحال أزيز الماء غليانا أخذ أريجاً من
الخزف فقربه من هذه الأداة وأدار مفتاحها في رفق فجري في
الابريق بعض هذا الماء الذي يغلي ويضطرب ، ثم أدار المفتاح
فانقطع جريان الماء ، ثم رد على الابريق غطاءه ثم هزه هزاً رقيقاً
ليبلغ ما فيه من الماء الساخن أجزاء كلها ، ثم قام فالتقى ما في الابريق
بعد تدفئته . فما ينبغي أن يجد الشاي برد الخزف أو برد المعدن لأن
ذلك يفسده . ثم انتظر بهذا الشاي ثواني ثم صب عليه الماء في
رقق دون أن يملأ الابريق إلى غايته ثم انتظر به قليلاً . ثم عمد
(٣)

إلى علبة الشاي الأحمر فأخذ منه مقداراً ووضعه في الإبريق ، ثم صب الماء في الإبريق حتى يمتلئ ثم رفع الإبريق في تلطف ورفق فوضعه على النار ثواني ثم حظه عنها ثم أهاب بأصحابه أن قدموا أكوابكم .

كل ذلك يجري والقوم سكوت ينظرون ويتبعون حركات صاحبهم مراقبين لها حراساً على ألا ينحرف في بعضها عن الجادة . فإذا ملئت الأكواب وأدير فيها الملاعق الصغار ، فسمع لها صوت منسجم لا يخلو من جمال حسن الموقع في الأذن يأتي من هذه المداعبة الخفيفة الهادئة بين المعدن والزجاج ، رفع القوم أكوابهم إلى أفواههم فجروا الشاي منها بشفاهم جرأ طويلاً يسمع له صوت منكر يناقض صوت الملاعق حين كانت تداعب الأكواب ومضوا في شربهم لا يكادون ينطقون إلا بهذه الجملة التي لم تكن تتغير ولم يكن بد من أن ينطق أحدهم بها ويقره عليها الآخرون « هذا هو الذي سيطفئ نار القول » . فإذا فرغوا من هذه الدورة الأولى ملئت لهم الأكواب مرة أخرى وقد أعيد إلى أداة الشاي ما فقدت من ماء ، ولكن القوم ينصرفون الآن إلى شايهم عن هذا الماء المسكين الذي ترسل النار عليه حرارتها فيئن ثم يتغنى شاكياً ثم يجبهش بالغليان باكياً .

ولكن القوم لا يحقلون به ولا يطربون لغناؤه ولا لبكائه قد
 شغلوا عنه بالشأى وبدورته الثانية خاصة . فقد كانت الدورة
 الأولى مطفئة لنار الفول . فأما الدورة الثانية فقد جعلت تخلص
 لهم ولأعصابهم وجعلوا يجدون لها بعض اللذة فى أفواهم وحلقهم
 ورؤسهم أيضاً حتى إذا فرغوا من هذه الدورة ثابوا إلى عقولهم
 أو ثابت عقولهم اليهم . فهذه ألسنتهم تتحرك ، وهذه شفاههم تبتسم
 وهذه أصواتهم ترتفع . ولكنهم لا يتحدثون الآن عن طعام
 ولا عن شراب . لقد نسوا الطعام والشراب وذكروا أنفسهم ،
 لقد فرغوا من بطونهم والتفتوا إلى عقولهم فهم يستعيدون ما سمعوا
 من الشيخ فى درس الفجر ، وهم يستعيدون ما سمعوا من الشيخ
 فى درس الصبح ، وهم يسخرون من هذا مرة ومن ذاك أخرى .
 وهم يعيدون اعتراض أحدهم على هذا الشيخ أو ذاك أو اعتراض
 غيرهم على هذا الشيخ أو ذاك ، وهم يجادلون فى هذا الاعتراض
 يراه بعضهم قوياً مفحماً ويراه بعضهم سخيلاً لا يغنى شيئاً .
 وقد أخذ أحدهم مكان الشيخ المقرر وأخذ أحدهم مكان الطالب
 المعارض وأقام سائرهم حكماً فى هذه المناظرة ، وربما تدخل الحكم
 فى المناظرة بين حين وحين يرد أحد المتناظرين إلى القصد إن

جار عنه أو يؤيد أحد المتناظرين بحجة قد أهملها أو دليل قد ند عنه . وصاحب الشاي مشترك في هذا كله ولكنه في الوقت نفسه ملتفت إلى الشاي لا يهمله ولا ينساه . فقد أضاف إلى الإبريق شاياً على شاي وماء ، على ماء وقد فرغت الأكواب ثم امتلأت . فالشاي لا يتم إلا بالدورة الثالثة لأن نصاب الشاي ثلاثة أقداح لا ينبغي أن ينقص ولا بأس بأن يزيد .

والصبي مطرق منحني في مكان يقدم له نصيبه من الشاي في صمت فيشربه مترقياً في صمت أيضاً وهو يلحظ ما يجري حوله ويسمع ما يقال حوله فيفهم منه قليلاً ويعجزه أكثره عن الفهم ، ولكنه يعجب بما فهم وبما لم يفهم ويسأل نفسه متحرقاً متى يستطيع أن يقول كما يقول هؤلاء الشباب وأن يجادل كما يجادلون .

وقد مضت ساعة أو نحو ساعة ، واستوفى القوم نصيبهم من الشاي ، ولكن المائدة ستبقى حيث هي وستبقى أداة الشاي في وسطها والأكواب مصطفة على حافتها فقد قربت الظهر ولا بد من أن يتفرق القوم ليلقي كل منهم نظرة سريعة على درس الظهر قبل أن يذهبوا لاستماعه وهم قد أعدوه معاً منذ أمس .

ولكن لا بأس من المراجعة السريعة ومن الوقوف عند هذه
القول أو تلك فهي لا تخلو من غموض أو التواء . ومع ذلك
فالمتن واضح والشرح جلي . ولكن البنان يصعب السهل ويعقد
المنحل ، والسيد الجرجاني نافذ البصيرة يستخرج من الأشياء الواضحة
أسراراً غامضة . فأما عبد الحكيم فيفهم حيناً وتلتوى الأمور
عليه أحياناً . فأما المقرر فجاهل لا يدرى ما يقول . ولم يبق
على الظهر إلا دقائق فلنسرع إذن إلى الأزهر فسيدعو المؤذنون
إلى الصلاة ، وستقام الصلاة ، ونحن في الطريق حتى إذا بلغنا
الأزهر كان المصلون قد فرغوا من صلاتهم وأخذ الطلاب
يحللون حول شيوخهم ولا بأس ، إن فالتنا صلاة الجماعة فسنقيم
الصلاة بعد الدرس ، وسنقيمها جماعة أيضاً . والخير ألا تؤدي الصلاة
قبل الدرس فإن النفس تشغل عن العبادة بهذا الدرس وما فيه
من صعوبة ومن مشكلات تحتاج إلى الحل . فإذا ألقى الدرس
وسمعناه وجادلنا فيه وشفينا نفوسنا من مشكلاته ومعضلاته فرغنا
للصلاة فأدينها وقد خلصت لها النفوس والقلوب .

وهذا أخو الصبي يدعوه بهذه الجملة التي ما زال يدعوه بها
أعواماً وأعواماً « يا مولانا » فينهض الصبي مثاقلاً فيمضي

مع أخيه متعتراً حتى يبلغ الأزهر فيجلسه أخوه في مكانه من
حلقة النحو ويمضى هو إلى درس الشيخ الصالحى فى زاوية
العميان .

وقد سمع الصبى درس النحو ففهمه فى غير جهد وطال عليه
إلحاح الشيخ فى الإعادة والتفسير . ثم انتضى الدرس وتفرق
الطلاب وظل الصبى فى مكانه حتى يعود أخوه فيجذبه فى غير
كلام وفى غير رفق ويمضى به حتى يخرجـه من الأزهر وحتى
يقطع به الطريق التى قطعها به فى الصباح والضحى ، وحتى يقلبه
فى مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم قد بسط على
حصير بال عتيق . ومنذ ذلك الوقت يتهماً الصبى لاستقبال حظه
من العذاب .

(٥)

وكانت الوحدة المتصلة مصدر ذلك العذاب . فقد كان الصبي يستقر في مجلسه من الغرفة قبيل العصر بقليل . ثم ينصرف عنه أخوه فيذهب إلى غرفة أخرى من غرفات الربع عند أحد أصحابه .

وكان مجلس الجماعة لا يستقر في غرفة بعينها من غرفاتهم وإنما هو عند أحدهم إذا أصبحوا وعند ثان منهم إذا أمسوا وعند ثالث منهم إذا تقدم الليل . وكان أخو الصبي يتركه في غرفته بعد درس الظهر ويذهب إلى حيث يلقي أصحابه في إحدى الغرفات ، فينفقون وقتاً طويلاً أو قصيراً في شيء من الراحة والدعابة والتندر بالشيوخ والطلاب . وكانت أصواتهم ترتفع وضحكاتهم تدوى في الربع تدوية فتبلغ الصبي وهو جاثم في مكانه فتبتسم لها شفتاه ويحزن لها قلبه لأنه لا يسمع كما كان يسمع في الضحى ما أثارها من فكاهة أو نادرة ولأنه لا يستطيع كما كان يستطيع في الضحى أن يشارك صامتاً بابتسامة نحيلة ضيقة في هذا الضحك الغليظ العريض .

وكان الصبي يعلم أن القوم سيجتمعون حول شاي العصر إذا

أرضوا حاجتهم إلى الراحة وإلى التندر بالشيخ والزملاء وسيستأنفون حول هذا الشاي حديثاً هادئاً منتظماً ، ثم يستعيدون ما يرون أن يستعيدوه من درس الظهر مجادلين مناظرين ، ثم يعيدون درس المساء الذي يلقيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في كتاب دلائل الإعجاز في بعض أيام الأسبوع وفي تفسير القرآن الكريم في بعضها الآخر . وسيتحدثون أثناء اعدادهم لهذا الدرس عن الأستاذ الامام ، وسيستعيدون ما كانوا يسمعون من نوادره وما كانوا يحفظون من رأيه في الشيخ ومن رأى الشيخ فيه ، وما كانوا يحفظون من أجوبته التي كان يلقيها لبعض السائلين له والمعترضين عليه فيفحمهم ويضك منهم زملاءهم الطلاب .

وكان الصبي لهذا كله محبباً وبه كلفاً وإليه مشوقاً متحرقاً . وربما أحس الصبي في دخيلة نفسه الحاجة إلى كوب من أكواب الشاي تلك التي تدار هناك فقد كان هو أيضاً قد كلف بالشاي وشعر بالحاجة إلى أن يشربه مصباحاً وممسياً وإلى أن يستكمل منه النصاب ؛ ولكنه حرم هذا كله . فهؤلاء القوم يتندرون ويتناظرون ويدرسون ويشربون الشاي غير بعيد . وهو لا يستطيع أن يشارك في شيء من هذا ولا يستطيع أن يطلب إلى أخيه الإذن له

بأن يحضر مجلس هؤلاء الشباب ويستمتع بما فيه من لذة العقل والجسم معاً .

لا يستطيع أن يطلب ذلك ، فأبغض شيء إليه أن يطلب إلى أحد شيئاً ، ولو قد طلب ذلك إلى أخيه لرده عنه ردّاً رفيقاً أو عنيفاً ، ولكنه مؤلم له ، مؤذ لنفسه على كل حال . فالتحير في أن يملك على نفسه أمرها ، ويكتم حاجة عقله إلى العلم ، وحاجة أذنه إلى الحديث ، وحاجة جسمه إلى الشاي ، ويظل قابلاً في مجلسه مطرقاً مغرقاً في تفكيره . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد ترك أخوه باب الغرفة مفتوحاً إلى أقصى غايته ، وهذه أصوات القوم تبلغه ، وهذه ضحكاتهم تصل إليه ، وهذه دقات مصمتة تنتهي إليه فتؤذنه بأن صاحب الشاي يحطم الخشب ليوقد النار . وكل هذه الأصوات التي تنتهي إليه تثير في نفسه من الرغبة والرغبة ، ومن الأمل واليأس ، ما يعنيه ويضنيه ، ويملاً قلبه بؤساً وحزناً . ويزيد في بؤسه وحزنه أنه لا يستطيع حتى أن يتحرك من مجلسه ، وأن يخطو هذه الخطوات القليلة التي تمكنه من أن يبلغ باب الغرفة ويقف أمامه حيث يكون أدنى إلى هذه الأصوات ، وأجدر أن

يسمع ما تحمله مما يتحدث به القوم . لقد كان ذلك خليقاً أن يسره ويسليه ، ولكنه لا يستطيع أن ينتقل من مكانه ، لا لأنه يجهل الطريق إلى الباب ، فقد كان حفظ هذه الطريق ، وكان يستطيع أن يقطعها متمهلاً مستأنياً ، ولكن لأنه كان يستحي أن يفجأ أحد من المارة فيراه وهو يسعى متمهلاً مضطرب الخطى . وكان يشفق أن يفجأ أخوه الذي كان يلم بالغرفة من حين إلى حين ليأخذ كتاباً أو أداة أو لوناً من ألوان الطعام التي كانت تدخر ليتبلغ بها أثناء الشاي في غير أوقات الإفطار أو العشاء .

وكان كل شيء أهون على الصبي من أن يفجأ أخوه وهو يسعى مضطرباً حائراً ، فيسأله ما خطبك ! وإلى أين تريد ! فكان إذن يرى الخير كل الخير في أن يبقى في مكانه ويؤثر العافية ويردد في نفسه تلك الحشرات اللاذعة التي كان يجدها وحشرات أخرى لم تكن أقل منها لذعاً وإيلاماً ، حشرات الحنين إلى منزله ذاك في قريته تلك من قرى الريف .

هنالك حين كان يعود من الكتاب وقد أَرْضَى حاجته إلى اللعب فيتبلغ بكسرة من الخبز الجفف مازحاً مع أخواته قاصاً

على أمه ما أحب أن يقص عليها من أنباء يومه في الكتاب ،
فإذا بلغ من ذلك ما أراد خرج من الدار فأغلق الباب وراءه
ثم مضى حتى يبلغ جدران البيت الذي كان يقوم أمامه فلزمه
ماضياً نحو الجنوب حتى إذا بلغ مكاناً بعينه انحرف إلى يمين ،
ثم مضى أمامه خطوات حتى ينتهي إلى حانوت الشيخ محمد
عبد الواحد وأخيه الشاب الحاج محمود . فجلس هناك متحدثاً
متندراً مستمعاً لما كان يقوله المشترون من الرجال والمشتريات
من النساء من هذه الأحاديث الريفية الساذجة التي تمتع
باختلافها وطرافتها وسذاجتها أيضاً .

وربما قل الطارئون على الحانوت من المشتريين والمشتريات
نخلاً للصبي أحد صاحبي الحانوت وجعل يتحدث إليه أو يقرأ له
في كتاب من الكتب . وربما عدل الصبي عن السعي إلى الحانوت
وخرج من داره فجلس على المصطبة الملاصقة لها مطرقاً يسمع حديث
أبيه الشيخ مع أصحابه في مجلسهم ذاك الذي كانوا يعقدونه منذ
تصلى العصر إلى أن يدعوهم مؤذن المغرب إلى العشاء .

وربما عدل الصبي عن الخروج من داره وخلا إلى رفيق
من رفاقه في الكتاب قد أقبل عليه ومعه هذا الكتاب أو

ذاك من كتب الوعظ وهذه القصة أو تلك من قصص المغازى
فجعل يقرأ له حتى يدعو غروب الشمس إلى العشاء . هنالك
لم يكن الصبي يشعر بالوحدة ولم يكن يضطر إلى السكون ولم
يكن يجد ألم الجوع ولم يكن يجد ألم الحرمان ولم يكن يتحرق
إلى كوب من أكواب الشاي .

كانت كل هذه الحشرات تضرب في نفس الصبي أشد
الاضطراب وهو ساكن أشد السكون وربما صرفه عنها لحظة صوت
المؤذن حين كان يدعو إلى صلاة العصر في جامع بيرس ، ولكنه كان
صوتاً منكراً أشد النكر فكان يذكر الصبي بصوت المؤذن في بلده
ولم يكن خيراً من هذا الصوت ولكنه كثيراً ما أتاح للصبي ألواناً
من اللهو واللعب . فكم صعد المنارة مع المؤذن وكم أذن مكانه
وكم شاركه في هذا الدعاء الذي يدعى به بعد الأذان . ولكنه
هنا في هذه الغرفة لا يستحب هذا الصوت ولا يستطيع أن
يشارك في الأذان ولا يعرف حتى من أين يأتي هذا الصوت ، وهو
لم يدخل قط مسجد بيرس ، وهو لا يعرف الطريق إلى مؤذنته
وهو لم يبلُ درج هذه المؤذنة ، ولم يعرف أتستقيم للمصعد فيها
وتتسع له أم تلتوى به وتضيق عليه كشأن مؤذنته في الريف .

لا يعرف شيئاً من ذلك ولا سبيل إلى أن يعرف منه شيئاً
إنما هو السكون والسكون المتصل الطويل . يا للألم ! إن العلم
ليكلف طلابه أهوالاً ثقالاً .

وكان هذا السكون يطول على الصبي فيجهد ، وربما أخذته
اغفاءة وهو جالس في مكانه ، وربما اشتدت عليه هذه الاغفاءة
فاضطرته إلى أن يستلقي ويسلم نفسه إلى النوم . وكان يسمع
من أمه أن نوم العصر بغيض مؤذ للأجسام والنفوس ولكن
كيف السبيل إلى أن يرد عن نفسه هذا النوم البغيض .
ولكنه يهب فزعاً مذعوراً فقد سمع صوتاً يدعو بهذه الكلمة
التي رنت في آذانه أعوماً وأعوماً « مولانا أنا نائم أنت » يهب
فزعاً مذعوراً لأن أخاه أقبل ينظر إليه ويسأله عن شأنه ويحمل إليه
عشاءه . وكان عشاؤه لذيذاً حقاً فقد كان يتألف من رغيف وقطعة
من الجبن ، الذي يسمى الجبن الرومي أو قطعة من الحلاوة الطحينية .
كان هذا عشاءه أثناء الأسبوع فكان أخوه يضع ذلك أمامه ويودعه
منصرفاً عنه ليذهب إلى الأزهر فيحضر درس الأستاذ الإمام .
وكان الصبي يقبل على طعامه راغباً عنه حيناً وراغباً فيه حيناً
آخر ، ولكنه كان يستنفده على كل حال . كان يبيح لنفسه

الإقلال من الطعام إذا أكل مع أخيه ولم يكن أخوه يكلمه في ذلك أو يسأله عنه . فأما إذا خلا إلى طعامه فقد كان يأتي عليه كله حتى ولو رغب عنه أو ضاق به مخافة أن يبقى منه شيئاً ، ويعود أخوه ويرى ذلك فيظن به المرض أو يظن به الحزن . وكان أبغض شيء إليه أن يسير في نفس أخيه هماً أو قلقاً .

كان إذا يقبل على طعامه حتى إذا فرغ منه عاد إلى سكونه وجموده في ركنه الذي اضطر إليه وقد أخذ النهار يتصرم وأخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين . ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة فيعرف الصبي أن الليل قد أقبل ، ويقدر في نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه ، ويقدر في نفسه أن لو كان معه في الغرفة بعض المبصرين لأضىء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة ، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون وإن كان ليبراهم مخطئين في هذا الظن . فقد كان ذلك الوقت يفرق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور . وكان يجد في المصباح إذا أضىء جليساً له ومؤنساً ، وكان يجد في الظلمة وحشة لعلها

كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب . والغريب
انه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه ، صوتاً متصلاً يشبه طنين
البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ ، وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه
فيؤذيهما ، ويبلغ قلبه فيملأه روعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يغير
جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه وينحني رأسه
بين يديه ، ويسلم نفسه لهذا الصوت الذى يأخذه من كل مكان .
ومع أن سكون العصر كان كثيراً ما يضطره إلى النوم فقد كان
سكون العشية يضطره إلى اليقظة التى لا تشبهها يقظة .

وقد كان ينتهى إلى أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه ،
ولكن فى الغرفة أصواتاً أخرى كانت تفرعه وتروعه ، أصوات
مختلفة . فقد كانت هذه الغرفة من غرفات الأوقاف ، ومعنى
ذلك أنها كانت قديمة ، قد طال عليها العهد ، وبعد بها الأمد ،
وكثر فى جدرانها الشقوق وعمرت هذه الشقوق طوائف من
الحشرات وغيرها من صغار الحيوان . وكانت هذه الحشرات
وهذه الصغار من الحيوان كأنما وكلت بالصبي إذا أقبل الليل عليه
وهو قابع وحده فى ذلك الركن من أركان الغرفة ، فهى تبعث
من الأصوات الضئيلة ، وتأتى من الحركات الخفيفة السريعة حيناً

والبطيئة حيناً آخر ما يملأ قلب الصبي هلعاً ورعباً . فإذا أقبل أخوه وحده أو مع أصحابه فأضىء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات كأنها لم تكن ، وكان الصبي من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى غير هذا لا يجرأ على أن يذكر من أمر هذه الأصوات والحركات شيئاً ، وأيسر ما كان يخاف إن تحدث ببعض ذلك أن يسفه رأيه وأن تظن بعقله وبشجاعته الظنون ، فكان يؤثر العافية ويكظم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان .

وهذا المؤذن يدعو إلى صلاة العشاء فيثير في نفس الصبي أملاً قصيراً يتبعه بأس طويل . فقد انتهى درس الأستاذ الامام ، وسيقبل أخو الصبي بعد قليل فيضئ المصباح ويضع محفظته في مكانها ويأخذ ما يحتاج اليه من كتاب أو أداة أو طعام ويشيع في الغرفة أثناء ذلك شيئاً من الأنس ، ويطرد عن الغرفة أثناء ذلك تلك الوحدة المنكرة . ولكنه سيلقى إلى الصبي تلك الوسادة التي سيضع عليها رأسه وذلك اللحاف الذي سيلتف فيه لينام ، وسيشهد التفافه في لحافه ووضع رأسه على وسادته ، ثم يطفىء المصباح وينصرف ويغلق الباب من ورائه ويدير فيه المفتاح ويمضى وقد ظن أنه أسلم الصبي إلى النوم وإن كان لم يسلمه إلا إلى أرق متصل بخيف .

وسيعود بعد ساعتين أو بعد ساعات وقد طعم وشرب الشاي
وناظر أصحابه وأعد معهم ما شاء الله أن يعد من درس للغد
فيدير المفتاح ثم يضىء المصباح ، وهو يظن أن الصبي مغرق في
نوم هادئ لذيد وما ذاق الصبي في حقيقة الأمر نوماً وإنما انتظر
جزعاً فزعاً عودة أخيه .

فإذا استلقى أخوه على فراشه بعد أن أطفأ مصباحه وأخذ
تنفسه المضطرب أو المنتظم يدل على أنه قد نام فقد أخذ الصبي
يحس الأمن والدعة ويدير في نفسه خواطر الأمن الوادع وتفكير
المهادئ المطمئن .

وهناك تتصل يقظته الآمنة بنومه اللذيد دون أن يشعر بهذا
الاتصال .

(٦)

ولكن صوتين غريبين يردانه فجأة إلى يقظة فزعة ، أحدهما صوت عصا غليظة تضرب الأرض ضرباً عنيفاً ، والآخر صوت إنسانى متهدج مضطرب لا هو بالغليظ ولا بالنعيف ، يذكر الله ويسبح بحمده ويمد ذكره وتسبيحه مداً طويلاً غريباً . وقد سكن كل شيء وشمل هدوء الليل كل شيء وجعل هذا الصوت الإنسانى ينبعث بين حين وحين متهدجاً مرجعاً تقطعه ضربات العصا على الأرض وهو يبدو قوياً فيذيع فى الليل الهادئ شيئاً يشبه الاضطراب ثم يدنو قليلاً قليلاً حتى يكاد يبلغ غرفة الصبي ، ثم ينحرف ويضعف شيئاً حتى يكاد ينقطع ، ثم يبدو مرة أخرى قوياً متصلاً بعد أن هبط صاحبه سلم الربع واستقامت له طريقه فى الحارة ، ثم يبعد شيئاً فشيئاً حتى ينقطع .

وقد ارتاع الصبي لهذا الصوت أو لهذين الصوتين حين سمعهما لأول مرة وأتعب نفسه فى التفكير فيهما والبحث عن مصدرهما . ولكنه لم يظفر من بحشه بطائل إلا أنه فقد النوم وأتم ليله مؤرقاً مروعاً حتى رد الأمن والطأنينة إلى قلبه صوت المؤذن

وهو ينادى « الصلاة خير من النوم » . فهب الصبي مترقفا وهب أخوه عنيفا عجلا وما هي إلا دقائق حتى كانا يهبطان السلم ويجدان في طريقهما إلى الأزهر ليسمع أحدهما درس الأصول وليسمع الآخر درس الحديث .

وجعل هذان الصوتان يوقظان الصبي كل يوم في أول الثلث الأخير من الليل ، وجعل الصبي يراعى لهذين الصوتين ولا يعرف لهما مصدراً ولا يجراً على أن يسأل أخاه أو غير أخيه عنهما حتى كانت ليلة الجمعة فأيقظه الصوتان وروعه كدأبهما في كل ليلة ، ورد المؤذن إليه الأمن والهدوء كدأبه في كل صباح ، ولكن الصبي لم يهب مترقفا ولكن أخاه لم يهب عجلا عنيفا فليس في فجر الجمعة ولا في صباحه دروس وليس الشيخ الفتى ولا الشيخ الصبي في حاجة إلى أن يقطعا نومهما . فأما نوم الصبي فقد قطعه هذان الصوتان ، وأما أخوه فلم يسمعهما هذه الليلة كما لم يسمعهما من قبل . ولبت الصبي في فراشه ضيقا بهذا السكون عاجزاً عن الحركة مشفقاً أن يوقظ أخاه حتى صليت الفجر وانتشر ضوء الشمس ونفذت أشعتها إلى الغرفة فاترة ، وإذا الصبي يسمع هذين الصوتين مرة أخرى ولكنه يسمعهما هادئين رفيقين . فأما العصا فتداعب الأرض

مداعبة يسيرة وأما الصوت فيصافح الهواء مصافحة حلوة لا تخلو من فتور . والصبي يعجب لهذين الصوتين اللذين يعنفان حين يسكن الليل وينام الناس ويحسن الرفق ، واللذين يرقان ويلطفان حين ينشط النهار ويستيقظ الناس ويتاح للاصوات أن ترتفع وأن تأخذ حظها من الحرية والنشاط . وهو مع ذلك مضطر إلى سكونه مشفق إن تحرك أن ينبه أخاه حتى تشتد حرارة الشمس على رأسه فيستوى جالسا في أناة ويتزحزح من مكانه في رفق حتى يبلغ مكانا لا تلفحه حرارة الشمس فيستقر فيه دون أن يتحرك .

وهو بهذا ضيق ، وله كاره ، وعليه مكروه ، وأخوه مغرق في نومه لا يفيق ، ولكن الباب يطرق طرقا عنيفا وصوت من ورائه ينادى مرتفعا ساخطا صاخبا « هلم يا هؤلاء ، هلم يا بهائم ، أفيقوا إلى متى تنامون ، أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ، طلاب علم ينامون حتى يرتفع الضحى لا يؤدون الصلاة لوقتها ، هلم يا هؤلاء ، هلم يا بهائم ، أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال » .

ويد هذا الصوت تقرر الباب وعصاه تقرر الأرض ، ومن حوله

ضحكات ترافقه . وقد هب الشيخ الفتى لأول نبأه ولكنه ظل في مكانه ساكناً ثابتاً يغرق في ضحك مكثوم مكثوم كأنه يستحب ما يسمع ويستزيد منه ويريد أن يتصل . فأما الصبي فقد عرف هذا الصوت وعرف هذه العصي . إنه الصوت الذي كان يضطرب في الليل ، وإنها العصا التي كانت تقزع الأرض لتوقظها من نومها . من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وما عسى أن تكون عصاه ؟ وما هذا الضحك الذي يتبعه ! وقد نهض الفتى جاهراً يضحك فسعى إلى الباب ففتحه ، واندفع منه هذا الرجل صاخبا « أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ، اللهم اصرف عنا الأذى . أعذنا من الشيطان الرجيم ، أناس أئتم أم بهائم ، أمسلمون أئتم أم كفار ، أتعلمون على شيوخكم هدى أم ضلالا . »

وقد اندفع معه الشباب من أصحاب الفتى وهم يجأرون بالضحك ويغرقون فيه ، وهنالك عرف الصبي هذا الرجل ، وهو عم الحاج علي . وكان عم الحاج علي رجلاً شيخاً قد تقدمت به السن حتى جاوز السبعين ولكنه احتفظ بقوته كلها . احتفظ بقوته عقله فهو ماكر ماهر ظريف لبق ، واحتفظ بقوته جسمه فهو معتدل القامة ، شديد النشاط ، متين البنية ، عنيف إذا تحرك ، عنيف إذا

تكلم ، لا يعرف الهمس ، ولا يحسن أن يخافت بصوته ، وإنما هو صائح دائماً . وكان عم الحاج على فيما مضى من دهره — كما علم الصبي فيما بعد — رجلاً تاجراً قد ولد في الإسكندرية وشب فيها ، واحتفظ بما لأهل الإسكندرية من قوة وعنف ، ومن صراحة وظرف . وكان يتجبر في الأرز ، ومن أجل ذلك سمى عم الحاج على الرزاز . فلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت التجارة عنه ، وكان له بيت في القاهرة يغل عليه شيئاً من مال ، فاتخذ لنفسه غرفة في هذا الربع الذي لم يكن يسكنه من غير المجاورين إلا هذا الرجل وهذان الفارسيان اللذان ذكرا في بعض هذا الحديث .

ولم يكد عم الحاج على يستقر في غرفته تلك في آخر الربع عن شمال إذا صعدت السلم حتى لفت إليه هؤلاء الشباب من طلاب العلم أضحكهم وراقوه ، فاتصلت بينه وبينهم مودة حلوة متينة نقية ، فيها ظرف كثير ، وفيها رقة وتحفظ يؤثران في القلوب حقاً .

فقد كان هذا الشيخ يعرف من هؤلاء الشباب جهم للعلم ، وجدهم في الدرس ، وصدوفهم عن العبث ، وكان يحب منهم

ذلك . فإذا بدأ أسبوع العمل لم يسع إليهم ، ولم يعرضوا حتى كأنه لا يعرفهم إلا أن يسعوا هم إليه ، أو يلحوا هم عليه في أن يشهد معهم طعاماً أو يشاركهم في الشاي . فإذا كان يوم الجمعة لم يملأهم ، ولم يخل بينهم وبين أنفسهم ، وإنما انتظر بهم حتى يتقدم النهار ، وحتى يعلم أنهم قد أرضوا نفوسهم من النوم والراحة . هنالك يخرج من غرفته فيبدأ بأقرب غرف هؤلاء الشباب إليه فيوقظ صاحبها في هذا العنف والضجيج الذين رأيتهما ، ثم ينتقل إلى الغرفة التي تليها ومعه صاحبه الذي أيقظه ، وما يزال كذلك حتى يبلغ غرفة أخى الصبي فيوقظه على هذا النحو . والشباب من حوله فرحون مرحون ، يستقبلون يوم راحتهم مبتهجين ، قد ابتسموا للحياة وابتسمت لهم الحياة .

وإلى هذا الشيخ كان تدبير طعامهم ولهوهم البريء في يوم الجمعة ، فهو الذي يقترح عليهم طعام الإفطار وقد يعدده لهم في غرفته أو في غرفة أحدهم ، وهو الذي يقترح عليهم طعام العشاء ويشير عليهم بما ينبغي أن يصنعوا لإعدادهم ويشرف على هذا الإعداد ويقوم منه ما يمكن أن يعوج ، يصحبهم صباحهم ، ثم يفارقهم ليصلى الجمعة ثم يصحبهم حتى إذا وجبت العصر

فارقهم لحظة ثم يعود إليهم فيشاركونهم في عشاءهم وفيما يكون بعده من الشأى ، ثم إذا وجبت المغرب أمهم في صلاتهم ، فإذا وجبت العشاء فارقهم ليعودوا الدروس التي سيسمعونها من الغد .

وكان عم الحاج على يتكلف التقوى والورع ، ويظهر ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس تكلفهم وتصنعهم . يبدأ بهذه الغزوة التي يجدها في الثلث الأخير من كل ليلة ، فيخرج من غرفته صاخباً صائحاً بذكر الله ، والتسبيح بحمده ، ضارباً الأرض بعصاه حتى يبلغ مسجد سيدنا الحسين . فيقرأ فيه ورد سحر ، ويشهد فيه صلاة الفجر ، ثم يعود متمتماً مهممًا مداعباً الأرض بعصاه فيستريح في غرفته . فإذا وجبت الصلوات أداها في غرفته وقد فتح بابها وجهر بالقراءة والتكبير ليسمعه أهل الربع جميعاً . فإذا خلا إلى أصحابه الشباب على طعامهم أو على شايهم أو في بعض سمرهم ، فهو أسرع الناس خاطراً ، وأظرفهم نكتة ، وأطولهم لساناً ، وأخفهم دعابة ، وأشدهم تتبعاً لعيوب الناس ، وأعظمهم إغراقاً في الغيبة ، لا يتحفظ في لفظ ، ولا يتحرج من كلمة نابية ، ولا يتردد في أن يجري على لسانه المنطلق دائماً وبصوته المرتفع دائماً أشنع الألفاظ ، وأشدّها إغراقاً في البذاء ، وأدّها على أبشع المعاني وأقبح الصور .

وكان أولئك الشباب يحبونه على ذلك ، أو يحبونه من أجل ذلك ، أو قل إنهم كانوا يحبون ذلك منه أشد الحب ، ويكلفون به أعظم الجُلف ، كأنه كان يخرجهم من أطوارهم ، ويريحهم من جد العلم والدرس ، ويفتح لهم باباً من اللهو ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يخلون إلى أنفسهم ، بل ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يلتفون حول هذا الرجل الشيخ ، وحين كان يصب عليهم هراءه هذا بغير حساب . كانوا يسمعون ذلك منه ويضحكون له حتى إن جنوبهم لتكاد تنقذ من الضحك ، ولكنهم على ذلك لم يكونوا يعيدون على الشيخ كلمة من كلماته البذيئة أو لفظاً من ألفاظه النابية ، كأنما كانوا يرون شيئاً يعجبهم ويلهم فيستمعون به من بعيد ولا يبيحون لأنفسهم أو لا تبيح لهم ظروفهم أن يدنوا منه أو يسعوا إليه .

ولم يكن ذلك يدل على أقل من هذه الصفة الغريبة الخليقة بالإعجاب والرحمة معاً والتي كان هؤلاء الشبان يمتازون بها من كثير من زملائهم وأقرانهم وهي كظم الشهوات وأخذ النفس بألوان من الشدة تمكنهم من المضي في الدرس على وجهه وتردهم عن التورط فيما كان كثير من زملائهم يتورطون فيه

من هذا العبث السهل الذى يفهل الحد ويفتر العزائم ويفسد الأخلاق . وكان الصبي يسمع لهذا كله فيفهم ويحفظ ويعجب ويسأل نفسه كيف يجتمع طلب العلم وما يحتاج إليه من الجد مع هذا التهالك على المزل والتساقط على السخف فى غير تحفظ ولا احتياط . وكان يعاهد نفسه على أنه إذا شب وبلغ طور هؤلاء الطلاب الذين يكبرهم ويقدر ذكاءهم فلن يسير سيرتهم ولن يتهالك على العبث كما يتهالكون عليه .

وكان يوم الجمعة يوم البطون فى حياة هؤلاء الطلاب وفى حياة صديقهم الشيخ . فكانوا إذا أصبحوا اجتمعوا إلى إفطار غزير رسم صاحب قوامه القول والبيض ثم الشاى ، وما كانوا قد ادخروا من هذه الفطائر الجافة التى كانت أمهاتهم يزودنهم بها ويضعن فى صنعها وفى تعبئتها قلوبهن الساذجة وما يملؤها من حب وعطف وحنان . وكم ذكر الصبي جهد أبيه فى كسب ما لم يكن بد من كسبه من النقد لتستطيع أمه أن تهيب لابنيها زادها وجد أمه فى صنع هذا الذاد وتكلفها الفرح وهى تهيبه ، وحننها الصامت وهى تعبئه ودموعها المنهمرة وهى تسلم أحماله إلى من سيذهب به إلى القطار .

كم ذكر الصبي هذا كله حين كان هؤلاء الشباب يلتمهون
هذا الزاد التهاماً يغمسونه في الشاي كما كان يوصيهم الشيخ أو
يقضونه بأسنانهم وأضراسهم قضا . ثم يعبون في أكواب
الشاي ليلوه في أفواههم ولتسيغه حلوهم بعد ذلك سهلاً هيناً ،
وهم في أثناء ذلك يتضحكون من دعابة الشيخ وفكاهته
لا يذكرون آباءهم وما جدوا ولا يذكرون أمهاتهم وما احتملن
من كد وما ذرفن من دموع .

وكان الشيخ وأصدقاؤه الطلاب يدبرون عشاءهم أثناء الدورة
الثانية والثالثة من الشاي الذي يقبلون عليه بعد الافطار ، وكان
تدبيرهم لهذا العشاء يقبض نفس الصبي ويملؤها خجلاً ، قلما فكر
فيه بعد أن تقدمت به السن وجد لذكراه حناناً وإعجاباً .
كانوا يتداولون ويتشاورون ، ولم يكن ميدان مداولاتهم ومشاوراتهم
واسعاً ولا عريضاً . وإنما هما لوانان من الوان الطعام لم يشدوا
عنهما قط . فإما البطاطس في خليط من اللحم والطاطم والبصل ،
وإما القرع في خليط من اللحم والطاطم والبصل وشيء من
الحمص . وكانوا يتفقون على أقدار ما يشترون من هذه الأصناف
كلها ، ثم يقدرون ثمن ما سيشترون ، ثم يخرج كل منهم حصته

من هذا الثمن إلا الشيخ فكانوا يخرجونه من هذه الغرامة .
 فإذا اجتمع لهم ما يحتاجون إليه من نقد ، ذهب أحدهم فاشترى
 لهم طعامهم ، فإذا عاد بما اشترى نهض أحدهم إلى موقده فأوقد
 فيه ناره من هذا الفحم البلدى حتى إذا صفت جذوته أقبل
 على الطعام يهيئه وأصحابه ينظرون إليه مجتمعين أو متفرقين ،
 والشيخ يلقي إليه نصائح بين حين وحين حتى إذا تم له من
 تهيئة الطعام ما أراد خلى بينه وبين هذه النار تنضجه على مهل
 واجتمع القوم إلى صديقهم الشيخ يعبثون ، أو إلى أنفسهم يدرسون
 وطاهيهم يخطف نفسه بين حين وحين ليلقى نظرة على هذا الطعام
 مخافة أن يحترق أو يفسد ويلقى عليه بين حين وحين قطرات
 من ماء . وكلهم يتنسم هذه الرائحة الزكية التى تبعثها النار من
 هذا الطعام كلما تقدمت به إلى الإنضاج ، وكلهم يجد فى تنسم هذه
 الرائحة مقدمة لذيدة لعشاء لذيد . ومن المحقق أنهم لم يكونوا
 وحدهم يصطنعون هذا الطعام وإنما كان لهم فى الربع زملاء
 يصطنعون مثله ويتنسمون رائحته مثله . ومن المحقق أيضاً أن قد
 كان لهم فى الربع زملاء تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يصنعوا
 لأنفسهم من الطعام مثل ما كانوا يصنعون . ومن المحقق أيضاً أن

هؤلاء العمال الذين كانوا يسكنون الطبقة السفلى من الربع كانت تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يظرفوا أنفسهم وأبنائهم ونسائهم بمثل هذا الطعام . وأكبر الظن أنهم كانوا يجدون من نسائهم لهذا الحرمان همًا ثقيلاً . وأكبر الظن أن هؤلاء المحرومين من الطلاب والعمال كانوا يجدون في هذه الروائح التي كانت تملأ الربع يوم الجمعة لذة مؤلمة أو ألماً لذيذاً .

وكانت نار هذا الفحم البلدى بطيئة طويلة البال فكان ذلك يطيل لذة قوم ويمد ألم آخرين حتى إذا صليت العصر ودعيت الشمس إلى الغروب كان الطعام قد نضج ، فاجتمع القوم حول مائدتهم وأقبلوا على طعامهم في نشاط يشبه الجدد الهازل أو الهزل الجاد . كلهم حريص على أن يستوفي حظه من هذا الطعام ، وكلهم يراقب أصحابه أن يسبقوه أو يشتطوا عليه ، وكلهم يستحي أن يظهر هذا الحرص أو يبدي هذه المراقبة . ولكن الشيخ معهم . فصراحتهم تغني عن صراحتهم وهزله يفضح ما أسروا من الجدد فهو يراقبهم جميعاً وهو يقسم الطعام بينهم بالعدل . وهو يصد أحدهم إن هم أن يجور على أصحابه لا يخفى ذلك ولا يتحفظ فيه وإنما يعلنه صاحباً كعادته منبهاً هذا إلى أنه يخدع نفسه عن قطعة البطاطس بقطة

اللحم ومنبهاً ذاك إلى أنه يسرف على نفسه وعلى أصحابه بما يغترف في لقمته الغليظة من جامد الطعام أو سائله مرسلاً ألفاظه إلى هذا وذاك في هزل يخف على أسماعهم ويحسن موقعه من نفوسهم ويضحكهم ولا يؤذيهم فيما ينبغي لهم من الحياء .

والصبي في أثناء هذه المعركة الضاحكة خجل وجل ، مضطرب النفس مضطرب حركة اليد ، لا يحسن أن يقطع لقمته ولا يحسن أن يغمسها في الطبق ولا يحسن أن يبلغ بها فمه . يخيل إلى نفسه أن عيون القوم جميعاً تلحظه وأن عين الشيخ خاصة ترمقه في خفية . فيزيده هذا اضطراباً وإذا يده ترتعش وإذا بالمرق يتقاطر على ثوبه ، وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه ، وأكبر الظن بل الحق أن القوم كانوا في شغل عنه بأنفسهم . وآية ذلك أنهم يفكرون فيه ويلتفتون إليه ويحرضونه على أن يأكل ويقدمون إليه ما لا تبلغه يده ، فلا يزيده ذلك إلا اضطراباً واختلاطاً ، وإذا هذه المعركة الضاحكة مصدر ألم لنفسه وحزن لقلبه وكانت خليقة أن تسره وأن تضحكه ، ولكنها إن آذته أثناء الطعام فقد كانت تسره وتسليه وتضطره أحياناً إلى أن يضحك

وحده إذا خلا إلى نفسه بعد أن يشرب الجماعة شايهم وينتقلوا إلى حيث يدرسون أو يسمرون .

وكذلك أنفق هؤلاء الشباب أعواماً طويلة مع هذا الشيخ ، وشب الصبي في هذه الحياة الضاحكة بفضل الشيخ على رغم ما كان يعترض طريقها من أسباب الحزن والألم والأسى .

ثم تفرقت الجماعة وذهب كل من هؤلاء الشباب لوجهه وتركوا الربع واستقروا في أطراف متباعدة من المدينة ، وقلت زيارتهم للشيخ ، ثم انقطعت ، ثم تناسوه ثم نسوه .

وفي ذات يوم حمل إلى أفراد هذه الجماعة نعي الشيخ فحزنت قلوبهم ولم يبلغ الحزن عيونهم ، ولم يرسم آياته على وجوههم وأخبر الخبر الصادق أن آخر كلمة نطق بها الشيخ وهو يحتضر إنما كانت دعائه لأخ الصبي .

فرحم الله عم الحاج على لقد كان ظله على الصبي ثقيلاً وإن ذكره ليلاً قلبه بعد ذلك رحمة وحناناً .

(٧)

ولم يكن هؤلاء الشباب يستمدون فرحهم ومرحهم من ذلك الشيخ وحده ، وإنما كان لفرحهم ومرحهم مصدر آخر في بعض الأحيان . ولكن فرحهم كان مقتصداً ومرحهم كان هادئاً إذا جاءهم من هذا المصدر الآخر . كانوا يفرحون بمقدار ، ويمرحون من وراء ستار ، إذا لقوا صاحبهم ذاك الذى كان يسكن غرفة فى أقصى الربع من يمين ، كما كان الشيخ فى أقصى الربع من شمال . وكان صاحب الغرفة اليمنى رجلاً متوسط السن قد جاوز الأربعين من غير شك ولكنه لم يبلغ الخمسين . وكان طالب علم قد أنفق فى الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يظفر بدرجة العالمية بعد ولم يستيئس من الظفر بها ، ولكنه لم يقصر عليها جهده ولم يقف عليها حياته ، وإنما كان يطلبها ويطلب معها أشياء أخرى هى التى يطلبها الناس فى حياتهم . فقد كانت له زوج وكان له بنون . وكان يمنح زوجه وأبنائه من وقته إجازة الصيف وإجازة الصوم وهذه الإجازات القصار التى كانت تتخلل دراسة الأزهرين أحياناً . وكان أهله يقيمون فى القرية قريباً

من القاهرة فلم يكن الانتقال إليهم والارتحال عنهم يكلفان
الرجل جهداً ثقيلاً أو نقداً كثيراً . وكان كثير من أهل إقليمه
يملك قطعة أو قطعاً صغيرة من الأرض وقد أصهر إلى رجل
يملك قطعة أو قطعاً صغيرة من الأرض أيضاً . فلم يكن فقير الحال
كما كان يقال في ذلك الوقت ، ولكنه لم يكن عظيم اليسار ؛
وكان قبل كل شيء مقتصدًا يوشك اقتصاده أن يبلغ البخل .

وكان حبه للعلم معتدلاً وكانت رغبته في العلم متواضعة وكان
إقباله على الدرس ضئيلاً جداً ، وكان ذكاؤه أضال من إقباله
على الدرس واستعداده لفهم العلم أقل من إقباله عليه . وكان
مع ذلك يرى نفسه ذكياً ويرى نفسه مظلوماً لا لأنه تقدم
لنيل الدرجة فرد عنها واشتطت عليه اللجنة في الامتحان ، فقد
أنفق في الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يتقدم للامتحان
وكان يستطيع أن يتقدم بعد اثنتي عشرة سنة ، ولكن لأنه كان
يرى الأزهر من وراء منظار قائم أو شاحب .

كان يسيء الظن بالطلاب ، وكان يرى مخطئاً أو مصيباً
— وأكبر الظن أنه كان مخطئاً — أن الدرجات لا تنال في الأزهر
بالذكاء والبراعة ، ولا بالجد والتحصيل ، وإنما تنال من جهة
(٥)

بالحظ والمصادفة ، ومن جهة أخرى بالقلق وحسن الحيلة والمهارة في التوصل إلى الممتحنين . وكان يرى أن الحظ قد ظلمه وتحول عنه لسبب مجهول ، وأنه مخفق إن تقدم إلى الامتحان فالخير في ألا يتقدم .

وكان يتدبّر عامه الأزهرى مصمماً على أن يتأهب للامتحان فيتفق مع جماعة من أصدقائه على أن يقرأ معهم طائفة من الكتب التي لم يكن بد من إتقانها قبل التقدم للامتحان . ثم لا يمضى شهر أو شهران حتى يشعر بأن الحظ لا يواتيه فيهمل ثم يكسل ثم ينصرف عن الدرس إلى غيره من شؤون الحياة . وكان يعتقد أن الحظ قد ظلمه مرة أخرى فلم يمنحه من نباهة الذكر ومن هذا الذكاء الخداع ما يلفت إليه الشيوخ كما منح فلاناً وفلاناً من أصدقائه مع أنه في حقيقة الأمر ليس أقل من أصدقائه فهماً للعلم ، ولا قدرة على التصرف فيه .

ولم يكن يخفى إذا تحدث إلى أصدقائه الشباب أنه كان يعرف الطريق المأمونة المضمونة إلى الدرجة وأنه كثيراً ما راود نفسه عن سلوكها ، ولكن نفسه لم تطب قط عن بيع قيراط أو قيراطين ليظفر بهذه الدرجة التي تمنحه لقب العالم ، وتزيد

جرايته أرغفة ، وتغل عليه آخر الشهر خمسة وسبعين قرشاً .
 وكان من أجل هذا كله ينتظر أن تصفو له الأيام ، ويبتسم
 له وجه الحظ كما ابتسم لصديقه ومواطنه فلان في العام الماضي .
 فقد أقام صديقه هذا طالباً للعلم ربع قرن وكان ذكياً بارعاً ثم
 تقدم فجأة إلى الامتحان فلم يجزه ناجحاً فحسب ولكنه ظفر
 بالدرجة الثانية لا بالدرجة الثالثة ، ولو أنه أحسن التقرب إلى
 فلان من أعضاء اللجنة لظفر بالدرجة الأولى .

فلينتظر إذن كما انتظر صديقه ولعل الحظ أن يواتيه كما واتي
 صديقه ، فالأمر كله إلى الحظ أيها الأصدقاء ، فقد درست كما
 تدرسون وتعبت كما تتعبون ، وأنا أتمنى أن يكون حظكم خيراً
 من حظي وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمع فيه .

وكان هؤلاء الشباب يسمعون من صاحبهم هذه الأحاديث
 فيحفظونها ويثبتون في أنفسهم طريقتة في إلقائها وكانت طريقتة
 طريفة حقاً . فقد كان يتحدث في هدوء شديد وصوت هو إلى
 الخفوت أقرب منه إلى الجهر ، وكان يعتمد على ألفاظه كأنما
 يريد أن يثبتها في آذان سامعيه . وكان يفصل بين أحاديثه هذه
 بكثير من الفكاهات والنوادر التي كان يراها غريبة مضحكة

فيضحك لها ويطيل الضحك ، وقد مرت على أصدقائه فلم تضحكهم ولم تلفتهم ، ولكنهم رأوه يضحك فوجموا ثم رأوا ضحكه متصلاً فضحكوا ، ثم رأوا إغراقه في الضحك فاغرقوا فيه . وكان ضحكه غريباً مضحكاً حقاً إن جاز هذا التعبير . فقد كان يبدوه عالياً ثم يقطعه ويضحك صامتاً لحظة ثم يستأنفه عالياً ثم يقطعه ويمضى فيه صامتاً ثم يستأنفه وهكذا .

وكان الطلاب إذا خلوا إلى أنفسهم أعادوا أحاديثه ورددوا ألفاظه وقلدوا ضحكه وقضوا في ذلك ساعة مسلية مسرية .

ولكن الذى كان يعجب هؤلاء الشباب من صديقهم هذا شئ آخر . فقد كان صاحب لذة بل صاحب اغراق في اللذة وتهالك عليها ، وكان يحب الحديث عن لذاته ويستمتع بتفصيل هذا الحديث كما يستمتع بلذاته نفسها أو أكثر مما يستمتع بلذاته نفسها . وكانت اللذات التى يمعن فيها ويتحدث عنها بريئة إن شئت وآثمة إن شئت أيضاً . كان يذكر لذاته إذا خلا إلى أهله ويفصل ذلك تفصيلاً منكراً يقطعه بضحكه الغريب . وكان يذكر لذاته إذا جلس إلى طعامه الدسم فى القرية وإلى طعامه الخشن فى المدينة ، ويفصل ذلك بفكاهاته النادرة الفاترة وضحكه المتقطع المتصل .

وكان يذكر لذاته إذا سعى في شوارع المدينة وفي
حاراتها وإذا وقف في الربع نفسه يستنشق الهواء وألقى عينيه
إلى الطبقة السفلى فلم يكن يرى امرأة في الشارع أو الحارة
أو الربع إلا فصلها بعينه تفصيلاً ، وحللها في نفسه تحليلاً ، وجردها
من ثيابها تجريداً . ووجد في هذا الجهد الآثم لذة لا تقل عنه
إنما . ولم يكن يسمى المرأة امرأة ، ولا سيدة ولا أُنثى ، ولا شيئاً
مما تعود الناس أن يسموها وإنما كان يسميها نخذاً . ولم تكن
المرأة النحيلة تعدل عنده شيئاً وإنما المرأة كل المرأة من ضخمت
حتى اكتظت أعضاؤها بالشحم واللحم وكان يشبهها بالوسائد حيناً
وبالحشايا حيناً آخر .

وكان يستدل على مذهبه هذا بقول كعب بن زهير في
صاحبته سعاد :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول

وكان يقول لأصدقائه ألا ترون أنه لم يكد يذكر أن
صاحبته كانت هيفاء إذا أقبلت حتى استدرك أمره وقوم رأيه
فذكر أنها عجزاء إذا أدبرت ، ثم يمضى بعد ذلك في ألوان

شنيعة من التفصيل . ثم يقص الفكاهات وينثر النوادر ويرسل الضحك ثم يمسكه ثم يرسله وقد ملك على هؤلاء الشباب أمرهم بما يلقي إليهم من حديث . وأى شيء أبلغ أثراً في نفوس الشباب المحرومين هذه اللذات بريئها وآثمها من هذا الحديث .

وكان الصبي يسمع ذلك وهو في ركنه منحني مطرق كأنه ليس مع القوم . وما يفوته من حديث القوم لفظ وما تشذ عنه من أصوات القوم نبرة . وكان يقول في نفسه لو عرف هؤلاء الرجال مقدار ما أسمع لهم وما آخذ عنهم لاجتنبوا أن يديروا مثل هذه الأحاديث بمحضر من الصبية الناشئين .

وقد أنفق هذا الرجل منذ عرفه الصبي أعواماً في الربع اختلفت عليه فيها شؤون كانت كلها تضحك في ظاهر الأمر ولكنها تحزن وتثير الأسى عند الروية والتفكير .

كان فلاحاً بأدق ما تؤدي هذه الكلمة من معاني الحب للأرض ، والحرص على المال ، والجزع كل الجزع أن يغلب في بيع أو تأجير أو شراء . وكان للمال ، والمال وحده يسيطر على أمره كله إذا ذهب إلى قريته أو فكر فيها أو لقي أحداً من أهلها . وكان صاحب لذة بأدق ما تؤدي هذه الكلمة من معاني

الاستجابة للحس والطلب لهذه المتع القريبة التي لا تحتاج إلى رقة نفس ولا إلى دقة عاطفة ولا إلى صفاء ذوق . وكان طلبه للعلم وانتظاره للدرجة وسيلة من وسائله أو قل غاية من غاياته يستريح إليها إذا جد في تحصيل المال حتى أعياء الجد وإذا تهالك على الاستمتاع باللذة حتى أضناه الاستمتاع ، هنالك يعود إلى ربه ويستقر في غرفته ويفكر في زملائه وشيوخه ودرجته ويتحدث إلى أصدقائه هؤلاء ويشاركهم في بعض الطعام ويشاركهم في بعض الشاي . ولكنه كان على هذا كله مؤمناً شديداً بالإيمان . له نزعات صوفية غريبة تخرجه بين حين وحين عن أطواره هذه كلها وترده زاهداً متعشفاً يأخذ نفسه بالشدّة والعنف ويفرض عليها عذاب الحرمان والجوع .

وقد اختلف مع حميه ذات يوم في بعض الأمور وزهد في زوجه الفلاحة وطمح إلى أن يتخذ لنفسه زوجاً من أهل القاهرة ويصهر إلى أسرة متحضرة متأنقة . فطلق امرأته وكان يتحدث بآماله هذه إلى أصدقائه مفصلاً لهم في أصرح الألفاظ وأبشعها ما يكون من الفروق بين نساء المدينة ونساء الريف . ولكنه أصبح ذات يوم وقد صرف عن المال وصرف عن نساء

المدينة ونساء الريف وصرف عن لذة الطعام والشاي لأنه أحس أن الحظ سيواتيه إن تقدم للامتحان ، فلا بد إذن من أن يتقدم ، ولا بد إذن من أن يتهياً لهذا الصراع بينه وبين الشيوخ . وأمامه أشهر يستطيع أن يستعد فيها ، فليعيء أصدقاءه وزملاءه القدماء والمحدثين وليفرغ للأصول والفقه وللبلاغة والنحو والتوحيد وهذه المواد التي كان يتألف منها التعيين . وقد فعل وتقدم للامتحان وكان يوم امتحانه يوماً مشهوداً .

أقبل على اللجنة مع الصباح وانصرف عنها عند المساء فأتعبها وأتعبته ، وكان قد دبر لنفسه حيلة ظريفة طريفة يستريح بها من اللجنة إن اشتطت عليه ، فاشترى بطيخة أو جماعة من البطيخ وتركها قريباً من غرفة الامتحان وزعم للجنة حين أدخل عليها أنه مريض بسلس البول وأستأذنها في أن ينصرف كلما اضطرتة علته إلى الانصراف ، وقد رحمته اللجنة وأذنت له أن ينصرف كلما دعتة علته إلى ذلك . فكان يأخذ في تقرير الدرس ويأخذ في محاورة الممتحنين إن ألقى عليه أحدهم هذا السؤال أو ذاك ، ثم يقطع تقريره أو حواراه فجأة ويستأذن في الخروج فاذا خرج لم يذهب إلى حيث يرضى حاجة أو يشفى علة وإنما ذهب إلى

حيث يصيب مقداراً من البطيخ يبرد به قلبه ويشحذ به ذهنه ويسترد به خاطره كما كان يقول ، ثم عاد إلى اللجنة فاستأنف التقرير أو الحوار من حيث قطع التقرير أو الحوار . وما زال باللجنة وما زالت اللجنة به حتى انقضى أكثر النهار وعاد إلى غرفته سعيداً موفوراً فقد أتيح له النجاح وظفر بالدرجة الثالثة واصبح من العلماء .

وتفرق عنه أصدقاؤه مع الصيف فلما لقوه من الخريف كان قد فارق غرفته في الربع وحقق آماله تلك فأصهر إلى أسرة من المدينة وأقام معها غير بعيد من مسكنه القديم .

وقد أخذته نزعته الصوفية ذات يوم فاعتزم أن يعتكف في المسجد أياماً يروض نفسه فيها على الصوم والصلاة وذكر الله وقد فعل فلزم الخلوة أياماً لا أدري كم كان عددها ولكنها لم تكن قليلة فقد خرج من الخلوة نحيلاً منهوئلاً . فلما عاد إلى أهله أنكروه ولعلمهم سخروا من رجولته . فعادت إليه نفسه الفلاحة المتهاكة على اللذات وأدركته حميته الريفية فخرج مع الصباح حتى أتى مطعماً أو قهوة فأسرف على نفسه أشد الاسراف فيما التهم من فول وزيت وخبز وبصل ، ثم أسرف على نفسه

أشد الاسراف فيما أطفاً به نار هذا الإفطار من شاي ثم أضاف
إلى كل ما ألقى في جوفه من سائل وجامد شيئاً من هذه الأشياء
التي كان أمثاله يشيرون إليها ولا يسمونها ؛ فلما استقر هذا كله
أو اضطرب في جوفه عاد إلى أهله فائراً ثائراً فأنكروا قوته
وانتقوه وانتهى أمره إلى أن هم بأن يثب من النافذة لولا أن
أدركه بعض أعضاء الأسرة فردوه عن ذلك بعد جهد وأوثقوه
وإذا هو مجنون قد ذهب عقله .

وما ينسى الصبي ذلك الصوت الذي كان يصل إليه ذات
ليلة بعد أن صليت العشاء والذي وقف له أولئك الشباب من
الطلاب واجمين محزونين تريد دموعهم أن تنهل فلا يمسكها
إلا الحياء .

وكان ذلك الصوت صوت ذلك الرجل الذي أخذه الجنون
وأطلق لسانه فهو يتغنى بأشع الهذيان . فلما أصبح ذهب به
أصهاره إلى المستشفى هناك حيث يداوى أمثاله . وقد أقام في
هذا المستشفى أسابيع ثم خرج منه وقد تغيرت حاله كل التغير
فانخفض صوته أكثر مما كان منخفضاً وهدأت حركاته وانقطع
ضحكه وأصبح يبعث في نفس من يلقاه شيئاً غريباً من الخوف
منه والاشفاق عليه .

وقد مضت الأيام بما تمضى به من الأحداث وتفرق عن هذا الرجل أصدقاؤه الشباب وذهب كل منهم لوجه من وجوه الحياة وقل لقاءهم لهذا الرجل ثم انقطع وجعلت أخباره تصل إليهم متقطعة . ثم انقطعت هي أيضاً وأنبأ النبيء ذات يوم بأنه قد مات .

فسمع أصدقاؤه هذا النبأ فحزنت نفوسهم لحظة ولكن عيونهم لم تذرف دمعة ، ولكن وجوههم لم تنقبض إلا قليلاً ، وإنما انطلقت ألسنتهم بهذه الآية الكريمة التى نتلوها دائماً كلما انتهى إلينا النعى « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٨)

وغرفة أخرى من غرفات هذا الربع كانت تقوم فيه غير بعيد عن شمالك إذا صعدت السلم ، وكانت مصدر فكاهة ودعابة وهو هؤلاء الشباب أيضاً .

كان يسكنها شاب لعله كان أكبر من هؤلاء الطلاب شيئاً وقد كان أقدم منهم عهداً بالأزهر ولكنه كان من جيلهم ومن طبقتهم على كل حال . كان نحيف الصوت يكفي أن تسمعه لتضحك من صوته ، وكان ضيق العقل لم يأذن الله للون من ألوان العلم أن يستقر في رأسه لأن عقله كان محدوداً محصوراً وكان قصير الذكاء لم يأذن الله لذهنه أن ينفذ إلى أقرب شيء وراء ما كان يقرأ في الكتب على اختلافها . وكان مع ذلك واسع الثقة بنفسه بعيد الطمع في مستقبله مطمئناً في غير تكلف إلى أنه كأصحابه هؤلاء الذين يعيش معهم ويشاركونهم في أكثر ما يختلفون إليه من الدروس .

كان يشهد معهم درس الفقه ودرس البلاغة ودرس الأستاذ الإمام ، ولم يكن يخف لدرس الأصول لأن هذا الدرس كان

يقتضيه أن يخرج من غرفته مع الفجر ، وقد كان لراحته مؤثراً
وبها ضيقاً . وكان يشارك أصحابه في بعض مطالعاتهم ، وكان
يشاركهم بنوع خاص في هذه المطالعات التي لا تتصل بالدروس
المنظمة ولا بالكتب التي كان الشيوخ يقرأونها .

فقد كان هؤلاء الشبان يضيقون بكتب الأزهر ضيقاً شديداً .
يتأثرون في ذلك برأى أستاذهم الامام في كتب الأزهر ومناهجه
وكانوا يسمعون من الأستاذ الامام حين يشهدون درسه أو حين
يزورونه في داره أسماء كتب قيمة في النحو والبلاغة والتوحيد
والأدب أيضاً . وكانت هذه الكتب القيمة بغیضة إلى شيوخ الأزهر
لأنهم لم يألفوها ، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ
الامام قد دل عليها ونوه بها . وكان الذين ينافسون الأستاذ الامام
من الشيوخ الأعلام يحاولون أن يذهبوا مذهبه فيدلون طلابهم
على كتب قيمة أخرى لا تقرأ في الأزهر لأن الأزهريين لم
يألفوا قراءتها . وكان هؤلاء الطلاب لا يكادون يسمعون
اسم كتاب من هذه الكتب حتى يسرعوا إلى شرائه إن وسعهم
ذلك وربما كلفوا أنفسهم في هذا الشراء جهداً ثقيلاً وحرماناً
شديداً . فإن أعيانهم ذلك استعاروه من مكتبة الأزهر ثم أقبلوا

عليه ينظرون فيه . ثم اتفقوا على أن يقرأوه جماعة ، ويتعاونوا على فهمه .

كان يدفعهم إلى ذلك جهم الصادق للاستاذ الامام ورغبتهم الصادقة في العلم والاطلاع . وربما دفعهم إلى ذلك مع هذه العاطفة شيء من غرور الشباب . فقد كانوا يفخرون بتلامذتهم للاستاذ الامام وللشيخ بجيت وللشيخ أبي خطوة وللشيخ راضى وكانوا يملأون أفواههم بأنهم تلاميذ هؤلاء الأئمة وبأنهم من تلاميذهم المقرين المصطفين . ولم يكونوا يكتفون بالاختلاف إلى هؤلاء الشيوخ في دروسهم وإنما كانوا يزورون شيوخهم في بيوتهم . وربما شاركوهم في بعض البحث وربما استمعوا منهم دروساً خاصة في يوم الخميس بعد أن تصلى الظهر أو بعد أن تصلى العشاء . وكانوا لا يكرهون أن يعرف عنهم زملاؤهم هذا كله وأن يتحدث عنهم زملاؤهم بأنهم يقرأون فيما بينهم هذا الكتاب أو ذاك في هذا الفن أو ذاك . وكانوا قد وصلوا بهذا كله إلى شيء ظاهر من الامتياز بين زملائهم حتى عرفوا في الأزهر كله بأنهم أنجب طلاب الأزهر وأخلفهم بالمستقبل السعيد . فكان من المعقول أن يسعى إليهم الأوساط من زملائهم يلتمسون

التفوق في الاتصال بهم والامتياز حين يعرف الناس أنهم من
أصدقائهم وأصفيائهم . ويلتمسون بذلك الوسيلة إلى أن يتصلوا
بكبار الشيوخ وأئمة الأساتذة . وكان صاحبنا من هؤلاء الطلاب
الأوساط . قد اتصل بهذه الجماعة من الطلاب ليقول زملاؤه
إنه واحد منهم وليستطيع بحكم هذه الصلة أن يصحبهم في
زيارتهم للأستاذ الإمام أو الشيخ بخيت .

وكان غرور الشباب يحب إلى هذه الجماعة هذا النوع من
الامتياز ويهون عليها قبول هؤلاء الطفيليين في العلم من ضعاف
الطلاب وأوساطهم ثم يتيح لهم بعد ذلك حين يخلون إلى أنفسهم ،
وقد أحصوا على هؤلاء الزملاء جهالاتهم وسخافتهم وأغلاطهم
الشيعة أن يعيدوا ذلك وأن يضحكوا منه ملء أفواههم وملء
جنوبهم أيضاً . وأكبر الظن أن صاحبهم هذا قد عرفهم في
بعض الدروس ، فما زال يدنى نفسه منهم حتى اتصل بهم فزارهم
ثم أعجبه ربهم وأعجبه جواره لهم في هذا الربع ، فاتخذ فيه غرفة
وأصبح واحد منهم . يشاركون في الدرس ، ويشاركون في الشاي ،
ويشاركون في الزيارات ، ويشاركون في بعض الشهرة ، ولكن الله لم
يفتح عليه قط بأن يشاركون في العلم والفهم ، وفي الإبانة والإيضاح .

ويظهر أنه كان أوسع منهم يداً ، وأكثر منهم مالا ، أو قل إنه كان يقتصر على نفسه إذا خلا إليها ، فإذا اتصل بأصحابه يسر على نفسه وأفق عن سعة . وربما كان يشعر بحاجتهم إلى النقد لشراء كتاب ، أو لأداء دين عاجل ، أو لإرضاء حاجة ملحة ؛ فيقدم إليهم من ذلك ما يريدون رقيقاً بهم متطلفاً لهم ، وكانوا يعرفون ذلك له ويحمدونه ، ولكنهم لم يكونوا يطيقون جهله ، وربما لم يملكوا أنفسهم فضحكوا من هذا الجهل بمحضر منه ، وردوا عليه سخفه ردّاً عنيفاً فيه كثير من الازدراء القاسى .

ولكنه كان يقبل ذلك راضياً ، ويتلقاه باسمًا ، وما أظن أنهم قد عرفوا في وجهه الغضب يوماً على كثرة ما كانوا يثقلون عليه بالغض منه والازدراء له . وكان أجمل ما كانوا يتندرون به عليه علمه بالعروض أو جهله بالعروض فكلاهما سواء . كان يطالع معهم كتاباً في النحو فلا يكاد يعرض لهم شاهد — وما أكثر ما تعرض الشواهد في كتب النحو — حتى يكون أسرعهم إلى رد هذا الشاهد إلى بحر من أبحر العروض لم يكن يختلف قط وإنما كان البسيط دائماً . وقد يكون البيت من الطويل وقد يكون من الوافر ، وقد يكون من أى بحر من أبحر الشعر ولكنه كان بسيطاً دائماً .

والغريب أنه لم يكن يكتفى بالإسراع إلى إعلان أن هذا البيت من البسيط وإنما كان يسرع فيأخذ في تقطيع البيت يرده إلى البسيط مهما يكن وزنه ، فيقطع على الجماعة درسهم ، ويدفعهم إلى بحر من الضحك لا يكاد يعرف له حد ، وقد كثر منه ذلك حتى أغرى به أصحابه وأطمعهم فيه . فكانوا كلما عرض لهم بيت من الشعر أظهروا العجز عن رده إلى وزنه حتى ينبئهم صاحبهم بأنه من البسيط ، فإذا فعل أظهروا العجز عن تقطيع البيت حتى يأخذ صاحبهم في تقطيعه فيرده إلى البسيط ، وهناك يستأنفون الضحك ، ويستأنفون الاستهزاء ، ويلقاهم هو بهذه الابتسامة الراضية التي لا تعرف الغضب ولا الغيظ .

وقد أقام هذا الشاب على ذلك مع أصدقائه أعواماً طويلاً لم يغضبهم ولم يغضبوه ، وكأنه أحس آخر الأمر أنه ليس من تلك الحلبة ، وأنه لا يستطيع أن يجري في ذلك الميدان ، فأخذ يتخلف قليلاً قليلاً عن الدروس ، ويتكلف التعلات والمعاذير ، لا يشارك القوم في مطالعتهم ، ويكتفى بالمشاركة في الشاي والطعام أحياناً ، والزيارات دوماً .

وقد تقدمت السن بالصبي في أثناء ذلك ، وتقدم به الدرس

أيضاً ، وإذا هذا الشاب يظهر العطف عليه والقدر له ، وإذا هو يعرض عليه أن يقرأ معه الكتب ، ويعرض عن مشاركة أقرانه وأنداده إلى مشاركة هذا الغلام الناشئ ، ويأخذ الغلام في أن يقرأ معه كتباً في الحديث وأخرى في المنطق وأخرى في التوحيد ولكنه لا يجد عنده غناء ، وليس الغلام فارغاً للضحك منه والتندر به . وليس هو قادراً على ذلك ولا راغباً فيه ، وإذا هو يحتال في التخلص منه والمضى لشأنه .

وإذا هذا الرجل يترك العلم أو يتركه العلم ، ولكنه يظل محسوباً على الأزهر طالباً فيه مشاركاً لأصحابه في الناحية الاجتماعية من حياتهم . وقد ارتقت حياتهم بعض الشيء . رقاها ذكاؤهم وجدهم وتفوقهم ورضى الأستاذ الإمام عنهم وتقريبه إياهم ، وإذا هم يتصلون بفلان وفلان من أبناء الأسر الغنية الثرية الذين كانوا يطلبون العلم في الأزهر إذ ذاك ، وإذا الزيارات تتصل بينهم وبين هؤلاء الشبان الأغنياء الأثرياء ، وصاحبهم معهم يزور ويزار ، وترتقى حياته الاجتماعية كما ارتقت حياة أصحابه . ولكن أصحابه لا يحسون هذا الارتقاء ولا يكادون يشعرون به . وهم إذن لا يتحدثون به ولا يتمدحون بزياراتهم لتلك البيوت

المتأززة وجلوسهم إلى أصحابها الناهبين ، وإنما يرون ذلك شيئاً طبيعياً مألوفاً ، فأما صاحبهم فهو الذى يراه المجد كل المجد ، ويستمد منه الغبطة كل الغبطة والغرور كل الغرور ، ويستغله لبعض منافعه المادية أحياناً ، ويتحدث به دائماً إلى من أراد أن يسمع له ومن لم يرد .

وتمضى الأيام ويتفرق هؤلاء الطلاب . وقد أخذ كل واحد منهم طريقه فى الحياة . ولكن هذا الرجل لا ينسأهم ولا يسمح لهم أن ينسوه . قد عجز عن تتبعهم فى العلم فليتبعهم فى غيره مما تمتلىء به الحياة يزورهم وإن لم يزوروه . ويلقأهم فى زياراتهم عند فلان أو فلان من أصحاب المنزلة والثراء .

وقد خرج الأستاذ الامام من الأزهر فى تلك المحنة السياسية المعروفة ، وإذا صاحبنا متصل بالأستاذ الامام وشيعته ، متصل بخصوم الأستاذ الامام وشيعتهم أيضاً . وقد أخذ الأزهر يضطرب ودخلت السياسة فى ذلك الاضطراب واختصمت فيه السلطان ، وإذا صاحبنا يتصل بالمضربين مشاركا لهم فى الاضراب ، ويتصل بخصوم الاضراب مفشياً لهم أسرار المضربين ويتكشف الأمر ذات يوم ، ويا له من يوم ، عن أن صاحبنا قد كان متصلاً بالمحافظة فتقطع

الصلة قطعاً عنيقاً بينه وبين أصدقائه ويرد عن البيوت التي كان يسعى إليها ويستقبل فيها ، ويقع في غرفته تلك في الربع قد خسر الناس جميعاً ولم يخسره أحد . وقد قصرت به همته عن درجة الأزهر فهو ينفق حياته الحاملة وحيداً بالأساً محتملاً خوله على مضض مكتسباً عيشه في مشقة .

ثم ينبئ النبيء ذات يوم بأنه قد مات . أمات من علة ؟ أمات من حسرة ؟ أم مات من الحرمان ؟ ولكن أصدقائه يسمعون النعي فلا يأخذهم وجوم ، ولا يمس نفوسهم حزن ، وإنما يتلون هذه الآية الكريمة التي نتلوها دائماً حين ينعي إلينا الناس :

« إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٩)

وكان الربع خالياً أو كان خالياً حين أقبل الصبي عليه لأول مرة لم يكن أهله قد عادوا إليه بعد إجازة الصوم ؛ وقد عرف الصبي بعد ذلك أن طلاب الأزهر كانوا يستحبون الإبطاء في العودة إلى القاهرة بعد هذه الإجازة خاصة . ففي هذا الوقت كانت تبدأ السنة الأزهرية . وكان الطلاب والعلماء كانوا يجدون شيئاً من المشقة والجهد في مفارقة أهلهم وأوطانهم فكانوا يطيلون أجازتهم يومين أو أياماً وربما أطالوها أسبوعاً أو أكثر من أسبوع ، ولم يكن عليهم من ذلك بأس . فقد كان الأزهر حينئذ في آخر أيامه السعيدة التي لم يكن النظام يحصى فيها على الأساتذة والطلاب أيام العمل وأيام الراحة ، والتي لم يكن فيها النظام يأخذ الأساتذة والطلاب بهذه المواظبة القاسية على الدرس في جميع أيامه وفي جميع أوقاته . وإنما كان الأمر هيناً سهلاً . تعين المشيخة آخر الإجازة وأول العمل والأساتذة أحرار يبدأون متى أرادوا أو متى استطاعوا ، والطلاب أحرار يقبلون على الدروس متى أحبوا أو متى أتاحت لهم ظروفهم أن يقبلوا عليه .

كان الأمر هيناً سهلاً . وكان يعتمد على الرغبة والإرادة أكثر مما يعتمد على الدقة المقررة والنظام المحتوم . وكان أجدر أن يميز أصحاب الجد والعمل من أصحاب الكسل والعبث ، وأن يدفع الطلاب إلى العلم حباً فيه وطموحاً إليه لا طاعة للأمر ولا اشفاقاً من العقاب .

وكان الأساتذة والطلاب يستمتعون بهذه الحرية الحلوة السمحة في قصد واعتدال . فكان الأسبوعان الأولان من أيام الدرس أسبوعى حرية وسعة كما كانا أسبوعى مودة وتعارف وبر . يقبل الطلاب من بلادهم على مهل ، فإذا أقبلوا تزاروا وبر بعضهم بعضاً ثم سعوا الى دروسهم على مهل أيضاً . ويقبل الأساتذة من بلادهم فى أناة وريث فإذا أقبلوا هياؤا منازلهم للاقامة الطويلة ، ثم سعى بعضهم إلى بعض بالتحية والود ، ثم بدأوا دروسهم لا معجلين ولا مرهقين . على أن كثيراً من الأساتذة والطلاب كانوا يؤثرون العلم على أهلهم وأوطانهم فمنهم من يقيم فى القاهرة أثناء الأجازه دارساً فى بيته أو فى الأزهر نفسه أو فى غيره من المساجد ، ومنهم كان يتعجل العودة إلى القاهرة متى سنحت له الفرصة وسمحت له الظروف ليأخذ من

الدرس الحر انخاص نصيباً قبل أن يبدأ في الدرس المنظم المشترك .

من أجل هذا كله كان الربع خالياً أو كالخالي حين أقبل عليه الصبي وأخوه . لم يكن يعمره إلا عم الحاج على وزميلان من زملاء الشيخ الفتي وهذان الفارسيان . ثم لم يكد الصبي يستقر في الربع يوماً ويوماً حتى أخذ أهله يعودون إليه منفردين ومجتمعين مع الصباح ومع المساء ، وحتى أخذ الربع يمتلئ بالحركة والنشاط وترتفع فيه الأصوات من يمين وشمال ويأخذ شكل المكان المزدحم بأهله أشد الازدحام . وقد كان مزدحماً بأهله حقاً . فقد كان بعض غرفاته يكتظ بالطلاب على نحو غريب ، حتى لقد كان يسكن غرفة من هذه الغرفات عشرون طالباً .

كيف كانوا يجلسون ؟ كيف كانوا يدرسون ؟ كيف كانوا ينامون ؟ هذه أسئلة ألقتها الصبي على نفسه ولكنه لم يجد لها جواباً . وإنما عرف أن أجر الغرفة لم يكن يزيد عن خمسة وعشرين قرشاً وربما نزل إلى العشرين في كل شهر فكان الطالب يسكن بقرش واحد في الشهر على هذا النحو .

وهذا يصور حال هذه الجماعات الضخمة من أبناء الريف
التي كانت تغد على القاهرة لتدرس العلم والدين في الأزهر
فتصيب من العلم والدين ما تستطيع ولكنها تصيب معها ألواناً
من علل الأجسام والأخلاق والعقول أيضاً . وكانت الغرفة التي
تلى غرفة الصبي من جهة اليمين خالية أثناء الأسبوع الأول لم
يسمع الصبي من قبلها صوتاً أو حركة . ثم انقضى الأسبوع وأقبل
أسبوع آخر فلم تشغل الغرفة ولم تأت من قبلها حركة أو صوت
حتى أخذ الطلاب يتساءلون عن الشيخ الذي كان يسكنها قبل
الصوم ما خطبه . ويقول بعضهم لبعض لعله تحول عن هذا الربع
إلى مكان آخر . ولكن الصبي استيقظ في ليلة من ليالي الجمعة
على صوت عم الحاج على يشق الليل وعلى صوت عصاه تضرب
الأرض ففكر كما كان يفكر ، وانتظر صوت المؤذن كما كان
ينتظره ، وأذن مع المؤذن في نفسه كما كان يفعل . وانقطع
الصوت وجعلت نفس الصبي تتبع المصلين في المسجد وهم يقبلون
على صلاتهم منهم المتعجل النشيط ومنهم المشاغل المتبذل . وإذا
صوت غريب مرتفع يشق الحائط من وراء الصبي ويبلغ أذنه
فبيعث في جسمه رعدة تجرى فيه من رأسه إلى قدميه . ولم

ينس الصبي قط هذا الصوت ولم يذكره قط إلا ضحكت له
نفسه وإن شغل الجد شفثيه عن الابتسام . كان صوتاً غريباً
ملاً الصبي رعباً أول الأمر ثم دفعه إلى ضحك مرتفع لم يستطع
أن يملكه على ما كان يخاف من إيقاظ أخيه . ال . ال . ال
ال . الله الله أكر . ال . ال . الله أكر . الله أكر .
الله أكبر .

كذلك وصل الصوت إلى الصبي فأنكر أوله وأنكر تردده
وعرف آخره . ولكن الصوت لم ينقطع عند انتهاء التكبير
وإنما استؤنف بعد ذلك مرة ومرة حتى استقر آخر الأمر وقد
أخذت حروف التكبير مواضعها من فم المصوت بها ومن الهواء
ومن أذن الصبي ونفسه أيضاً . ومضى الصوت من وراء الحائط
بعد ذلك يقرأ الفاتحة فعرف الصبي أنه صوت رجل يصلي .
ومضى الصوت يقرأ الفاتحة حتى بلغ قول الله تعالى « إياك نعبد
وإياك نستعين » فوقف عند السين ولم يستطع أن يتقدم ، وإذا
هو يستأنف التكبير على نحو ما بدأه . ال . ال . ال . الله
أكر . ال . ال . هنالك لم يملك الصبي نفسه فاندفع في
ضحك مرتفع متصل استيقظ له أخوه فزعاً وسأل الصبي ما به

فلم يستطع الصبي جواباً . ولكن أخاه لم يحتج إلى هذا الجواب
فقد سمعه من وراء الحائط فاندفع هو أيضاً في ضحك مكظوم ،
ثم قال للصبي في صوت خافت مهلاً فهذا جارنا الشيخ فلان
قد عاد وهو يصلي الصبح وهو شافعي .

واستأنف الشيخ القتي صمته وهدوءه يدعو إليه النوم . وضبط
الصبي نفسه وتتبع صوت الشيخ من وراء الحائط حتى أتم صلاته
بعد جهد ثقيل . ولكن سؤالاً قد استقر في نفس الصبي . ما بال
هذا الشيخ الشافعي يكلف نفسه هذا الجهد وهذا العناء ولا يتم
صلاته إلا بعد هذه المشقة التي لا تطاق . فلما أصبح سأل
أخاه متشجعاً فعرف منه أن الشيخ موسوس ببعض الشيء وأنه
يريد أن يحقق نية الصلاة وأن يخلص قلبه ونفسه وضميره لله
إذا أقبل على صلاته وأثناء مضيه فيها . فإذا رأيته يتردد ويعود
من حيث بدأ ويقطع الصلاة ليلتدئها فاعلم أنه قد أحس عارضاً
من أمور الدنيا عرض لنفسه فصرفها عما ينبغي أن تخلص له
من ذكر الله .

وكان هذا الشيخ هادئاً أشد الهدوء لا يكاد يسمع له صوت
ولا تكاد تسمع له حركة إلا إذا صلى الفجر . وقد احتاج الصبي

إلى أيام وأيام ليعود نفسه هذا الصوت وليسمعه دون أن يضحك
منه أو يرثى لصاحبه من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس
في صدور الناس من الجنة والناس . .

ولم يبق في نفس الصبي من هذا الشيخ بعد أن مضت
الأعوام إلا ذكرى هذا الصوت وذكرى قصتين شهد إحداها
بنفسه وتحدث إليه بشأنيتهما الرواة . فأما الأولى فقد كانت للصبي
مع الشيخ حين تقدمت به السن وحين تقدم به الدرس وحين
بدأ يسمع دروس البلاغة . فقد ذهب يحضر درس الشيخ وسمعه
يفسر الجملة المشهورة في التلخيص « ولكل كلمة مع صاحبها مقام » .
وما أكثر ما يقال حول هذه الجملة من كلام في المختصر والمطول
والأطول وفي الشروح والخواشي والتقارير وهي على ذلك واضحة
جليّة لا تعمية فيها ولا غموض . وكان الشيخ كغيره من شيوخ
الأزهر يقبل على تفسير هذه الجملة وتقرير ما يقال حولها من
كلام كثير ، مجهوداً مكدوداً قد بح صوته وخارت قواه وتصبب
جبينه عرقاً . وأمانة العلم كما تعرف ثقيلة جداً لا ينهض بها
إلا الأقوياء وقليل ما هم .

فأخذ الغلام يناقش الأستاذ في بعض ما كان يقول كدأبه

مع أساتذته جميعاً ، ولكن الشيخ رد عليه فأخفه وألجمه وملاً قلبه في وقت واحد غيظاً وازدراءً وخجلاً . قال الشيخ للغلام دع عنك هذا يا بني فإنك لا تحسنه وإنما تحسن هذه القشور التي تقبل عليها في الضحى ، فأما اللباب فلم تخلق له ولم يخلق لك . وضحك الشيخ وتضاحك الطلاب واستحيي الغلام أن يقوم عن الدرس قبل تمامه فأقام على مضض حتى انصرف مع غيره من الطلاب . وكانت القشور التي عرض بها الشيخ والتي كان الغلام يقبل عليها في الضحى دروس الأدب وكتاب الكامل للمبرد خاصة . ومنذ ذلك الوقت سقط الشيخ في نفس الغلام وبغض إليها . وقد كان الغلام يحبه ويكبره . وأصبح الشيخ موضوعاً من موضوعات الفكاهة التي كان الغلام يلهو بها مع أترابه في الضحى قبل درس القشور وعند الظهر بعد درس القشور . وجاءت القصة الثانية من قصتي الشيخ فلم تزد الغلام إلا عبثاً به وتندراً عليه وتفكهاً مع أترابه بقول الشعر فيه . ومع ذلك فقد كانت قصة يسيرة لا غرابة فيها ولكن أي شيء أيسر من ضحك الشباب .

كان للشيخ ابن لا يظهر عليه الذكاء ولا يدل شيء من

أمره على أنه قد خلق لطلب العلم ولكنه مع ذلك كان يطلب العلم . وكان يعيش مع أبيه في غرفته هادئاً كأبيه ، صامتاً كأبيه ، حسن الجوار كأبيه . وأقبل ذات يوم أو ذات ليلة على أبيه نفر من أصدقائه يزورونه فطلب القهوة إلى ابنه وقدمت القهوة بعد لحظات وأقبل الشيوخ على فناجينهم في شره إليها كهادتهم . فعبوا فيها أو قل مصوها مصاً طويلاً له صوت طويل ولكنهم لم يكادوا يبلغون حلوقهم بما مصوا حتى ردته حلوقهم رداً عنيفاً ، وإذا هم جميعاً يسعلون وينحنون متحرفين لذلك يريدون أن يبرئوا حلوقهم مما أصابها . وقد جرت القهوة واللعب على لحاهم وصدورهم وهم يسعلون ويضطربون اضطراباً شديداً . ذلك لأنهم لم يشربوا قهوة البن وإنما شربوا قهوة الشوق . أخطأ الفتى علبة البن وأخذ مكانها علبة الشوق .

وكانت لقصة الغلام مع الشيخ في درس البلاغة عواقبها فقد انصرف عن الشيخ إلى شيخ آخر كان مجاوراً له في الربع وكانت غرفته تلي غرفة الشيخ الموسوس وكان شافعيّاً مثله ولكنه لم يكن موسوساً . وكان أهدأ الناس وأرزن الناس وأطيهم قلباً وأقلهم كلاماً . لم يسمع الصبي صوته إلا حين كان يلقي السلام

عليه أو على من يمر به من أصحابه . فلما انصرف الغلام عن درس الشيخ الأول ذهب من غده إلى درس الشيخ الثاني وكان يلقي درسه في تلك القبة من جامع محمد بك أبي الذهب ، وكان الغلام يعرف هذا الجامع حق المعرفة . سمع دروس النحو والمنطق في جميع أما كنه وزواياه وكانت له قصص قد نلم بها في هذا الحديث .

فأقبل الغلام إذن مع الظهر منصرفه من درس القشور فصعد هذه الدرجات التي كان يألفها ؛ ثم خلع حذاءه ومشى في هذا المر بين حلقتي من حلقات الدرس طالما عرفهما وتخطى عتبة القبة وجلس في حلقة الشيخ فلم ينتظر إلا قليلاً ، حتى أقبل الشيخ هادئاً كعادته فحمد الله وصلى على نبيه وأخذ يقرأ قول المؤلف في تنكير المبتدأ وفي نكته ومزايه . ثم مضى حتى وصل إلى استشهاد المؤلف بالآية الكريمة « ورضوان من الله أكبر » فجعل يعمل مع المؤلف والشارح والمحشى والمقرر تنكير الرضوان بكلام لم يعجب الغلام ولم يقع من نفسه ، ولم يستطع الغلام أن يصبر على ما كان يسمع فأخذ يجادل الشيخ ، ولكنه لم يكد يفعل حتى قطع الشيخ عليه كلامه وقال في صوته الهادئ المطمئن

اسكت يا بنى فتح الله عليك وغفر لك ووقانا شرك وشر أمثالك .
اتق الله فينا ولا تشاركنا فى هذا الدرس فتنفسد علينا أمرنا
وانصرف إلى ما أنت فيه من هذه القشور الضالة المضلة التى
تقبل عليها فى الضحى .

وتضحك الطلاب ووجم الغلام واستأنف الشيخ قراءته وتفسيره
فى صوته الهادى المطمئن الرزين . وأقام الغلام على مضض حتى
انصرف الطلاب ، فانصرف معهم ثائراً محزوناً وقد أعرض عن
دروس البلاغة وانفق بقية عامه يخرج من درس القشور إذا كان
الظهر فيمضى إلى دار الكتب فى باب الخلق فيمكنث فيها إلى
أن يحين اغلاقها قبيل الغروب .

أكان اتفاق الشيخين على رد الغلام عن علمهما مصادفة؟ أم
كان أمراً مدبراً؟ لم يعرف الغلام ذلك ، ولكن ذكرى هاتين
القصتين الآن تعجل للحوادث دعا إليه الاستطراد . فالخير أن
نعود إلى الربع ومن كان فيه ، وما كان فيه ، حين أقبل عليه
الصبي لأول عهده يطلب العلم .

(١٠)

وفي زاوية الربع من يمين كانت تقوم غرفة سكنتها أسرة لم يعرف الصبي قط كيف صعدت إلى هذا الربع ، ولا كيف استقرت فيه يأخذها العلم وطلابه من جانبيها ، وكان حقها أن تستقر في الطبقة السفلى بين سكان هذه الطبقة من الباعة والعمال ، ولكنها صعدت إلى حيث العلم وطلابه وأساتذته ، فأقامت بين هذا كله لم تؤذ أحداً ولم يؤذها أحد ، ولم يتصل الود أو لم تتصل المعرفة بينها وبين أحد .

كانت غريبة في هذا الربع ، كما كانت غريبة في القاهرة . فقد كانت لهبتها إذا تحدثت تدل على أنها قد هبطت من الصعيد ، بل من أقصى الصعيد . ولعل غربتها هي التي صعدت بها إلى هذه الطبقة الثانية من الربع ولم تقف بها عند الطبقة الأولى . فقد كان سكان الطبقة الثانية كلهم غرباء ، شيخ من الأسكندرية وفارسيان وطلاب وأساتذة قد أقبلوا من أقطار مصر على اختلافها . فلا بأس على هذه الأسرة الغريبة أن تقيم بين هؤلاء الغرباء . فأما الطبقة الأولى من الربع فقد كان العمال

والباعة الذين يسكنونها جميعاً من أهل القاهرة أو من الذين
بعد عهدهم بها حتى أصبحوا من أهلها وورثوا لغتها وعاداتها .
كانت هذه الأسرة تتألف من عضوين اثنين : امرأة قد
تقدّمت بها السن حتى جاوزت الستين ، وأصبح من العسير بل
من المستحيل أن تتخذ لغة القاهرة وتصطنع عاداتها ، وابن لها
شاب قد نيف على العشرين ولم يبلغ الثلاثين بعد ، فهو حرى
إذا مضى عليه الزمن أن يلوى لسانه بلغة القاهرة ، وأن يأخذ
نفسه بعادات أهلها . وكانت الأم لا تصنع شيئاً كما ينبغي
لأمثالها حين يتركن الصعيد ويقرن في غرفة من غرفات هذا الربع
في مدينة كلقاهرة .

لم تكن تصنع شيئاً لتكسب حياتها ، إنما قسم الأمر بينها
وبين ابنها قسمة عدلاً . فعلى الفتى أن يجدّ في الشارع طول
النهار ويعود بالقوت مع الليل ، وعلى أمه أن تعنى بالغرفة وتهيئ
الطعام لابنها ولنفسها .

وكان الفتى بائعاً متجولاً يصنع ما يبيعه في غرفته ، يبدأ في
صنعه مع الصبح فإذا ارتفع الضحى وكاد النهار ينتصف خرج
إلى الشارع بما أعدّ ، فجعل يتغنى به متنقلاً متجولاً في حيث

تدفعه قدماه إليه من الشوارع والحارات ، يبعد حيناً ويقرب حيناً ولكنه لا يعود حتى يبيع ما يحمل . وكان يحمل في الشتاء هذا اللون من ألوان الحلوى الذى يسمى غزل البنات ، وكان يحمل في الصيف هذا اللون الآخر من ألوان الحلوى الذى كان يسمى مرة « جيلاتى » ومرة « دندورمه » .

وكان الفتى يصنع هذا اللون أو ذاك فرحاً مرحاً متغنياً أو متكلفاً للفرح والمرح والغناء . فإذا أتمّ صناعته حملها ومرّ أمام غرفتنا هادئاً صامتاً مستأنياً ، حتى إذا انحرف إلى السلم وهبط منه إلى الحارة ارتفع صوته فجأة بغناء حلو رقيق يمدح فيه ما كان يحمل من طعام ويدعو إليه طلابه من الصبية والنساء . وكأن الفتى كان يستبجح لنفسه الغناء ما أقام في غرفته ويحظر على نفسه الغناء إذا مرّ بغرفات أهل الوقار والجد من العلماء والطلاب . فإذا هبط إلى الطريق العام استباح لنفسه ما يستبجح لها الباعة جميعاً فغنى طعامه ودعا الناس إليه . وكأن الفتى كان يشعر في نفسه بأن ليس هناك خير في أن يتغنى ما كان يحمل من حلوى أو يدعو إليه أمام هذه الغرفات . فأهلها أصحاب جد لا يحفلون بالحلوى ولا ينشطون لها ، وإنما يحفلون

بالعلم وينشطون للعلم . وأكبر الظن أن الفتى كان مخطئاً في هذا التقدير ، فقد كان بين أهل الربع من غير شك من كانوا يحبون غناؤه ويتشوقون إلى غزل البنات أو إلى الدندورمه ويودون لو استطاعوا أن يقف وأن يكونوا أول من يفتح عليه ولكنهم لم يكونوا يفعلون ، يمنعونهم من ذلك الحياء حيناً وضيق ذات اليد أحياناً .

وفي ذات يوم انقطع غناء الفتى وانقطع صوت أدواته التي كان يحرك بها ألوان الحلوى . وقام مقام هذا الغناء وهذه الأصوات غناء آخر وأصوات أخرى ، فقد جعل نسوة يختلفن إلى هذه الغرفة متصايحات متضحكات أول الأمر ، ثم مزغردات متغنيات ناقرات على الطبول حتى أصبحت حياة الطلاب والعلماء غناء ثقيلاً . ولكن حياة الصبي رقت لذلك وراقت وامتلأت لذة وحبوراً .

ذكر ريفه بهذه الطبول وهذه الزغاريد وهذا الغناء وقد كان يحب هذا كله أشد الحب ويجد فيه لذة ومتاعاً لا يقلان عما كان يجد من اللذة والمتاع حين كان يستمتع لشيوخته وهم يتغنون بما كانوا يلقون في دروسهم من علم وإن اختلف نوع اللذة والمتاع اختلافاً شديداً .

ثم أضيفت إلى أصوات النساء هذه أصوات أخرى ساعة من نهار ، أصوات الحمالين الذين أخذوا يصعدون سلم الربع ويزحمون طوقه بما كانوا يحملون إلى هذه الغرفة من متاع وهم يتصايحون ويتشائمون جادين مرة ومازحين مرة أخرى ، والنساء يلقيهن ويتلقين أمتعتهن بنقر الطبل ودفع الزغاريد وإرسال الغناء . وربما ابتهجت امرأة من أهل الطبقة السفلى لبعض ما كانت تسمع وترى فذكرت يوم زفافها أو استحضرت يوم زفاف ابنها أو بنتها الذى لم يأت بعد ، وإذا هى تزغرد مع المزغردات وقد تغنى مع المغنيات على غير معرفة بأصحاب العرس وعلى غير مودة بينها وبينهم . ولكن الفرح كثير الشيوع كما أن الحزن كثير الشيوع ما أسرع ما تنتقل به العدوى بين المصريين .

وقد جاء اليوم الأكبر يوم الخميس بعد أن لقي العلماء وطلاب العلم من هذا الاضطراب شراً عظيماً أزعج أصحاب الجدد منهم عن غرفاتهم وعن الربع كله ، فذهبوا يلتمسون الهدوء الذى يحتاج إليه الدرس عند أصحابهم أو فى المساجد . أقبل يوم الخميس فاشتد الاضطراب حتى تعدى حده المألوف وتجاوز الربع إلى الحارة . ف ضرب السرايق وجعلت الموسيقى تعزف من العصر ،

وأقبل ناس من غير أهل الحى فابتهجوا وطعموا وحيى بعضهم بعضاً واستمعوا للغناء . والصبي رابض عند نافذته لا يفوته من هذا كله شيء ، قد نسى العلم والعلماء والأزهر وأهل الأزهر ، ونسى طعامه وشايه وفنى فى هذه الموسيقى التى كان يسمعها فى القاهرة لأول مرة ، كما فنى فى هذه الألوان المختلفة من الأغانى ، أغانى الشعب فى أول الليل ، وأغانى الشيخ المحترف حين تقدم الليل .

فأما أخوه وأصحابه فقد هجروا الربع فى هذا اليوم هجراً غير جميل . وأما هو فلم يتحول عن مكانه حتى تقدم الليل وكاد عم الحاج على يخرج من غرفته فيشق الليل بصوته ويضرب الأرض بعصاه ، ولكنه لم يفعل ، ولو قد فعل ، لما سمع صوته أحد ولا أحسّ عصاه أحد . وأين كان يقع صوته وعصاه من هذه الضوضاء المنعقدة التى طردت النوم عن الحى كله ؟ وهذا صياح فظيع ينبعث طويلاً ممتداً ، وهذه الزغاريد تحيط به وترقص حوله إن صح أن ترقص الزغاريد ، وهذا الفرح والابتهاج يرقصان من حول الألم والعذاب فقد أدخل الفتى على أهله . ثم يسعى الليل هادئاً بطيئاً رزيناً فيمس بيده المظلمة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء

وإذا المصاييح قد أطفئت ، وإذا الأصوات قد سكنت ، وإذا النوم قد أقبل رقيقاً كأنه اللص فضم بين ذراعيه أهل الحى جميعاً إلا هذا الصبي الذى لم يتحول عن نافذته ولم ينقطع تفكيره فى هذا الألم الطويل الممتد . يرقص من حوله فرح عريض مضطرب ، ولكن الصبي يعود إلى نفسه لأن صوتاً يأتيه من قريب ينبئه بأن الليل قد انقضى وبأن الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم ! ولكن الصبي لم ينم من ليلته ، وهو على ذلك ينهض ويتوضأ حتى إذا فرغ المؤذن من أذانه أدّى الصبي صلاة الصبح ، ثم التف فى لحافه وامتدّ على بساطه القديم وذهل عن نفسه أو ذهلت نفسه عنه فلم تعرفه ولم يعرفها إلا حين أقبل عم الحاج على حين ارتفع الضحى يطرق الباب طرقاً عنيفاً ويصيح صيحته المعروفة « يا هؤلاء ! يا هؤلاء ! » .

(١١)

ولن يتم وصف الربع وتصور البيئة التي عاش فيها الصبي لأول عهده بالقاهرة إذا لم يذكر أشخاص كانوا يقيمون في الربع وكأنهم ليسوا من أهله ، وأشخاص آخرون كانوا يلمون بالربع بين حين وحين وكأنهم من أهله المقيمين فيه . فمن المقيمين النازحين ذلك الشيخ الذي تقدمت به السن حتى جاوز الخمسين ، والذي طلب العلم جاداً في طلبه ما استطاع والتمس الدرجة محتملاً في ذاتها ما أطاق . فلم يحصل من العلم إلا قليلاً ، ولم يتقدم إلى الدرجة إلا ردّ عنها فيئس ولم ييأس ، وأقام جسمه في الربع ونزحت نفسه عنه . استحي أن يعود إلى بلده مخففاً فأقام في القاهرة وفي حيث كان يقيم أياً كان يطلب العلم جاداً مجتهداً ودبر أمر أسرته في الريف من بعيد يخطف نفسه إليها يوم الخميس إذا أمسى ليعود إلى الربع يوم السبت إذا أصبح . وله حظ من ثراء وفضل من نعمة فهو يعيش بين هؤلاء الطلاب عيشة الأغنياء من أهل الريف . قد أثّرت غرفته بمتاع ممتاز ، وأقام فيها مصباحاً وممسياً لا يفارقها إلا قليلاً ، يخيل إلى الناس

أنه يقرأ ويدرس ، وأنه قد حفظ العلم ووعى أسفاره فليس في حاجة إلى أن يختلف إلى الدروس ويسمع للشيوخ ؛ ولو قد أسعده الحظ وواتته الأقدار لكان شيخاً مثلهم يلقي الدروس ويختلف إليه التلاميذ ، فقد صحب أكثرهم حين كانوا طلاباً ، واستمع معهم للشيخ الإمبابي وزار معهم الشيخ الأشموني ، ولكن الحظ وفي لهم وأخلفه ، فأصبحوا أساتذة وظل هو في هذه المنزلة بين المنزلتين ، منزلة الطالب ومنزلة الأستاذ .

ولكنه على كل حال قد اتخذ أكثر خصال الأساتذة ، فهو لا يشارك أصدقاءه الشباب في درس ولا يقرأ معهم كتاباً ، وإنما يلقاهم بين حين وحين مترفعاً عليهم شيئاً ، مترفعاً بهم قليلاً ، يشهد طعامهم وشايهم ويدعوهم إلى طعامه وشايه . ويتحدث إليهم في صوت هادئ ممتلئ وبحروف مضخمة مفخمة ولكنه لا يتحدث إليهم في العلم وإنما يتحدث إليهم عن العلماء يعيب أكثرهم ويمدح أقلهم . يغلو في العيب ويقتصد في الثناء ويتحدث إليهم عن المال وعن تدييره وعن مكانته بين أهل القرية وصيته بين أهل المركز وارتفاع شأنه بين أهل الاقليم ، وعن أخوته الذين يشرفون على الحرث والزرع ، وأخيه النابه النجيب الذي عظم نصيبه من الذكاء

وقلّ نصيبه من مواتاة الحظ فلم يفتح الله عليه بنيل الشهادة
الابتدائية على تقدم سنه حتى كاد يبلغ العشرين . لأنه كان
مقصراً أو غيباً ، بل لأن الحظ كان يمانعه ويعاكسه . وقد
قررت الأسرة أن تغالب الحظ ، وصمم الشيخ على أن يغلب الحظ
على أخيه ويثب بهذا الفتى من الخمول إلى نباهة الذكر وارتفاع
الشأن . فأزعم أن يدخله المدرسة الحربية ويجعل منه ضابطاً
باسلاً تزدان كتفه لا بالنجمة بل بالنجمتين بل بالنجوم .

ولكن الحظ كان أقوى من الشيخ ومن أسرته ، فردّ الفتى
عن المدرسة لأن هيأته لم تعجب الممتحنين ، والشيخ ساخط على
الحظ مصمم على مغالبتة . يتحدث بهذا كله حديثاً متقطعاً متصلاً ،
تقطعه قرقرة الشيشة التي كان صاحب القهوة يحملها إليه وجه
النهار وآخره وحين يتقدم الليل ، والتي كان ربما أعدها لنفسه
أو أعدها له خادمه الصغير ، والتي كانت تبهر هؤلاء الطلاب
وتثير في نفوسهم شيئاً من الإعجاب بثرائة يمازج ازدرأهم لجهله
وتندرهم بغبائه .

وما ينسى الصبي أن هذا الشيخ الغنى أراد ذات يوم أن
يتخفف من بعض أثائه ويشترى خيراً منه وأرقى . فعرض قديمه

على هؤلاء الطلاب فكلهم نكل عن الشراء إلا أخا الصبي ،
فإنه اشترى منه دولاباً يأتلف من قطعتين تقوم إحداها على
الأخرى ، فأما القطعة السفلى فقد كان لها بابان مصمطان ، وقد
خصص أعلاها لثياب الشيخ الفتي وخصص أسفلها لكتبه التي
لم تجلد والتي لا يحسن أن ترى ، وخصص جزء منه لما كان
الشيخ يحرص على ادخاره لنفسه من طيب الطعام . وكان في
أعلا هذه القطعة السفلى درجان خصصهما الشيخ الفتي لأوراقه
المنشرة ولنقوده حين كانت تصل إليه أول الشهر ، فكان يضعها
في أحد هذين الدرجين ويأخذ منها بمقدار بين يوم ويوم .
وقد حفظ مفتاحيهما في جيبه ، وأما القطعة العليا فكان لها بابان
زجاجيان وقد خصصت للكتب المجلدة التي يبعث منظرها في
النفوس بهجة ورضى .

وقد غالى الشيخ بدولابه هذا وسام في ثمنه حتى تجاوز
به الجنيه لأنه كان من خشب البندق . واشتراه الشيخ الفتي
على ذلك ، ومن المحقق أن شراءه قد جر على الشيخ الفتي
وعلى أخيه أعباءً ثقالاً . فلم يكن بدُّ من دفع هذا الثمن
أقساطاً ، ومن أن تقتطع هذه الأقساط من وظيفة
الشهر الضئيلة التي كانت تأتي من القرية . ثم لم يكن بدُّ من

أن تشتري الكتب ومن أن تجلد وترص لتبدو أعقابها مزدانةً
باسم الشيخ الفتي من وراء الزجاج . وكان هذا كله يقتطع من
وظيفة الشهر ويضطر الطالبين إلى أن يقترا على أنفسهم في
الرزق . ثم عجزت وظيفة الشهر عن أن تنهض بهذه الأعباء ،
فبدأت الاستدانة ، وقلَّ ما كان يودع في الدرج من نقود ، وكثر
الإلحاح على الشيخ الوالد في أن يزيد الوظيفة أو يضيف إليها
شيئاً بين حين وحين .

ولكن شراء هذا الدولار قد رفَّه على الصبي وأثار في
نفسه كثيراً من الفرح والبهجة . فقد كان للشيخ الفتي صندوق
طويل عميق عرفه الصبي أثناء طفولته حين كانت أمه تحفظ
فيه ثيابها ونقائس هذه الثياب خاصة . وكان لهذا الصندوق
غطاء مجوف قليلاً يرفع فيتكشف عن عمق . كان الصبي يراه
عظيماً ، ويتكشف عن درجين خفيين كانت أمه تحفظ فيهما حلها
حين كان لها حلى . ثم افتقد الصبي هذا الصندوق في مكانه
من الدار ذات يوم فلم يجده ، وكان كثيراً ما يلعب عنده مع
أخواته ، وكان كثيراً ما يجلس عليه متربعاً وتجلس أخواته بين
يديه على الأرض متربات وهو يقص عليهن أحاديثه ويسمع
منهن أحاديثهن .

افتقد الصبي هذا الصندوق ذات يوم فلم يجده لأنه نُحِلَ إلى النيل حيث أُودِعَ سفينة ذاهبة إلى القاهرة ، وهناك تلقاه الفتى الشيخ فحفظ فيه ثيابه وكتبه التي لم يكن يجد لها مستودعاً . وقد حزن الصبي على هذا الصندوق حزناً شديداً ، واضطر إلى أن يجلس مكانه متربعا على الأرض ليتحدث إلى أخواته ويسمع منهن .

فلما انتقل الصبي إلى القاهرة كان شديد الشوق إلى أن يمس الصندوق ويجلس عليه ويمسح بيده الصغيرة خشبه الأملس . ولكن الصندوق كان بعيداً من مجلسه ، قد وضع في زاوية من زوايا الغرفة فلم يكن ذهاب الصبي إليه سهلاً ولا ميسوراً . فلما اشترى الدولار وانتقلت إليه ثياب الشيخ الفتى وكتبه سقط أمر الصندوق ، فانتقل من مكانه في الغرفة إلى مكان مهمل في الدهليز يكون عن شمال الصبي إذا دخل ، وقيل للصبي ضع في هذا الصندوق ثيابك وما قد يكون لك من كتب إن اشتريت كتباً ، ومنذ ذلك الوقت هجر الصبي مجلسه ذاك من الغرفة أثناء النهار وأستحي أن يجلس على الصندوق فيضحك منه من يراه ، ولكنه جلس إلى جانبه مما يلي عتبة الغرفة مسنداً ظهره إلى الحائط معتمداً

بيده على الصندوق ، متحينا فرصة إن أتيحت له لينهض فيجلس على الصندوق ويداعبه . وقد يرفع غطاءه ويضع يده في هذا الدرج ثم في ذاك ، ولكنه لم يكن يجد فيها شيئا ، وربما انحنى على ثيابه القليلة التي كانت ملقاة في أعماق هذا الصندوق يقبلها مستمتعا بذلك كأنه يملك شيئا ويتخذ له حرزا لا يشاركه فيه غيره ، ولكن الأيام قد مضت وتبعتها الأيام وامتلأ هذا الصندوق كتباً .

وشخص آخر كان يقيم في الربع نازحاً عنه غريباً بين أهله وإن وصلت القرابة بينه وبين بعض هؤلاء الطلاب ، ووصل الود الخالص بينه وبينهم جميعاً . كان قصير النظر لا يكاد يبصر إلا عن قرب شديد ، وكان طويل الجسم ، طويل الإقامة على طلب العلم في الأزهر ، طويل السكنى في هذا الربع ، قد جدّ في طلب العلم ما استطاع ، وجدّ العلم في الهرب منه ما استطاع . فلم يكن غريباً بين الطلاب وحدهم وإنما كان غريباً بين الكتب التي كانت تملأ غرفته أيضاً . شهد الدروس وسمع من الشيوخ فلما استيأس من هذا كله قبع في غرفته لا يكاد ينتقل منها إلا إلى هذه الغرفة أو تلك من غرفات الربع ليتحدث

إلى هذا الصديق أو ذاك ، وقد كان أصدقاؤه منصرفين إلى علمهم ودرسهم فانقطع حتى عن زيارتهم . ولكنه كان طيب القلب سمح النفس ، عذب الحديث ، شديد الوفاء ، سريعاً إلى معونة أصدقاؤه منتظراً بهم إن تعسر الأداء .

فكانوا هم يذكرونه لأنهم كانوا يحبونه ، وكانوا هم يزورونه لأنهم كانوا يستمتعون بحديثه ويجدون اللذة في محضره . ولم تطاوعه نفسه على فراق القاهرة ولا على ترك الربع ، على أنه كان مستيئساً من العلم والدرجة فأقام حيث كان يدبر أمره أو يدبر له أمره وهو مقيم في القاهرة ، لا هو بالطالب ولا هو بالفلاح ولكنه شىء بين ذلك . وما أكثر ما كان يزوره أقاربه وأهل قريته فيحملون إليه من طيبات الريف ما يسرع فيدعو أصدقاءه إلى المشاركة فيه أو يسرع فيحمله إليهم في غرفاتهم . وقد أقام هؤلاء الطلاب ما أقاموا في الربع لا يذكرون هذا الصديق إلا محبين له مثنين عليه . ثم تفرقوا وأخذ كل منهم طريقه ، وانقطعت عنهم أخباره ، ولكنهم ظلوا لا يذكرونه إلا أنشأوا عليه .

وشخص آخر كان يقيم في الربع ولكنه لم يكن يسكن فيه

غرفة بعينها ولا يستقر منه في مكان بعينه ، ولم يكن لقاءه سهلاً ولا التحدث إليه ميسوراً ، وإنما كان هؤلاء الشباب يتحدثون عنه بين حين وحين حديثاً مخطوفاً سريعاً مهموساً يتبعه شيء من الضحك السريع الخفيف الذي كان يقطعه التحفظ والحياء . وكان هذا الشخص يزور ولا يزار ، وكان لا يزور وحده وإنما يزور ومعه شخص آخر . وكان لا يزور في النهار ولا في أول الليل ، ولا يزور في اليقظة وإنما يزور في أوساط الليل وفي أثناء النوم العميق .

وكانت زيارته حلوة البدء مرّة العاقبة . وكانت زيارته تكلف الذين يلم بهم عناء ثقيلاً ، ربما آذاهم في أنفسهم ولكنه كان يؤذيهم في علمهم وفي أجسامهم دائماً ، وكان يعرضهم لليلة أحياناً وللزكام في كثير من الوقت ولا سيما في الشتاء .

وكان هذا الشخص يسمى بين هؤلاء الشباب أبا طرطور . ولم يكن شخصاً آخر إلا الشيطان الذي كان يلم بأحدهم إذا جنّهُ الليل وشمله النوم . فإذا انصرف عنه أفاق الفتى مذعوراً ضيق النفس متأثماً متحرجاً وانتظر حتى يدنو الفجر ، فهب من فراشه عجلاً وجلاً حريصاً على أن يَطَّهَّرَ ليدرك درس الفجر . فأما في

الصيف فقد كان الأمر يسيراً محتملاً ، وأى شيء أيسر وأحب من أن يغمس الفتى نفسه في الماء البارد في هذا المغطس أو ذاك من هذا المسجد أو ذاك ، أو أن يصبّ الفتى على جسمه مقداراً من الماء البارد يعم جسمه ويحقق شرائط الغسل كما فرضتها كتب الفقه . ولكن الجهد كل الجهد والعذاب كل العذاب حين يلم أبو طرطور بالفتى في ليلة من ليالى الشتاء . هنالك لا يجد الفتى الوقت لإسخان الماء ولا يجد الوقت وقد لا يجد النقد للذهاب إلى حمام من هذه الحمامات العامة ، وحسب أبى طرطور أن يضع على الفتى وقته فإما أن يضع عليه نقده فلا .

ولا بدّ من الذهاب إلى الأزهر ، ولا بدّ من الاستماع إلى الدرس ، ولا بدّ من أن يكون الفتى طاهر النفس والجسم معاً . وإذن فهو الماء البارد يصب على الجسم في البيت صباً سريعاً ثم الخروج إلى الأزهر ، والخير أن يغمس الفتى نفسه في مغطس من مغطس المساجد ذلك لا يكلفه شيئاً إلا البرد والرعشة . فالماء في البيت يشتري وما ينبغي أن يستنفد في غير الشرب إلا أن تقضى بذلك الضرورة . ولا بد من أن تحمل الضرورة نفسها على الاقتصاد .

وكان أبو طرطور ملجأ في زيارته على هؤلاء الشباب ، كأنما أقام في أعلى سلم الربع محتفياً في تلك الزاوية حيث لا يسمع ما كان الطلاب يدرسونه من العلم ويقرأونه من الكتب . فإذا انصرف الطلاب عن علمهم أو كتبهم وخلوا إلى ذلك الشيخ الذي كان يسكن أقصى الربع من شمال أو ذلك الكهل الذي كان يسكن أقصى الربع من يمين ، وثب أبو طرطور فدخل عليهم غرفتهم من حيث لا يرونه ولا يسمعون ولا يحسونه ثم انسل فمضى حتى ركب كتفى الشيخ أو كتفى الكهل أو تقمصه وتحدث بصوته ولسانه إلى هؤلاء الشبان فأثار في نفوسهم ورؤسهم هذه الخواطر المنكرة التي كانت تصرفهم عنها الكتب . فإذا تفرقوا عن شيخهم أو كهلم ، وآووا إلى مضاجعهم وأغرقوا في نومهم ، كان أبو طرطور قد اختار منهم فريسته فزاره زيارته المنكرة الأيمة .

وربما استخفى أبو طرطور في زاويته تلك من أعلى السلم ، حتى إذا صعدت تلك الفتاة من الطبقة السفلى إلى الطبقة العليا تحمل إلى أحد هؤلاء الطلاب ثيابه غسيلة نظيفة ، أو تأخذ من أحد هؤلاء الطلاب ثيابه لتغسلها وتنظفها ؛ اعترضها أبو طرطور

فسايرها لا يُرى ولا يسمع ولا يحس . فلا تكاد تدخل على أحد هؤلاء الطلاب ، حتى يستحيل أبو طرطور نظرة تلقى من طرف هذه الفتاة ، أو كلمة تجرى على لسانها ، أو ابتسامة ترتسم على شفيتها أو حركة تنبعث من أحد أعضائها .

ثم تنصرف الفتاة وينصرف معها أبو طرطور لم ير ولم يسمع ولم يحس ، ولكنه مع ذلك قد ضرب للفتى موعداً حين يجنيه الليل ويشمله النوم . وربما أمعن أبو طرطور في البراعة وغلا في المكر والكيد ، فلم يكلف نفسه الصعود إلى أعلا السلم وإنما اندس في الطبقة السفلى ، واختلط بأولئك النساء اللاتي كن يختصمن أحياناً ويتصاحكن أحياناً ، ويتحدثن بأصوات مرتفعة يشكنها أشكالاً مختلفة على كل حال ؛ فيستحيل أبو طرطور إلى جوهر لطيف يجرى في صوت من هذه الأصوات ، أو حركة من هذه الحركات ، ويرتفع هذا الصوت أو هذه الحركة بأبي طرطور أو يرتفع هو بهذا الصوت أو بهذه الحركة ، حتى يبلغ الفتى في الطبقة العليا وينصرف عنه لوقته وقد ألقى في نفسه شراً خفياً وضرب له موعداً حين يجنيه الليل ويشمله النوم .

وكذلك لم تكن حياة هؤلاء الطلاب في ربعمهم وفي أزهرهم
صفوًّا كلها، ولا علمًا كلها، ولم تكن حياة الصبي بين هؤلاء
الطلاب صفوًّا خالصًا، ولا علمًا خالصًا، وإنما كان يلم بهم
أبو طرطور فيحمل إليهم عذابًا حلواً مرًّا، ويسمع الصبي من
أحاديثهم ما كان يدعو به إلى التفكير .

(١٢)

على هذا الربع أقبل الصبي وفي هذه البيئة عاش . وأكبر
الظن أن ما اكتسب فيهما من العلم بالحياة وشؤونها والأحياء
وأخلاقهم لم يكن أقل خطراً مما اكتسبه في بيئته الأزهرية
من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد .

ولم يكد الصبي يستقر في ربه يومين أو ثلاثة ، حتى أسلمه
أخوه إلى أستاذ كان قد ظفر بالدرجة أثناء الصيف ، وكان
سيبدأ الدرس ويجلس مجلس الأستاذ من صغار التلاميذ لأول
مرة في حياته . وكان قد بلغ الأربعين أو كاد يبلغها . وكان
معروفاً بالتفوق مشهوراً بالذكاء . قد غالب الحظ فعلبه ، وإن لم
يكن انتصاره على الحظ ملائماً لحقه في الفوز ، فقد ظفر بالدرجة
الثانية . وعد هذا انتصاراً . وقصر عن الدرجة الأولى وعد هذا
ظالماً . وكان ذكاؤه مقصوراً على العلم . فإذا تجاوزه إلى الحياة
العملية فقد كان إلى السذاجة أدنى منه إلى أى شيء آخر .
وكان يُعرف بين أصدقائه الطلاب والعلماء بأنه محب لبعض لذاته
المادية متهاك عليها ، يفرض عليه مزاجه ذلك ولا تفرضه عليه

رذيلة أو فساد خلق مألوف، وكان كثير الأكل قد شهر بأنه
يتهالك على اللحم ولا يستطيع أن ينقطع عن أكله والإسراف
فيه يوماً واحداً . وكان ذلك يكفه عناء كثيراً .

وكان إلى هذا غريب الصوت إذا تحدث . كان صوته
متهدجاً منكسراً يقطع الحروف تقطيعاً ، ويتراكم مع ذلك بعضه
فوق بعض وتنفرج شفتاه عن كلامه أكثر مما ينبغي ، فلا يكاد
يسمعه المتحدث إليه حتى يضحك ، ولا يكاد يمتص في الحديث
معه حتى يقلد فتور صوته وتكسره وانفراج الشفتين عنه .

ولم يكد يظفر بدرجة العالمية حتى أسرع إلى شارة العلماء
فاتخذها ولبس الفراجية متعجلاً لبسها ، ولم يكن العلماء يتخذون
هذه الشارة إلا بعد أن يبعد عهدهم بالدرجة وتعرف لهم في العلم
سابقة وقدمه وتيسر لهم حياتهم المادية شيئاً .

ولكن صاحبنا أسرع إلى الفراجية فلبسها وأضحك منه أصحابه
من الطلاب وأساتذته من الشيوخ ، وزادهم ضحكا منه وتندراً عليه
أنه كان يلبس الفراجية ويمشى حافياً في نعليه ، إن صح هذا
التعبير . لا يتخذ الجوارب عجزاً منه عنها أو زهداً منه فيها . وكان
إذا مشى في الشارع تتأقل وتباطأ واصطنع وقار العلماء وجلال

العلم ، فإذا خطا عتبة الأزهر ذهب عنه وقاره وفارقتة أناته ولم
يمش إلا مهرولاً .

وقد عرف الصبي رجليه قبل أن يسمع صوته . فقد أقبل
على مكان درسه لأول مرة مهرولاً كما تعود أن يمشى ، فعثر
بالصبي وكاد يسقط من عثرته ، ومست رجلاه العاريتان اللتان
خشن جلدهما وتقطع يد الصبي . ثم مضى حتى جلس وأسند لأول
مرة ظهره إلى ذلك العمود الذي تمنى أن يسند ظهره إليه معلماً .

وكان كغيره من أقرانه في ذلك الوقت بارعاً في العلوم
الأزهرية كل البراعة ساخطاً على طريقة تعليمها سخطاً شديداً
قد بلغت تعاليم الأستاذ الامام قلبه فأثرت فيه ولكنها لم تصل
إلى أعماقه . فلم يكن مجدداً خالصاً ولا محافظاً خالصاً وإنما كان
شيئاً بين ذلك . وكان هذا يكفي لينظر الشيوخ إليه شذراً وليلحظوه
في شيء من الريبة والاشفاق . ولم يكد يبدأ درسه الأول في
الفقه حتى أعلن إلى تلاميذه أنه لن يقرأ لهم كتاب « مراقى الفلاح
على نور الايضاح » كما تعود الشيوخ أن يقرأوا للتلاميذ المبتدئين ،
ولكنه سيعلمهم الفقه في غير كتاب بمقدار ما في « مراقى الفلاح » .
فعلهم إذن أن يسمعوا منه ويفهموا عنه وأن يكتبوا ما يحتاجون

إلى كتابته من المذكرات . ثم أخذ في درسه فكان قيماً ممتعاً . وسار هذه السيرة في درس النحو فلم يقرأ للتلاميذ « شرح الكفراوى » ، ولم يعلمهم الأوجه التسعة لقراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها ، وإنما هيأهم للنحو تهيمته حسنة وعرفهم الكلمة والكلام والاسم والفعل والحرف فكان درسه سهلاً ممتعاً أيضاً .

وسئل الصبى أثناء شأى العصر عما سمع من أستاذه فى الفقه والنحو فلما أعاد على أخيه وأصحابه ما سمع رضيت الجماعة عن الشيخ وعن منهجه وأقرت طريقته فى التعليم . وجعل الصبى يختلف إلى هذين المدرسين لا يتجاوزهما أياما لا يذكر عددها ، ولكنه كان يسأل نفسه متى ينتسب إلى الأزهر ويصبح طالبا مقيدا فى سجلاته . فلم يكن فى هذه الأيام إلا صبيا يستمع إلى هذين المدرسين استماعا منظما محتوما ، ويستمع إلى درس الحديث الذى كان يلقي بعد صلاة الفجر لا شئ إلا لأنه كان ينتظر أن يفرغ أخوه من درس الأصول وأن يحين الوقت الذى يبدأ فيه درس الفقه .

وقد أقبل اليوم المشهود فأنبى الصبى بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان فى حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر .

ولم يكن الصبي قد أنبىء بذلك من قبل ، فلم يتهيأ لهذا الامتحان .
ولو قد أنبىء به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك
اليوم ، ولكنه لم يفكر في تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة .
فلما أنبىء بأنه سيمتحن بعد ساعة خفق قلبه وجلا وسعى إلى
مكان الامتحان في زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرب
النفس أشد الاضطراب ، ولكنه لم يكد يدنو من المتحنيين حتى
ذهب عنه الوجل فجأة ، وامتلاً قلبه حسرة وألماً ، وثارت في نفسه
خواطر لاذعة لم ينسها قط . فقد انتظر أن يفرغ المتحنيان من
الطالب الذى كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد المتحنيين
يدعوه بهذه الجملة التى وقعت من أذنه ومن قلبه اسوأ وقع
« أقبل يا أعمى . »

ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فانهضه في غير رفق وقاده إلى
المتحنيين في غير كلام ، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقّت
إليه . فقد كان تعود من أهله كثيراً من الرفق به وتجنباً لذكر
هذه الآفة بمحضره . وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته
ولم يشغل قط عن ذكرها . ومع ذلك فقد جلس أمام المتحنيين
وطلب إليه أن يقرأ سورة الكهف ، فلم يكد يمضى في الآيات

الأولى منها حتى طلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت ، فلم يكذ
يمضى فى الآيات الأولى منها حتى قال له أحد الممتحنين
« انصرف يا أعمى فتح الله عليك » .

وقد دهش الصبي لهذا الامتحان الذى لا يصور شيئاً ولا يدل
على حفظ . وقد كان ينتظر على أقل تقدير أن تمتحنه اللجنة على
نحو ما كان يمتحنه أبوه الشيخ . ولكنه انصرف راضياً عن نجاحه ،
ساحطاً على ممتحنيه ، محترقاً لامتحانهما . ولم يخرج من زاوية
العميان قبل أن يعطف به أخوه على بعض أركانها ، فتلقاه هناك
أحد الفراشين ، أو أحد المشدين بلغة ذلك الوقت ، فأخذ ذراعه
اليمنى ، وأدار حول معصمه سواراً من الخيط جمع طرفيه بقطعة
مختومة من الرصاص ، وقال له انصرف فتح الله عليك .

ولم يفهم الصبي لهذا السوار معنى ولكن أخاه أنبأه بأن هذا
السوار سيظل حول معصمه أسبوعاً كاملاً حتى يمر أمام الطبيب
الذى سيمتحن صحته ويقدر سنه ويطعمه التطعيم الواقى من
الجدري .

وقد كان الصبي خليقاً أن يتهيج بهذا السوار الجديد الذى كان
يدل على أنه مرشح للانتساب إلى الأزهر ، قد جاز المرحلة الأولى من

مراحله ، لولا أنه ظل مشغولاً عن السوار بدعوة الممتحن له وصرفه
إياه . وأنفق أسبوعه كما تعود أن ينفق أيامه ، مستيقظاً على صوت
عم الحاج على ذاهباً إلى الأزهر مع الفجر ، عائداً منه بعد درس
الفقه ، ثم ذاهباً إلى الأزهر مع الظهر ، ثم راجعاً منه بعد درس
النحو ؛ ثم مقياً في مجلسه ذاك فناماً في مجلسه ذاك فغادياً على
الأزهر حين يسمع نداء المؤذن بأن الصلاة خير من النوم .
وجاء يوم الامتحان الطبي فذهب إليه الصبي وفي نفسه شيء
من الإشقاق أن يدعو الطبيب كما دعاه الممتحن .

ولكن الطبيب لم يدعه لأنه لم يكن يدعو أحداً وإنما دفعه
أخوه إلى الطبيب دفعاً ، فأخذ ذراعه وخط فيها خطوطاً ، وقال
« خمسة عشر » وانتهى الأمر عند هذا الحد . وأصبح الصبي
طالباً منتسباً إلى الأزهر . ولم يكن قد بلغ السن التي ذكرها
الطبيب والتي لم يكن بد منها لصحة الانتساب ، وإنما كان
في الثالثة عشرة من عمره . وقد حل السوار عن معصمه وعاد
إلى غرفته وفي نفسه شك مؤلم لنيد في أمانة الممتحنين وفي
صدق الطبيب .

(١٣)

وكانت هذه الحياة شاقة على الصبي وعلى أخيه معاً . فأما الصبي فقد كان يستقل ما كان يقدم إليه من العلم ويتشوق إلى أن يشهد أكثر مما كان يشهد من الدروس ، ويبدأ أكثر مما كان قد بدأ من الفنون . وكانت وحدته في الغرفة بعد درس النحو قد ثقلت عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتلالاً ؛ وكان يود لو استطاع الحركة أكثر مما كان يتحرك والكلام أكثر مما كان يتكلم . وأما أخوه فقد ثقل عليه اضطرابه إلى أن يقود الصبي إلى الأزهر وإلى البيت مصباحاً وممسياً . وثقل عليه أيضاً أن يترك الصبي وحده أكثر الوقت ، ولم يكن يستطيع أن يفعل غير هذا ، فلم يكن من الممكن ولا من الملائم لحياته ودرسه أن يهجر أصدقاءه ويتخلف عن دروسه ويقيم في تلك الغرفة ملازماً للصبي مؤنساً له .

ولم يتحدث الصبي بذات نفسه إلى أحد ، ولم يتحدث أخو الصبي إليه بذات نفسه أيضاً . وأكبر الظن أنه تحدث بذلك إلى أصدقائه غير مرة . ولكن المشكلة بلغت أقصاها ذات ليلة

وانتهت إلى الحل بعد ذلك دون أن يقول الصبي لأخيه شيئاً
أو أن يقول له أخوه شيئاً .

دعيت الجماعة ذات يوم إلى أن تسمر عند صديق لها سورى
لا يسكن الربع ولا يسكن الحى . وقبلت الجماعة دعوة الصديق
ومضى اليوم كما تعودت الأيام أن تمضى . وذهبت الجماعة إلى
درس الأستاذ الامام ثم عادت منه بعد صلاة العشاء ، ليمتخف
كل واحد منها مما كان يحمل ، من محفظته وأوراقه .

وهياً الشيخ الفتى أخاه الصبي لنومه كما كان يفعل كل ليلة .
وانصرف عنه بعد أن أطفأ المصباح كما كان ينصرف كل ليلة .
ولكنه لم يكد يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلب الصبي
على نفسه فأجهش ببكاء كظمه ما استطاع ، ولكنه وصل في
أكبر الظن إلى أذن الفتى . فلم يغير رأيه ولم يصرفه عن سمره ،
وإنما أغلق الباب ومضى في وجهه . وأرضى الصبي حاجة نفسه
إلى البكاء ثم عاد إليه اطمئنانه شيئاً فشيئاً . ومثل قصته التي
كان يمثلها في كل ليلة ، فلم يستسلم إلى النوم إلا بعد أن عاد
أخوه . ولكنه أصبح فإذا أخوه يقدم إليه بعد درس الفقه وبعد
أن أظفر ألواناً من الحلوى كان قد اشتراها له في طريقه إلى

العودة من سمره . وقد فهم الصبي عن أخيه وفهم أخوه عنه ،
فلم يقل أحدهما لصاحبه شيئاً .

ومضى يوم ويوم آخر وأخذ الشيخ الفتي كتاباً من الحاج
فيروز ففضه ونظر فيه ثم قال لأخيه وقد وضع يده على كتفه ،
وامتلاً صوته حناناً ورفقاً « لن تكون وحدك في الغرفة منذ غد ،
فسيحضر ابن خالتك طالباً للعلم وستجد منه مؤنساً ورفيقاً . »

(١٤)

وكان ابن خالته هذا رفيق صباه ، وكان له صديقاً وعنده أثيراً .
 وكان كثيراً ما يهبط من بلدته في أعلى الاقليم لزيارة الصبي ،
 فينفق معه الشهر أو الأشهر ، يختلفان معاً إلى الكتاب فيلعبان
 وإلى المسجد فيصليان ثم يعودان مع الأصيل إلى البيت فيقرآن
 في كتب القصص والسمر ، أو يمضيان في ألوان من العبث
 أو يخرجان للنزهة عند شجيرات التوت التي كانت تقوم على
 حافة الابراهيمية . وكانا كثيراً ما أدار بينهما ألواناً من الأمانى
 والأحلام . وكانا قد تعاهدا على أن يذهبا معاً إلى القاهرة ويطلبا
 العلم معاً في الأزهر .

وكثيراً ما هبط ابن خالته من مدينته في أعلى الاقليم في
 آخر الصيف وقد أعطته أمه نقوداً وأعدت له زاداً وودعته على
 أنه سيذهب مع ابن خالته إلى القاهرة ليطلبا فيها العلم معاً .
 ولكنه كان يشارك صديقه في الانتظار ثم في الغضب ثم في الحزن
 والبكاء . لأن الأسرة رأت أو لأن الشيخ الفتى رأى أن الوقت
 لم يؤن لذهابهما إلى القاهرة . ثم كانا يفترقان ويعود الصديق
 إلى أمه محزوناً كئيباً .

فلا غرابة في أن يقع هذا الخبر من نفس الصبي موقعاً حسناً .
ولا غرابة في أن يقضى الصبي مساءه راضياً مبتهجاً لا يفكر إلا
في غد وقد أقبل الليل وملاً الغرفة بظلمته . ولكن الصبي لم
يسمع للظلمة في تلك الليلة صوتاً ولا حديثاً . وأكبر الظن أن
حشرات الغرفة قد لعبت كما كانت تفعل في كل ليلة . ولكن
الصبي لم يسمع لها صوتاً ولم يحس لها حركة .

وقد أرق الصبي ليلته كلها ، ولكنه كان أرقاً فرحاً مبتهجاً ،
فيه كثير من تعجل الوقت واستبطاء الصبح ، وقد ذهب الصبي
إلى درس الحديث فسمع صوت الشيخ وهو يتغنى بالسند والمثنى ،
ولكنه لم يلق إلى الشيخ بالاً ، ولم يفهم عنه شيئاً . وذهب
بعد ذلك إلى درس الفقه فاستمع له لأنه لم يجد عن ذلك بدءاً ،
فقد كان أخوه أوصى به الشيخ وكان الشيخ يحاوره وينظره
ويضطره إلى أن يسمع له ويفهم عنه . ثم عاد الصبي إلى الغرفة
في الضحى فأنفق وقته هادئاً قلقاً .

هادئاً في ظاهر الأمر فقد كان يكره كل الكره أن يظهر أخوه
أو أصحابه على أن شيئاً من أمره قد تغير قليلاً أو كثيراً . وقلقاً
في دخيلة نفسه يتعجل الوقت ويستبطئ العصر الذي سيصل
فيه القطار إلى محطة القاهرة .

وقد دعا المؤذن بصلاة العصر آخر الأمر ولم يبق بين الصبي وابن خالته إلا هذا الوقت القصير الذى تقطع فيه عربة من عربات النقل هذه المسافة بين المحطة وبين الحى ، سالكة باب البحر فباب الشعرية منتهية إلى هذا الباب الذى ستنعطف نحوه ، فتمر بين دخان القهوة وقرقرة الشيشة .

وهاتان قدمان تضربان أرض الربع لا يتردد الصبي فى معرقتهما ، وهذا ابن خالته يقبل فيلقى عليه سلامه ضاحكاً ، ثم يعتنقان ضاحكين ، وهذا سائق العربة يتبعه وقد حمل ما أرسلته الأسرة إلى الطالبين من الترف والزاد . ومن المحقق أن العشاء سيكون دسماً هذه الليلة ، وأن الأصدقاء جميعاً سيشاركون فيه ، وأن الصبيين لن يخلوا لأنفسهما وأحاديثهما إلا حين يذهب القوم ليشهدوا درس الأستاذ الامام .

ولكن من المحقق أيضاً أن حياة الصبي قد تغيرت كلها منذ ذلك اليوم ، فذهبت عنه العزلة حتى رغب فيها أحياناً وكثر عليه العلم حتى ضاق به أحياناً أخرى .

(١٥)

وأيسر ما تغير من حياته المادية أنه هجر مجلسه من الغرفة على البساط القديم الذى بسط على الحصير البالى العتيق فلم يعرفه إلا حين كان يجلس للافطار أو للعشاء ؛ وحين كان يأوى إلى مضجعه حين يتقدم الليل وإنما كان يقضى يومه كله أو أكثره فى الأزهر ، وفيما حوله من المساجد التى كان يختلف فيها إلى بعض الدروس . فإذا عاد إلى الربع لم يدخل الغرفة إلا ليتخفف من عباءته ، ثم يعود فيخرج منها ليجلس مع صاحبه على فراش ضيق من اللبد قد فرش أمامها وأخذ أكثر الطريق على المارة فلم يخل لهم منه إلا موضع أقدام الرجل الواحد أو الرجلين .

وفى هذا المجلس كان الصبيان يلهوان بالحديث قليلا وبالقراءة كثيراً . وقد يفرغان لما كان يجرى فى الطبقة السفلى من حركة وحديث ، يسمع أحدهما ويرى أحدهما الآخر ويفسر لصاحبه ما لا يرى .

وكذلك عرف الصبي الربع أكثر مما كان يعرفه . وعرف من شؤون اهله أكثر مما كان يعرف ، وسمع من أحاديثهم أكثر مما

كان يسمع . عاش جهرة بعد أن كان يعيش سراً . ولكن حياته
الخصبة الممتعة منذ أقبل عليه صديقه لم تكن في الغرفة ولا في
الربع وإنما كانت في الأزهر نفسه . فقد استراح الصبي من
درس الفجر وتلبث في غرفته حتى يدنو درس الفقه . فكان
يستمتع إذن مع صديقه بصوت الشيخ الموسوس حين كان يقيم
الصلاة في كل يوم ، بعد أن كان لا يستمتع بهذا الصوت إلا
يوم الجمعة من كل أسبوع .

فإذا حان وقت الدرس خرج مع صاحبه إلى الأزهر فسلك
نفس الطريق التي كان يسلكها مع أخيه ، ولكنهما يسلكان هذه
الطريق متحدثين بالجد مرة وبالهزل مرة أخرى . وقد ينحرفان
عن حارة الوطاويط تلك القذرة إلى شارع خان جعفر ذلك
النظيف ، ويخلصان على كل حال إلى شارع سيدنا الحسين .
والغريب أن الصبي تعود منذ أقبل صديقه عليه ألا يمر بمسجد
سيدنا الحسين ولا يدخله إلا قرأ الفاتحة . عوده صديقه هذه
العادة فدأب عليها . وقد تقدمت به السن واختلفت عليه أطوار
الحياة وما يذكر أنه مر بمسجد سيدنا الحسين إلا قرأ في نفسه
هذه السورة الكريمة من سور القرآن .

وكان أخو الصبي قد خصص له ولصاحبه مقداراً يسيراً جداً من النقد ثمناً لافطارهما ، على أن يأخذا بعد درس الفقه جراية الشيخ الفتى من رواق الحنفية ، وكانت أربعة أرغفة ، فيأكلان منها رغيفين إذا أفطرا ويحفظان منها رغيفين للعشاء . ومع أن هذا المقدار الذى خصص لهما من النقد قد كان يسيراً ضئيلاً لا يتجاوز القرش الواحد فى كل يوم ، فقد عرفا كيف يحتالان وكيف يقتصدان ليمتعا أنفسهما ببعض ما كانت نفوسهما تتوق إليه من طرائف الطعام والشراب . وما يمنعهما أن يغدوا ذات صباح مع الطير . فاذا تجاوزا ذلك الباب المقفل من فجوته الضيقة ، واستدارا ليأخذا طريقهما نحو الأزهر ، وقفا عند بائع البليلة فأخذ كل منهما قدرًا من هذا الطعام الذى كانا يحبانه أشد الحب لكثرة ما أكلا منه فى الريف ولكثرة ما كان يوضع عليه من السكر الذى يختلط بحباته الغلاظ ويذوب فى مائه الشديد الحرارة جداً ، فلا يكادان يسيغانه حتى يطرد عنهما بقية النوم ، ويشيع فى جسمهما النشاط ويشير فى أفواههما وأجوافهما لذة كانا يقدرانها قدرها ، ويهيئهما تهيئة صالحة لدرس الفقه ، يسمعان لحديث الشيخ وقد عمرت بطونهما ورؤوسهما معاً .

وما يمنعهما إذا كانا في شارع سيدنا الحسين أن يعطفا على هذا البائع أو ذاك فيجلسا على مجلس ضيق من الخشب قد ألقى عليه حصير ضيق أحياناً ، ولم يلق عليه شيء أحياناً أخرى . ولكنه كان وثيراً على كل حال ، لأن الجلوس عليه كان يصحبه انتظار لذة كان يحبها ويقدرانها ، لذة هذا التين المرطب الذي يقدم إليهما في إناء صغير فيلتهمانه التهاماً ثم يعبان في مائه عباً ثم يأكلان ما كان تحته من زبيب في أناة وهدوء . وما يمنعهما حين يعودان قبل العصر أو بعيدة أن يجورا على ثمن العشاء فيقفا عند بائع الهريسة أو بائع البسبوسة ويرضيا لذتهما البريئة إلى هذا اللون من الحلوى أو ذاك . وليس على إفطارها ولا على عشاءهما بأس .

فأما الإفطار فقد كان أمره يسيراً جداً . زيارة لبائع من هؤلاء الباعة الذين كانوا يعرضون الفول النبات ، ومعهما رغيفاهما وهما يدفعان إلى هذا البائع مليمين ونصف مليم ، وقد اشتريا بنصف مليم حزمة أو حزمتين من كراث ، وهذا البائع يقبل عليهما بإناء ضخمة عميق قد امتلأ مرقاً وسبحت فيه حبات من الفول وألقى عليه قليل من زيت ، فهما يغمسان خبزهما في

المرق ويتصيدان ما تيسر من حب ، ويلتھمان ماتحملھ یدھا
الیسری إلى أفواھھا من الکراث ؛ وما یبلغان آخر الرغیف
وآخر الکراث حتی یبلغا حظھما من الطعام وقد امتلأ حتی
کادا یکتظان . ولكن فی الإناء بقیة من مرق فکان الصبی
یستحی أن یجیب صاحبه إلى ما یعرض علیه من شرب هذا
المرق . وكان صاحبه یضحک منه ویرفع الإناء فیعب فیہ حتی
یرده إلى البائع نظیفاً .

فقد أفطر إذن ولم ینفقا أكثر من ثلاثة ملیات . وقد غنا
ما طعما قبل الدرس . وما علیھما الآن إلا أن یعودا إلى الأزھر
لیرضیا عقولھما بعد أن رضیت أجسامھما . وكان الصبی قد حرص
کل الحرص على أن یواظب على درس شیخه المجدد المحافظ
فی الفقه والنحو ، طاعة لأخیه من جهة وإرضاء لنفسه من جهة
أخری . ولكنه کان شدید الطمع فی أن یسمع لغير هذا الشیخ
وأن یدوق غیر هذین اللونین من ألوان العلم . وقد أتیح له ذلك
فی غیر مشقة ولا جهد بفضل هذه الدروس التي كانت تلقی فی
الضحی بعد أن یفرغ الطلاب من أفطارھم . وقد قرر الصدیقان
أن یحضرا شرح الکفراوی وكان یلقى فی الضحی من کل يوم .

يلقيه شيخ جديد ولكنه قديم . جديد في الدرجة ، قديم في الصلة بالأزهر . قد تقدمت به السن وطال عليه الطالب حتى ظفر بدرجته وبدأ كما كان يبدأ أمثاله بقراءة « شرح الكفراوى » .

وكان الصبي يسمع من شيخه الأول ومن أخيه وأصحابه عبثاً كثيراً بشرح الكفراوى ، وسخطاً كثيراً عليه فكان ذلك يغريه به ويرغبه فيه .

وما هى إلا أن يحضر الدرس الأول ويسمع الأوجه التسعة فى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها حتى يفطن بهذا اللون من العلم ويكلف به أشد الكلف . وإذا هو يواظب مع صاحبه فى دقة على هذا الدرس من دروس النحو ويواظب فى دقة أيضاً على درسه القديم . وكان يرى أنه يتعلم النحو فى درسه القديم وأنه يلهو بالنحو فى درسه الجديد . وكان يلهو فى درسه الجديد حقاً ، يلهو بهذا الإعراب المتصل الذى ألح فيه الشارح على المتن إلحاحاً شديداً . ويلهو خاصة بالشيخ الذى كان يقرأ متنه وشرحه ويفسر ما يقرأ فى صوت غريب مضحك حقاً . لم يكن يقرأ وإنما كان يغنى ، ولم يكن غناؤه يصعد من صدره وإنما كان يهبط من رأسه . وكان صوته قد جمع بين خصلتين متناقضتين فكان أصم مكظوماً وكان ممتداً عريضاً .

وكان الشيخ على ذلك من أهل الصعيد أو قل من أقصى
الصعيد وكان قد احتفظ بلهجته الاقليمية لم يغير منها شيئاً لافى
الكلام ولا فى القراءة ولا فى الغناء . وكان الشيخ على هذا
كله غليظ الطبع يقرأ فى عنف ويسأل الطلاب ويرد عليهم
فى عنف . وكان سريع الغضب لا يكاد يسأل حتى يشتم فإن ألح
عليه السائل لم يعفه من لكمة إن كان قريباً منه ، ومن رمية
بجذائه إن كان مجلسه منه بعيداً . وكان حذاء الشيخ غليظاً كصوته
جافياً كثيابه — فلم يكن يتخذ العباءة وإنما كان يتخذ
الدفية — كان حذاء الشيخ غليظاً جافياً وكانت نعله قد ملئت
بالمسامير . وكان ذلك أمتن للحذاء وأمنع له من البلى . ففكر
فى الطالب الذى كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء فى وجهه أو فى
يبدو من جسمه .

ومن أجل هذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلوا بينه
وبين القراءة والتفسير والتقرير والغناء . ومن أجل ذلك لم يضع
الشيخ وقته ولا وقت الطلاب . بدأ سنته الدراسية بشرح الكفراوى
ولم تنته هذه السنة حتى كان قد أتم شرح الشيخ خالد .

فقرأ الطلاب فى سنة دراسية واحدة كتابين ، على حين لم

يكن غيرهم يقرأون مع غير هذا الشيخ إلا كتاباً واحداً .
وعلى حين لم يكن ذلك الشيخ المجدد المحافظ قد تجاوز بطلابه
القليين الأبواب الأولى من النحو .

وكان لهذا كله أثره في حياة الصبي النحوية إن صح هذا
التعبير . فقد قضى إجازة الصيف وعاد إلى القاهرة فلم ير شيخه
المحافظ المجدد وإنما سلك طريق غيره من الأزهرين فحضر في
الفقه شرح الطائى على الكنز ، وحضر في النحو حاشية العطار
على شرح الأزهرية . ولكن من الخير ألا نتعجل الحوادث ،
وأن نبقى مع صاحبنا في سنته الأولى .

كان إذن يفرغ من درس الضحى فينتقل إلى درس الظهر
ثم يعود إلى غرفته فيقرأ مع صاحبه مطالعاً دروس غد كما كان
يفعل أصحاب الجد من الطلاب ، أو متنقلاً بين كتب مختلفة يفهم
عنها أو لا يفهم . فإذا دعيت الشمس إلى غروبها أقبل الصديقان
على عشاءهما وكان يختلف رقة وغلظاً باختلاف ما بقي لهما من
نقدهما . فإن كان قد بقي لهما نصف القرش قسماه نصفين فاشترى
بنصفه شيئاً من الحلوة الطحينية وبنصفه الآخر شيئاً من الجبن
الرومى ، وأقبلا على عشاء مترف لذيذ يجمعان فيه على القمة

الواحدة قطعة من الجبن وقطعة من الحلاوة ، ويريان لهذا المزاج
الغريب طعمًا لذيذًا . وإن كانت البلية أو التين قد أسرفا عليهما
في نقدهما فلم يبق لهما منه إلا ربع القرش اشتريا بما بقي لهما
شيئًا من الطحينة ثم صبا عليه شيئًا من عسل أسود أو أبيض
كان يأتيهما من الريف ، ثم أقبلا على عشاء ليس بالفخم ولكنه
لا بأس به .

فإن جارت البلية أو التين أو كلاهما على نقدهما فلم يبقيا منه
شيئًا فليس عليهما من بأس ، لقد حفظا رغيفيهما ، وفي الغرفة
هذه الصفيحة أو تلك . في هذه العسل الأسود وفي هذه العسل
الأبيض ، فليأخذا من هذا العسل شيئًا وليغمسا فيه رغيفيهما
فذلك يجزئ عما كانا في الحلاوة والجبن والطحينة من ترف .

وربما أباحا لأنفسهما على هذا البؤس شيئًا من ترف فغمسا
رغيفيهما الأول وقد اقتسماه في العسل الأسود ، ثم غمسا رغيفيهما
الثاني وقد اقتسماه أيضًا في العسل الأبيض .

وقد جعلت الشمس تسرع إلى غروبها وكاد المؤذن يصعد إلى
مئذنته فليسرع الصديقان إذن إلى الأزهر فهما يحضران درسًا
بعد صلاة المغرب كما يفعل أولئك الطلاب الكبار . هما يحضران

درساً في المنطق . يحضران متن السلم للاخضرى . ومن الحق
أنهما كان يحضران هذا الدرس على شيخ كان يرى نفسه عالماً
وإن لم يعترف له الأزهر بالعالية . طال عليه الوقت واشتد
إلحاحه في طلب الدرجة فلم يظفر بها ولكنه لم ييأس منها ولم
يرض بحكم المتحنيين فيه فجعل يطاولهم من جهة ويغيظهم من
جهة أخرى . يطاولهم بحضور الدروس والتقدم للامتحان ويغيظهم
بالجلوس إلى أحد الأعمدة إذا صليت المغرب ومن حوله جماعة من
الطلاب وهو يقرأ لهم كتاباً في المنطق كما يقرأ العلماء الممتازون .
فلم يكن يهجم على تعليم المنطق إلا هؤلاء العلماء الممتازون .

ومن الحق أن ذلك الطالب الشيخ لم يكن بارعاً في العلم
ولا ماهراً في التعليم ، وأن جهله وعجزه كانا يظهران حتى لهؤلاء
التلاميذ المبتدئين . ومن الحق أنه كان من أقصى الصعيد وكان
محتفظاً ببلهجته كما عرفها قبل أن يقبل على الأزهر ولم يكن
يغير منها شيئاً في قراءته وحديثه .

ومن الحق آخر الأمر أنه كان سريع الغضب شديد الخلة ،
ولكنه لم يكن يشتم التلاميذ ولا يضربهم أو لم يكن يجراً على
شتم التلاميذ وضربهم فما ينبغي ذلك إلا للعالم حقاً وصدقاً ،

الذى نال الدرجة ونال معها الإذن الضمى بشتم التلاميذ
أو ضربهم .

كل هذا كان حقاً ، وكل هذا سمعه الصديقان من أولئك
الطلاب الكبار ولكنه لم يمنعهما من حضور الدرس والمواظبة
عليه ليقولا لأنفسهما أنهما يدرسان النطق وليقولا لأنفسهما
أنهما يذهبان إلى الأزهر بعد صلاة المغرب ويعودان منه بعد
صلاة العشاء كما يفعل الطلاب الكبار المتقدمون .

وما أسرع ما انقضت السنة الأولى ، وما أسرع ما ختمت
دروس الفقه والنحو . وما أسرع ما دعى التلاميذ إلى التفرق
ثم إلى الرحيل إلى حيث ينفقون الصيف بين أهلهم في المدن
والقرى ، وما أشد ما كان الصبي يتشوق إلى هذه الأجازة
ويتحرق حنيناً إلى الريف .

ولكن الأجازة قد أقبلت وإذا هو يريد أن يمتنع عن الرحيل
وأن يبقى في القاهرة . أكان صادقاً في هذا التمتع ؟ أكان
متكلفاً له ؟ كان صادقاً وكان متكلفاً معاً .

كان صادقاً لأنه أحب القاهرة وكلف بها وشق عليه فراقها
وقد كره الرحيل دائماً . وكان متكلفاً فقد كان أخوه يقضى

أكثر أجازاته في القاهرة . وكانت الأسرة تكبر منه ذلك
وتراه آية جد واجتهاد . وكان يريد أن يصنع صنع أخيه وأن
يظن به ما كان يظن بأخيه . ولكن تمنعه لم يغن عنه شيئاً
وها هو ذا يركب مع صاحبه عربية من عربات النقل ومعهما
ثيابهما قد لقت في حزمتين وقد بلغا المحطة ، وأخذت لهما تذكرتان
ثم دفعتا إليهما ثم وضعاً في عربية مزدحمة من عربات الدرجة
الثالثة . ثم تحرك القطار ولم يكد يمضي قليلاً ويبلغ محطة بعد
القاهرة أو محطتين حتى نسي الصديقان أزهرهما وقاهرتهم
وربعهما ولم يذكرأ إلا شيئاً واحداً هو الريف وما سيكون فيه
من لذة ونعيم .

(١٦)

وكانت العشاء قد صليت حين نزل الصبيان من القطار ، فلم يجدا في المحطة أحداً . فأنكروا ذلك شيئاً ولكنهما وصلا إلى الدار فإذا كل شيء كان يجري فيها كما كانت تجري الأمور في كل يوم .

قد فرغت الأسرة من عشاءها منذ وقت طويل ، وأتم الشيخ صلاته ثم خرج كعادته فجلس مع أصحابه غير بعيد من الدار ، وتناول الصبية وجعلت أختهم الصغرى تحملهم واحداً واحداً إلى مضاجعهم ، واضجعت أم الصبي على فراش من اللبد تحت السماء تستريح ، والنوم يلم بها ثم يصرف عنها ، ومن حولها بناتها قد جلسن يتحدثن كعادتهن في كل ليلة ، حتى يقضى الشيخ سمره القصير ثم يعود إلى الدار فتأوى الأسرة كلها إلى مضاجعها ، ويشمل الدار سكون وهدهد لا يقطعها إلا تنابح الكلاب وتصايح الديكة في داخل الدار ومن أطراف القرية .

فلما دخل الصبيان وجهت الأسرة لدخولهما ولم تكن قد انبثت بعودتهما ، فلم تعد لهما عشاء خاصاً ولم تنتظرهما بالعشاء

المألوف ولم ترسل أحداً لتلقيهما عند نزولهما من القطار .
وكذلك أضيع على الصبي ما كان يدير في نفسه من الأمانى
وما كان يقدر من أنه سيستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ
في ابتهاج وحفاوة واستعداد عظيم . على أن أمه نهضت فقبلته
ونهضت إليه أخواته فضممنه إليهن وقدم إليه وإلى صاحبه عشاء
كعشاءهما في القاهرة . وأقبل الشيخ فأعطى ابنه يده ليقبلها ثم
سأله عن أخيه في القاهرة . وآوت الأسرة كلها إلى مضاجعها .
ونام الصبي في مضجعه القديم ، وهو يكتم في صدره كثيراً من
الغيظ وكثيراً من خيبة الأمل أيضاً .

ومضت الحياة بعد ذلك في الدار والقرية كما كانت تمضى قبل
أن يذهب الصبي إلى القاهرة ويطلب العلم في الأزهر . كأنه لم
يذهب إلى القاهرة ولم يجلس إلى العلماء ولم يدرس الفقه والنحو
والمنطق والحديث ، وإذا هو مضطر كما كان يضطر من قبل إلى
أن يلتقى سيدنا بالتحية والإكرام ويقبل يده كما كان يفعل من
قبل ، ويسمع منه كلامه الفارع الكثير كما كان يسمعه من قبل .
وإذا هو مضطر إلى أن يذهب بين وقت وآخر إلى الكتاب
لينفق الوقت ، وإذا التلاميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديماً لا يكادون

يشعرون بأنه غاب عنهم ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع في القاهرة ولو قد سأله لخبهرهم بالكثير .

وأكثر من هذا كله أن أحداً من أهل القرية لم يقبل على الدار ليسلم على الصبي الشيخ بعد أن عاد إليها وقد غاب عنها سنة دراسية كاملة . وإنما كان يلقاه منهم هذا الرجل أو ذاك فيلقى عليه في فتور وإعراض هذا السؤال ها أنت ذا ؟ أعدت من القاهرة ؟ كيف أنت ؟ ثم يلقى عليه هذا السؤال الآخر معنياً به رافعاً به صوته : وكيف تركت أخاك الشيخ ؟

وقد استقر إذن في نفس الصبي أنه ما زال ، كما كان قبل رحلته إلى القاهرة ، قليل الخطر ضئيل الشأن لا يستحق عناية به ولا سؤالاً عنه . فأدى ذلك غروره وقد كان غروره شديداً ، وزاده ذلك إمعاناً في الصمت وعكوفاً على نفسه وانصرافاً إليها .

ولكنه لم يكد يقضى أياماً بين أسرته وأهل قريته حتى غير رأى الناس فيه ولقتهم إليه ، لا لفت عطف ومودة ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار . فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديماً يوماً ويوماً وأياماً .

ولكنه لم يطق على ذلك صبراً ، وإذا هو ينبو على ما كان يألف ، وينكر ما كان يعرف ويتمرد على من كان يظهر لهم الإذعان والخضوع . كان صادقاً في ذلك أول الأمر فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة تكلف وعاند وغلا في الشذوذ . سمع سيدنا يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه في العلم والدين ، وبعض تمجيده لحفظة القرآن وحملة كتاب الله ، فأنكر عليه حديثه ورد عليه قوله ولم يتخرج من أن يقول هذا كلام فارغ . فغضب سيدنا وشتمه وزعم أنه لم يتعلم في القاهرة إلا سوء الخلق وأنه أضاع في القاهرة تربيته الصالحة .

وغضبت أمه وزجرته واعتذرت إلى سيدنا وقصت الأمر على الشيخ حين عاد فصرى المغرب وجلس للعشاء ، فهز رأسه وضحك ضحكة سريعة في ازدراء للقصة كلها وشتمته بسيدنا . فلم يكن يحب سيدنا ولا يعطف عليه .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور ، ولكن صاحبنا سمع أباه يقرأ دلائل الخيرات كما كان يفعل دائماً إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر ، فرفع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك ، ثم قال لإخوته ، إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه .

فأما الصغار من إخوته وأخوانه فلم يفهموا عنه ولم يلتفتوا إليه ولكن أخته الكبرى زجرته زجراً عنيفاً ورفعت بهذا الزجر صوتها فسمعا الشيخ ولم يقطع قراءته ولكنه مضى فيها حتى أتمها ، ثم أقبل على الصبي هادئاً باسمًا يسأله ماذا كان يقول ! فأعاد الصبي قوله . فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة قصيرة وقال لابنه في ازدراء « ما أنت وذاك ! هذا ما تعلمته في الأزهر ؟ » . فغضب الصبي وقال لأبيه « نعم وتعلمت في الأزهر أن كثيراً مما تقرأه في هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع ؛ فما ينبغي أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء وما ينبغي أن يكون بين الله وبين الناس واسطة وإنما هذا لون من الوثنية » .

هنالك غضب الشيخ غضباً شديداً ولكنه كظم غضبه واحتفظ بابتسامته وقال فأضحك الأسرة كلها « احرص قطع الله لسانك . لا تعد إلى هذا الكلام وأنى أقسم لئن فعلت لأمسكنك في القرية ، ولأقطعنك عن الأزهر ولأجعلنك فقيهاً تقرأ القرآن في المآتم والبيوت » . ثم انصرف ، وتضاكت الأسرة من حول الصبي ، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عناداً وإصراراً .

وقد نسيها الشيخ بعد ساعات وأقبل على عشائه ومن حوله
أبناءؤه وبناته كهادته وجعل يسأل الصبي عن الشيخ الفتى ماذا
يصنع فى القاهرة ! وماذا يقرأ من الكتب ! وعلى من يختلف
من الأساتذة ؟

وكان الشيخ يجد لذة عظيمة فى إلقاء هذه الأسئلة وفى
الاستماع لأجوبتها . كان يلقيها على ابنه الشيخ الفتى إذا عاد إلى
القرية فيجيبه متكلفاً أول مرة ، فإذا أعيدت أعرض الفتى عن
أبيه وبخل عليه بالجواب ، ولم يكن أبوه ينكر ذلك منه جهرة
ولكنه كان يتأذى به ويشكو منه لزوجه إذا خلا إليها .

فأما الصبي فكان سمحاً طبعاً لا يعرض عن أبيه ولا يمتنع
عن إجابته ولا يدركه السأم مهما تتكرر الأسئلة ومهما يكن
موضوعها . وكان الشيخ من أجل ذلك يحب أن يسأله ويستمتع
بالتحدث إليه أثناء العشاء وأثناء الغداء ، ولعله كان يعيد على
أصحابه بعض ما كان ابنه يقص عليه من زيارات الشيخ الفتى
للأستاذ الامام وللشيخ بخيت ، ومن اعتراض الشيخ الفتى على
أساتذته أثناء الدرس وإحراجه لهم ، وردهم عليه بالعنف وبالشم
وبالضرب أحياناً .

وكان الصبي يشعر بلذة أبيه لهذه الأحاديث ورضاه عنها
فيتزيد ويتكرر ويخترع منها ما لم يكن ويحفظ ذلك في نفسه
ليقصه على أخيه إذا عاد إلى القاهرة .

وكان الشيخ بهذا كله سعيداً وله مغتبطاً وعلى تجديد حريصاً .
فلما جلست الأسرة للعشاء في تلك الليلة وجدد الشيخ أسئلته
عن ابنه الفتى ماذا يصنع في القاهرة وماذا يقرأ من الكتب !
قال الصبي في دهاء وخبث وكيد ، إنه يزور قبور الأولياء
وينفق نهاره في قراءة دلائل الخيرات .

ولم يكد الصبي ينطق بهذا الجواب حتى اغرقت الأسرة كلها
في ضحك شديد شرق له الصغار بما كان في أفواههم من طعام
وشراب ، وكان الشيخ نفسه أسرعهم إلى الضحك وأشدهم
اغراقاً فيه .

وكذلك استحال نقد الصبي لأبيه في قراءته للدلائل والأوراد
موضوعاً للهو الأسرة وعبثها أعواماً وأعواماً . والظريف من هذا
الأمر أن هذا النقد كان يحفظ الشيخ حقاً ، ويؤذيه في نفسه وفيما
ورث من عادة واعتقاد . ولكن الشيخ على ذلك كان يدعو
ابنه إلى هذا النقد ويغريه به ويمجد في هذا الألم لذة ومتاعاً .

ومهما يكن من شيء فإن شذوذ الصبي لم يلبث أن تجاوز الدار إلى مجلس الشيخ قريباً منها ، وإلى دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، وإلى المسجد حيث كان الشيخ محمد أبو أحمد رئيس الفقهاء في المدينة يقرئ القرآن للصبية والشباب ، ويصلى بالناس أثناء الأسبوع ، ويفقههم في دينهم أحياناً . وحيث كان الشيخ عطية رجل من التجار الذين طلبوا العلم في الأزهر أعواماً ثم عادوا إلى الريف فاشتغلوا بأمور الدنيا ولم ينصرفوا عن أمور الدين ؛ يجلس للناس بعد صلاة العصر من حين إلى حين فيعظهم ويفقههم وربما قرأ لهم شيئاً من الحديث .

بل وصل شذوذ الصبي إلى الحكمة الشرعية فسمعه القاضي وسمعه خاصة ذلك الشيخ الذي كان يكتب للقاضي ، ويرى أنه أعلم منه بالشرع ، وأفقه منه بالدين وأحق منه بالقضاء ، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التي تسمى درجة العالمية والتي تشترط لتولى منصب القضاء والتي تنال بالجد والاجتهاد قليلاً وبالحظ والتملق في أكثر الأحيان .

تسامع هؤلاء الناس جميعاً بمقالات هذا الصبي وإنكاره لكثير مما يعرفون ، واستهزائه بكرامات الأولياء وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء . وقال بعضهم لبعض إن هذا الصبي ضالّ مضلّ قد

ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه
الفسادة المفسدة ثم عاد بها إلى المدينة ليضل الناس .

وربما سعى بعضهم إلى مجلس الشيخ وأصحابه قريباً من الدار
وطلبوا إلى الشيخ أن يرهم ابنه ذلك الشاذ الغريب . فأقبل
الشيخ هادئاً باسمًا حتى يدخل الدار فيرى ابنه آخذاً في اللعب
أو الحديث مع أخواته فيأخذ بيده في رفق ويقوده إلى مجلسه .
فإذا سلم على القادمين أجلسه ثم أخذ بعض القادمين في التحدث
إليه رفيقاً أول الأمر ، فإذا اتصل الحديث ذهب الرفق وقام
مقامه الحوار العنيف . وكثيراً ما كان محاور الصبي ينصرف
غاضباً متحرجاً يستغفر الله من الذنب العظيم ويستعيز به من
الشیطان الرجيم .

وكان الشيخ وأصحابه من الذين لم يدرسوا في الأزهر
ولم يتفقوا في الدين يرضون عن هذه الخصومات ويعجبون بها
ويتهيجون لهذا الصراع الذي كانوا يشهدونه بين هذا الصبي
والناشئ وهؤلاء الشيوخ الشيب .

وكان أبو الصبي أشدهم غبطة وسروراً . ومع أنه لم يصدق قط
أن التوسل بالأولياء والأنبياء حرام ، ولم يطمئن قط إلى عجز

الأولياء عن أحداث الكرامات ولم يساير قط ابنه فيما كان يقول من تلك المقالات ؛ فقد كان يحب أن يرى ابنه محاوراً مخاصماً ظاهراً على محاوريه ومخاصميه وكان يتعصب لابنه تعصباً شديداً . وكان يسمع ويحفظ ما كان الناس يتحدثون به ويخترعونه أحياناً من أمر هذا الصبي الغريب ، ثم يعود مع الظهر أو مع المساء فيعيد ذلك كله على زوجه راضياً حيناً وساخطاً حيناً آخر .

وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه وخرج من عزلته وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه وتغير مكانه في الأسرة ، مكانه المعنوي إن صح هذا التعبير . فلم يهمله أبوه ، ولم تعرض عنه أمه واخوته ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق ، بل على شيء أكثر وأثر عند الصبي من الرحمة والاشفاق .

وانقطع ذلك النذير الذي سمعه الصبي في أول الأجازة بأنه قد يبقى في القرية ويقطع عن الأزهر ويصبح فقيهاً يقرأ القرآن في المآتم والبيوت ، وآية ذلك أنه أصبح ذات يوم فنهض مع الفجر ونهضت الأسرة كلها مع الفجر أيضاً ، ورأى الصبي نفسه بين ذراعي أمه وهي تقبله وتذرف دموعاً صامتة . ثم رأى

الصبي نفسه في المحطة مع صاحبه وأبوه يجلسه في القطار رفيقاً به ، ثم يعطيه يده ليقبلها ثم ينصرف عنه وهو يسأل الله أن يفتح عليه .

ورأى الصبي نفسه يعبت مع صاحبه أثناء السفر ، ثم رأى الصبي نفسه ينزل من القطار في محطة القاهرة ، وإذا أخوه يتلقاه مبتسماً له ثم يدعو حمالاً ليحمل ما كان معه من متاع قليل وزاد كثير . فاذا تجاوزا باب المحطة دعا عربة من عربات النقل فحمل عليها الزاد وصاحب أخيه ، ثم عربة أخرى من عربات الركوب فأجلس فيها أخاه رفيقاً به ، وجلس عن يمينه وأعطى السائق عنوان الربع

(١٧)

وأقبل صاحبنا على دروسه في الأزهر وغير الأزهر من المساجد .
فأمعن في الفقه والنحو والمنطق وأخذ يحسن الفنقلة التي كان
يتنافس فيها البارعون من طلاب العلم في الأزهر على المنهج القديم ،
ويسخر منها المسرفون في التجديد ولا يعرض عنها المجددون
المعتدلون . وإذا هو يدرس شرح الطائي على الكنز مصباحاً
والأزهرية مع الظهر وشرح السيد الجرجاني على ايساغوجي ممسياً .
وكان يحضر الدرس الأول في الأزهر ، والدرس الثاني في مسجد
محمد بك أبي الذهب ، والدرس الثالث في مسجد الشيخ العدوى
على أستاذ من سلالة الشيخ العدوى نفسه . وربما ألم بدرس
من دروس الضحى كان يقرأ فيه كتاب قطر الندى لابن هشام
تعبلاً للتعلم في النحو والفراغ من كتب المبتدئين والوصول
إلى شرح ابن عقيل على الألفية . ولكنه لم يكن يواظب على
هذا الدرس . كان يستجمل الشيخ ويرى في فنقلة الشيخ
عبد الحميد الشاذلي حول الأزهرية وحاشية العطار ما يكتفيه ويرضيه .
وقد بقيت في نفسه آثار لا تمحى من درس الأزهرية هذا
ففيه تعلم الفنقلة حقاً وكان أول ذلك هذا الكلام الكثير

والجدال العقيم حول قول المؤلف وعلامة الفعل قد . فقد أثنى صاحبنا ما أثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والأجوبة وأتعب شيخه حواراً وجدالاً حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار ، ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكره قط إلا ضحك منه ورق له . « الله حكم بينى وبينك يوم القيامة » .

قال ذلك فى صوت يملأ السأم والضجر ويملأه العطف والحنان أيضاً . وآية ذلك أنه بعد أن أتم الدرس وأقبل الصبي ليلى يده كما كان الطلاب يفعلون وضع يده على كتف الصبي ، وقال له فى هدوء وحب « شد حيلك الله يفتح عليك » .

وعاد الصبي مبتهجاً بهذه الكلمات والدعاوات فأنبأ بها أخاه وانتظر به أخوه موعد الشاى . فلما اجتمع القوم إلى شايعهم قال للصبي مداعباً قرر لنا وعلامة الفعل قد . فامتنع الصبي حياءً أول الأمر ، ولكن الجماعة ألحت عليه ، فأقبل يقرر ما سمع وما عى وما قال ، والجماعة صامتة تسمع له حتى إذا فرغ نهض إليه ذلك الكهل الذى كان ينتظر الدرجة فقبل جبهته وهو يقول « حصنتك بالحق القيوم الذى لا ينام » .

فأما الجماعة فأغرقت في الضحك ، وأما الصبي فأغرق في الرضى عن نفسه وبدأ منذ ذلك الوقت يعتقد أنه أصبح طالباً بارعاً نجيباً .

وقوى هذا رأى في نفسه أن زملاءه في درس النحو التفتوا إليه وجعلوا يستوقفونه بعد الدرس ، أو يدنون منه قبل الدرس ، فيسألونه ويتحدثون إليه ثم يعرضون عليه أن يعدوا معه الدرس قبل الظهر . وقد أغراه هذا العرض فترك درس القطر وجعل يطالع مع زملائه هؤلاء يقرأون له ويأخذون في التفسير وجعل هو يسبقهم إلى هذا التفسير ويستبد به من دونهم ، فلا يقاومونه وإنما يسمعون منه ويصغون إليه . وجعل ذلك يزيده غروراً إلى غرور ، ويخيل إليه أنه قد بدأ يصبح أستاذاً واضطرت حياته في ذلك العام متشابهة لا جديد فيها إلا ما كان يفيده الصبي من العلم كلما أمعن في الدرس وما كان يشعر به من الغرور إذا كان بين زملائه ، وما كان يرد إليه من التواضع إذا كان بين أولئك الطلاب الكبار في الربع ، وإلا ما كان يفيده من العلم بشؤون الأساتذة والطلاب في الأزهر لما كان يسمع من حديث زملائه وأصدقاء أخيه عن أولئك وهؤلاء .

فلم يكن شيء من هذه الأحاديث ليحسن ظنه بأولئك
أو هؤلاء وإنما كان ظنه يزداد بهم سوءاً كلما مر عليه الوقت .
فقد كان يسمع بين حين وحين ثناء بالذكاء والبراعة على هذا
الشيخ أو ذاك من صغار العلماء وكبارهم ، ولكنه كان يسمع
دائماً عيباً لأولئك وهؤلاء بألوان من النقائص التي تتصل بالخلق
أو تتصل بالسيرة أو تتصل بصناعة العلم نفسها ، والتي كانت تشير
في نفسه كثيراً من الغضب والازدراء وخيبة الأمل .

ولم يكن يسلم من هذه العيوب أحد فأما هذا الشيخ فقد
كان شديد الحقد على زملائه وأقرانه ، شديد المكر بهم والكيد
لهم . يلقاهم مبتسماً فلا يكاد يفارقهم حتى يقول فيهم أشنع القول
ويسعى بهم أقبح السعى . وأما هذا الشيخ الآخر فقد كان رقيق
الدين يظهر التقوى إذا كان في الأزهر أو بين أقرانه . فإذا
خلا إلى نفسه وإلى شياطينه أغرق في إثم عظيم .

وكان هؤلاء العائبون ربما سموا أولئك الشياطين الذين كان
الشيخ يخلو إليهم ويشاركهم في الإثم . وكان كبار الطلاب
يتندرون على هذا الشيخ أو ذاك لأنه كان يعنى عناية خاصة
بهذا الفتى أو ذاك ، ويلقى نظرات خاصة على هذا الفتى أو

ذاك ، ولا يستقر على كرسيه إذا حضر من طلابه هذا الفتى
أو ذاك .

وكانت الغيبة والنميمة أشيع وأشنع ما كان يذكر من عيب
الشيوخ . فكان الطلاب يذكرون سعى ذلك الشيخ بصديقه
الحكيم عند شيخ الأزهر أو عند الشيخ المفتى ، وكانوا يذكرون
أن شيخ الأزهر كان أذناً للنامين ، وأن الشيخ المفتى كان يترفع
عن الاستماع لهم ويلقاهم بالزجر القاسى العنيف .

وقد تحدث الطلاب الكبار ذات يوم بقصة عن جماعة
من كبار الشيوخ سموهم يومئذ فزعوا أن هؤلاء الشيوخ لاحظوا
أنهم قد أسرفوا على أنفسهم فى الغيبة فاستعظموا ذلك وذكروا
قول الله عز وجل « ولا يغتب بعضكم بعضاً أوجب أحكم أن
يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » فتناهوا عن هذه الخطيئة
الكبيرة وتعاهدوا على أن من أخذ منهم فى الغيبة فعليه أن
يؤدى إلى أصحابه عشرين قرشاً .

وقد كفوا عن الغيبة يوماً أو بعض يوم ضناً بهذا المبلغ من
النقد . وأنهم لفى بعض حديثهم وإذا شيخ يمر بهم فيلقى عليهم
تحية ، ويمضى فى طريقه . ولكنه لا يكاد يمضى حتى يخرج أحدهم

قطعة من الفضة فيدفعها إلى أصحابه ويأخذ في اغتياب هذا الشيخ .
فأما تحدث الطلاب كباراً وصغاراً بجهل شيوخهم وتورطهم في
ألوان الخطأ المضحك الذي كان بعضه يتصل بالفهم وبعضه يتصل
بالقراءة ، فقد كان أكثر من أن يحصى وأعظم من أن يقدر .
ومن أجل هذا كان صاحبنا سيء الرأي في العلماء والطلاب جميعاً .
وكان يرى أن الخير كل الخير في أن يجد ويجتهد ويحصل ما
استطاع من العلم معرضاً عن مصادره التي كان يستقيه منها .

وازداد رأيه سوءاً حين أستقبل السنة الثالثة من حياته في الأزهر
فالتمس لنفسه أستاذاً يقرأ في الفقه شرح ملامسكين على الكنز .
فدل على أستاذ معروف بعيد الذكر ظاهر المكانة في القضاء . فذهب
إليه وجلس في حلقاته ، ولكنه لم يكد ينفق دقائق حتى أحس حرجاً
عظيماً ، رأى نفسه مضطراً إلى أن يبذل جهداً شديداً لمقاومة الضحك .
وذلك أن الشيخ رحمه الله قد كانت له لازمة غريبة كما كان
يقول الأزهريون . فلم يكن يقرأ جملة في الكتاب أو يفسرها من
عند نفسه إلا قال هذه الجملة مرتين « قال قال ثم قال أيه » يعيد
ذلك مرات في الدقائق القليلة . وصاحبنا يسمع له ويعنف على
نفسه حتى لا يضحك فيأتي منكراً من الأمر .

وقد استطاع صاحبنا أن يضبط نفسه ولكنه لم يستطع أن يختلف إلى درس الأستاذ أكثر من ثلاثة أيام ، لأنه لم يجد عنده غناء وإنما وجد عنده عناء . لم يفد منه شيئاً وإنما كان يكظم ضحكه كظماً عنيفاً ويكلف نفسه من ذلك ما لم تكن تطيق . والتمس غيره من الأساتذة الذين كانوا يقرأون هذا الكتاب فلم يجد عندهم إلا هذه اللوازم التي كانت تختلف باختلافهم ولكنها كانت تدفع الغلام إلى الضحك وتضطره إلى أن يبذل في ضبط نفسه من الجهد ما كان يشغله أحياناً عن الاستماع . وقيل له في أثناء ذلك أن هذا الكتاب من كتب الفقه ليس بذى خطر ، وإن أستاذاً ممتازاً سموه له يقرأ كتاب الدرر والخير في أن تحضر درسه فهو من أذكي العلماء وأبرع القضاة .

وأستشار صاحبنا أخاه وأصحاب أخيه فلم يردوه عن ذلك بل شجعوه عليه وأوصوا به الشيخ . وقد رضى الغلام عن أستاذه الجديدة في دروسه الأولى فلم يكن يلتزم جملة بعينه أو لفظاً بعينه أو صوتاً بعينه . ولم يكن يتردد في القراءة ولا في التفسير وكان ذكؤه واضحاً وإتقانه للفقه بيناً وحسن تصرفه فيه لا يتعرض للشك .

وكان الأستاذ رشيقياً أنيقاً حلو الصوت ممتاز في حركته وفي لقائه للطلاب وحديثه إليهم . وكان معروفاً بالتجديد لا في العلم ولا في الرأي ولكن في السيرة . وكان كبار الطلاب يتحدثون بأنه يلقى درسه إذا أصبح ثم يمضي إلى محكمته فيقضى فيها ثم يروح إلى بيته فيطعم وينام . فإذا كان الليل خرج مع لداته فذهب إلى حيث لا ينبغي أن يذهب العلماء ، وسمع من الغناء ما لا ينبغي أن يسمع العلماء ، وأقبل من اللذات على ما لا ينبغي أن يقبل عليه رجال الدين ، وكانوا يذكرون ألف ليلة .

فيعجب الغلام لأنه كان يعرف أن ألف ليلة وليلة اسم كتاب طالما قرأ فيه ووجد في قراءته لذة ومتاعاً . ولكنهم كانوا يذكرون هذا الاسم على أنه اسم مكان يسمع فيه الغناء ويكون فيه اللهو وتطلب فيه بعض اللذات .

وكان الغلام يسمع عن شيخه هذه الأحاديث فلا يصدقها ولا يطمئن إليها ولكنه لم ينفق مع الشيخ أسابيع حتى أحس منه تقصيراً في إعداد الدرس ، وقصوراً عن تفسير النص ، وضيقاً بأسئلة الطلاب . بل أحس منه أكثر من ذلك فقد سأله ذات يوم عن تفسير بعض ما كان يقول فلم يجبه إلا بالشم . وكان الشيخ أبعد الناس عن الشتم وأشدهم عنه ترفعاً .

فلما قص الغلام على أخيه وأصحابه من أمر الشيخ ما رأى ؛
أنكروا ذلك وأسفوا له وهمس بعضهم لبعض بأن العلم والسهرة
في ألف ليلة وليلة لا يجتمعان .

وكان حظ الغلام في النحو خيراً من حظه في الفقه . فقد
سمع القطر والشذور على الشيخ عبد الله دراز رحمه الله فوجد من
ظرف الأستاذ وصوته العذب وبراعته في النحو ومهارته في
رياضة الطلاب على مشكلاته ما زاده في النحو حباً .

ولكن حظه في النحو لم يلبث أن ساء حين استؤنفت
الدراسة في العام الجديد . فقد أخذ الغلام يسمع على الشيخ
عبد الله دراز شرح ابن عقيل ، وبينما الأستاذ وطلابه ماضون في
درسهم ، راضون عن عملهم صدر الأمر إلى الأستاذ بالانتقال
إلى معهد الاسكندرية .

فمانع في ذلك ما استطاع ومانع طلابه ما استطاعوا ، ولكن
المشيخة لم تسمع له ولا لهم . فلم يجد بداً من إنفاذ الأمر ، ولم
ينس الغلام ذلك اليوم الذي ودع الأستاذ فيه طلابه وإنه ليكي
مخلصاً وإنهم ليكون مخلصين ويشيعونه باكين إلى باب المسجد .
ثم أقیم مقام الشيخ ، شيخ آخر ضرير . كان مشهوراً بالذكاء

الحاد والتفوق الظاهر والنبوغ الممتاز وكان لا يُذكر إلا أثني عليه ذا كروه والسامعون لذكره بهذه الخصال .

أقبل هذا الشيخ فأخذ الدرس من حيث تركه الشيخ عبد الله دراز . وكانت حلقة الشيخ عبد الله دراز عظيمة تملأ رقعتهما من مسجد محمد بك أبي الذهب . فلما خلفه هذا الشيخ ازدادت هذه الحلقة ضخامة واتساعاً حتى اكتظ بها المكان وألقى الشيخ درسه الأول فرضى عنه الطلاب . ولكنهم لم يجدوا عنده وداعة أستاذهم القديم ولا عذوبة صوته . ثم ألقى درسه الثاني والثالث وإذا الطلاب ينكرون منه رضاه عن نفسه وإعجابه بها وثقته بما كان يقول وغضبه الحاد على مقاطعيه .

ولم يكذ يتقدم في درسه الرابع حتى كانت بينه وبين صاحبنا قصة صرفت الغلام عن النحو صرفاً . كان الشيخ يفسر قول تأبط شرّاً : فأبت إلى فهم وما كدت آبأ

وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

فلما وصل إلى قوله تصفر قال إن العرب كانت إذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة وضعوا أصابعهم في أفواههم ونفخوا فيها فكان لها صفير يسمع .

قال الغلام للشيخ : وإذن فما مرجع الضمير في قوله وهي
تصفر ؟ وفي قوله وكم مثلها فارقتها ؟ قال الشيخ مرجعه فهم
أيها الغبي . قال الغلام فإنه قد عاد إلى فهم والبيت لا يستقيم
على هذا التفسير . قال الشيخ : فإنك وقع وقد كان يكفي أن تكون
غيباً . قال الغلام : ولكن هذا لا يدل على مرجع الضمير .
فسكت الشيخ لحظة ثم قال « انصرفوا فلن أستطيع أن أقرأ وفيكم
هذا الوقح » .

ونفض الشيخ ، وقام الغلام ، وقد كاد الطلاب يبطشون به لولا
أن حماء زملاؤه وكانوا من أهل الصعيد . حموه بأن أحاطوا به
وأشبهرو نعالهم فتفرق الناس . وأى الأزهرين لم يكن يفرق في
ذلك الوقت من نعال أهل الصعيد .

لم يعد الغلام إلى درس النحو ، بل لم يحضر الغلام بعد ذلك
درساً في النحو . بلى ، ذهب من غده إلى درس كان يلقيه أستاذ
معروف من أهل الشرقية . وكان يقرأ شرح الأشموني ، ولكنه لم يتم
الاستماع للدرس . مضى الشيخ يقرأ ويفسر وسأله الغلام في بعض
الشيء فرد عليه الشيخ بما لم يقنعه . فأعاد السؤال فغضب الشيخ
وأمره بالانصراف . فتوسط بعض أصدقائه عند الشيخ يستعطفونه ،

فازداد غضب الشيخ وأبى أن يمضى فى الدرس حتى يقوم هذا الغلام ومعه أصدقاؤه . ولم يكن لهم بد من أن ينصرفوا فقد أشهرت عليهم نعال الشرقية ، ولم تكن نعال الشرقية بأقل خطراً من نعال الصعيد .

وذهب الغلام من غده مع أصحابه إلى حلقة أخرى كان يقرأ فيها شرح الأشموني . يقرأه أستاذ مشهور من أساتذة الشرقية أيضاً فوقف الغلام على الحلقة لحظة لا تتجاوز الدقائق الخمس . ولكنه سمع فيها هذه اللازمة الغربية يعيدها الشيخ كلما انتقل من جملة إلى جملة « اخص على بلدى » . فضحك الغلام وضحك أصدقاؤه وانصرفوا . وأزمع الغلام وصديق له أن يدرسا النحو مستقلين وأن يدرسا فى مصادره الأولى . فقرأ كتاب المفصل للزمخشري ثم كتاب سيبويه ، ولكن هذه قصة أخرى .

ولم يكن حظه فى المنطق خيراً من حظه فى الفقه والنحو . لقد أحب المنطق حباً شديداً حين كان يسمع شرح السيد على إيساغوجى من أستاذه ذاك الشاب فى العام الماضى ، فأما فى هذا العام فقد جلس لأمثاله من أوساط الطلاب علم من أعلام الأزهر الشريف ، وإمام من أئمة المنطق والفلسفة فيه . وكان معروفاً بين

كبار الطلاب بهذا الذكاء الظاهر الذى يخدع ولا يغنى شيئاً ،
وكان معروفاً بهذه الفصاحة التى تبهر الأذن ولم تبلغ العقل .
وكان يؤثر عنه أنه كان يقول « مما من الله علىّ به أنى أستطيع
أن أتكلم ساعتين فلا يفهم أحد عني شيئاً ولا أفهم أنا عن نفسى
شيئاً » كان يرى ذلك مزية ونحراً . ولكن لم يكن بد للطالب
الذى يقدر نفسه من أن يجلس إليه ويسمع منه . وقد جلس للطلاب
بعد صلاة المغرب يقرأ لهم شرح الحبيصى على تهذيب المنطق .
وذهب إليه صاحبه وسمع منه درساً ودرساً ، وكانت حلقة عظيمة
حقاً تكتظ بها القبة فى جامع محمد بك . وكان الغلام يسبق
صلاة المغرب فيجلس فى أقرب مكان من كرسى الأستاذ . وكان
الأستاذ جهورى الصوت قد احتفظ بلهجة الصعيد كاملة . وكان
شديد النشاط كثير الحركة . وكان إذا طالب رد عليه ساخراً
منه فإن ألح فى السؤال ثار به وجعل يقول له فى حدة أسكت
يا خاسر ، أسكت يا خنزير ، وكان يفخم الخاء فى الكلمتين إلى
أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم .

وقد استقام للشيخ وللطلاب أمرهم حتى أتموا قسم التصورات .
فلما بلغوا من كتابهم المقصد الثانى فى التصديقات لقي الغلام من

نفسه ومن شيخه بلاء عظيما ، فاضطر إلى أن يختار له من الغد مكانا بعيدا عن الشيخ ، وما زال يتأخر يوما بعد يوم في مجلسه حتى بلغ باب القبة فخرج منه ذات ليلة ، ولم يدخله بعد ذلك .

لقى الغلام بلاء من نفسه لم يذكره قط إلا ضحك منه ضحكا شديدا وأضحك منه أخاه وأصدقائه جميعا . فقد جلس الشيخ على كرسيه وأخذ في القراءة فقال المقصد الثاني في التصديقات يقلقل القاف ، ويفخم الصاد ، ويمد الألفات والياءات مدا متوسطا . ثم يعيد هذه الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويطيل مد الألفات والياءات . ثم يعيد الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويمد الألف والياء في الثاني ولكنه لا يقول في التصديقات ، وإنما يقول في مين ؟ فلا يرد عليه أحد . فيرد على نفسه ويقول في التصديقات ! . ثم يعيد الكلمة نفسها على هذا النحو نفسه ، فاذا انتهى إلى قوله في مين ، ولم يرد عليه أحد ضرب بظهر يده في جبهة الغلام وهو يقول « ردوا يا غنم ، ردوا يا بهائم ، ردوا يا خنازير » . يفخم الغنم والحاء إلى أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم فيقول الطلاب جميعا في التصديقات .

لقى الغلام من نفسه عناء شديداً فقد كان هذا كله خليقاً
أن يضحكه ، وكان يخاف أن يضحك بين يدي الأستاذ . ولقى
من شيخه بلاء عظيماً بهذه الضربات التي كانت تتوالى على
جبهته بين حين وحين . ومهما يكن من شيء فقد تحول الغلام
عن هذا الدرس ولم يتجاوز بالمنطق عند هذا الشيخ باب القضايا .

تحول عن هذا الدرس في أثناء العام وقرر أن يحضر مكانه
درساً في التوحيد كان يلقيه شيخ جديد حديث الظفر بدرجة
العالمية . وكان أصدقائه من كبار الطلاب يذكرونه بالظرف
الشديد والذكاء المتوسط وحلاوة الصوت وحسن الإلقاء ويقولون
إن علمه يخدع من حدّته أو سمع عنه فاذا تعمقه لم يجد عنده
شيئاً . وكان يقرأ شرح الخريدة ومتمنها للدريدي . فسمع الغلام
منه درساً وأعجب بصوته وإلقائه وظرفه وجعل ينتظر أن يعجب
بعلمه وفنقلته ، ولكن الشيخ صرف عن الدرس لأنه نقل من
القاهرة وأرسل إلى مكان بعيد تولى فيه منصب القضاء .
فلم يتح للغلام أن يعلم علمه ، ولا أن يقضى في أمره بشيء إلا
أنه كان لبقاً ظريفاً حلو الصوت عذب الحديث .

وإذن فقد ضاعت السنة في حقيقة الأمر على الغلام ولم يحصل

فيها أو لم يكد يحصل فيها من العلم شيئاً جديداً إلا ما كان
يقرأه في الكتب ويسمعه من أولئك الطلاب الكبار وهم
يطالعون أو يتناظرون .

فلما عاد إلى الأزهر من قابل ، عاد إليه ضيق النفس به ،
شديد الزهد فيه ، حائراً في أمره لا يدري ماذا يصنع ، لا يستطيع
أن يقيم في الريف ، وماذا يفعل في الريف ؟ ولا يجد نفعاً من
إقامته في القاهرة واختلافه إلى الشيوخ . وفي هذا العام اتصل
بدرس الأدب .

ولكن لحديث هذا الدرس ساعة من الدهر ما حانت
ولا حان حينها كما تقول بثينة في سلوها عن جميل .

(١٨)

وفي الحق إن اقبال الفتى على درس الأدب لم يصرفه عن علومه الأزهرية أول الأمر . فقد كان يظن أنه يستطيع الملاءمة في نفسه بين هذين اللونين من ألوان المعرفة ، وهو لم يرسل إلى القاهرة ولم ينسب إلى الأزهر ليكون أديباً ينظم الشعر أو ينشئ النثر ، وإنما أرسل إلى القاهرة وانتسب إلى الأزهر ليسلك طريقه الأزهرية الخالصة حتى يبلغ الأمتحان ويظفر بالدرجة ويسند ظهره إلى عمود من الأعمدة القائمة في ذلك المسجد العتيق ، ويتحلق الطلاب من حوله فيسمعوا منه درساً في الفقه أو في النحو أو فيها جميعاً .

كذلك كان يتمنى أبوه وبذلك كان يتحدث إلى الأسرة في شيء من الأمل والاعجاب بابه هذا الشاذ الغريب . وكذلك كان يريد أخوه وكذلك كان يريد هو . وماذا كان يمكن أن يريد غير ذلك وقد فرضت الحياة على أمثاله من المكفوفين الذين يريدون أن يحيا حياة محتملة إحدى اثنتين : فإما الدرس في الأزهر حتى تنال الدرجة وتضمن الحياة بهذه

الأرغفة التي تؤخذ في كل يوم ، وبهذه القروش التي تؤخذ آخر الشهر لا تزيد عن خمسة وسبعين قرشاً إن كانت الدرجة الثالثة ، ولا عن مئة قرش إن كانت الدرجة الثانية ، ولا عن خمسين ومئة قرش إن كانت الدرجة الأولى . وإما أن يتجر بالقرآن فيقرأه في المآتم والبيوت كما أنذره بذلك أبوه في وقت من الأوقات .

فلم يكن للفتى بد إذن من أن يمضى في طريقه الأزهرية حتى يبلغ غايتها . وكانت هذه الطريق تنشعب إلى شعبتين إذا قضى الطالب ثلاثة أعوام أو أربعة في الأزهر . إحداها علمية وهي الاختلاف إلى الدروس والتنقل في مراحل العلم ، وكان الفتى ماضياً فيها . أقبل عليها مشغولاً بها ، ثم فترت همته ، ثم ازدراها وانصرفت عنها نفسه حين استيأس من الأساتذة وساء ظنه بالشيوخ .

والثانية مادية وكانت تتألف من مراحل ثلاث : مرحلة المنتسب ومرحلة المنتظر ومرحلة المستحق . فأما مرحلة المنتسب فهي المرحلة التي يبدأ الطالب بها حياته الأزهرية بعد أن يتم تقيده في سجلات الأزهر . ولم يكن له بد من أن ينتسب إلى أحد الأروقة وقد انتسب صاحبنا كما انتسب أخوه إلى رواق الفشنية .

وأما مرحلة المنتظر فقد كانت المرحلة الثانية ينتقل إليها الطالب بعد أن يقيم أعواماً في الأزهر وسبيله إلى ذلك ورقة يكتبها ويرفعها إلى شيخ الرواق يعين فيها ما انفق في الأزهر من عام وما حضر فيه من درس ، ويشهد على صدقه فيما سجل فيها شيخان من شيوخه ويطلب إلى شيخ الرواق أن يقيد اسمه بين أسماء المنتظرين ، حتى إذا خلا مكان بين المستحقين للجراية ارتقى إليه فبلغ المرحلة الثالثة ونال جرايته رغفين أو ثلاثة أو أربعة على اختلاف بين الأروقة في ذلك .

فلم يكن بد لصاحبنا من أن يرقى إلى مرحلة المنتظرين ، وقد كتب الورقة وختمها بالجملة التي كانت شائعة إذ ذاك « جعلكم الله ملجأً للقاصدين » .

وشهد شيخان أنه لم يقل في هذه الورقة إلا حقاً ، وذهب إلى الشيخ في داره فرفع إليه الورقة بعد أن قبّل يده وانصرف . فانتظر وأطال الانتظار ولم يظفر بالجراية قط في هذا الرواق . ولكن ارتقاءه إلى مرحلة المنتظرين أَرْضَى أباه وملاً فيه نفراً على كل حال .

وبينما كان ينتظر في طائل أو في غير طائل خرج الأستاذ

الامام من الأزهر في تلك القصة المعروفة ، وبعد تلك الخطبة المشهورة التي ألقاها الخديوى على بعض العلماء .

وكان الفتى يظن أن تلاميذ الشيخ ، وكانوا كثيرين يكتظ بهم الرواق العباسى فى كل مساء سيحدثون حدثاً ، وسيدنبئون الخديوى بأف شباب الأزهر قد تغيروا ، وبأنهم سيدودون عن شيخهم وسيدلّون فى سبيل ذلك لا أوقاتهم وحدها بل أرواحهم أيضاً .

ولكن الشيخ ترك الأزهر واتخذ داراً للافتاء فلم يزد تلاميذه على أن حزنوا وتحذثوا بالأسف فيما بينهم وبين أنفسهم وزار قليل منهم الشيخ فى داره بعين شمس وانصرف عنه أكثرهم وانتهى الأمر عند هذا الحد . فامتلأت نفس الفتى حزناً وغيظاً وساء ظنه بالطلاب كما ساء ظنه بالشيوخ ، ولم يكن مع ذلك قد عرف الأستاذ الامام أو قدم اليه .

وبعد ذلك بقليل توفى الأستاذ الامام فاضطربت مصر لوفاته . وكانت البيئة الأزهرية أقل البيئات المصرية اضطراباً لهذا الحادث الجلل . وأسف تلاميذ الشيخ ولعل قليلاً منهم سفحوا بعض الدموع ، ولكنهم أقبلوا بعد الصيف على دروسهم ، كأن الشيخ

لم يميت ، أو كأن الشيخ لم يكن ، لولا أن الخاصة من تلاميذه كانوا يذكرونه بالخير بين حين وحين .

وكذلك عرف الفتى في ألم لاذع ولأول مرة في حياته الناشئة أن ما يقدم إلى عطاء الرجال من ألوان الاكبار والاجلال وضروب التملق والزلفى لغو لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وأن وفاء الناس ينحل في أكثر الأحيان إلى كلام لا يفيد .

وزاد سوء الظن بالناس في نفس الفتى قوة ما لاحظته في بعض البيئات من انتهاز وفاة الشيخ فرصه للتجار باسمه ، واستغلال الصلة به ، يتوسلون إلى ذلك بالشعر حيناً وبالنثر حيناً آخر ، وبالاعلان في الصحف والمجلات دائماً .

ولكن الفتى أحس شيئاً آخر زاد به انحرافاً عن الأزهر وانصرافاً عن شيوخه وطلابه . أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمام وإنما كانوا من أصحاب الطرايش ، فوجد في نفسه ميلاً خفياً إلى أن يقرب من أصحاب الطرايش هؤلاء ، وإلى أن يتصل ببيئاتهم بعض الاتصال . ومن له بذلك وهو فتى ضرير قد فرضت عليه الحياة الأزهرية فرضاً فلم يجد عنها منصرفاً .

وكان الأستاذ الإمام شيخاً لرواق الحنفية ، فلما خرج من الأزهر أو لما خرج من الحياة أصبح خلفه على الإفتاء خلفاً له على الرواق أيضاً .

وكان ابن الفتى الجديد أستاذاً لصاحبنا الفتى سمع عليه في صباه شرح السيد الجرجاني على ايساغوجي في المنطق وكان يقوم عن أبيه بأمر الرواق . فأغرى الفتى بالانتساب إلى رواق الحنفية والانتظار فيه . وكانت الجراية في رواق الحنفية أيسر منالاً وأكثر عدد أرغفة منها في غيره من الأروقة . ولم يكن الانتساب إلى رواق الحنفية في أيام الأستاذ الإمام سهلاً ولا يسيراً وإنما كان الامتحان سبيلاً إليه . وقد احتفظ الفتى الجديد بهذه السنة . وكان ابنه هو الذى يمتحن المتقدمين للانتساب في موعد يعينه من العام . فقبل لصاحبنا الفتى مالك لا تنتسب إلى هذا الرواق وقد انتسب إليه أخوك من قبل وأصحابه النجباء أيام الأستاذ الإمام ، وهم يأخذون منه جراياتهم أربعة أرغفة لكل واحد منهم في كل يوم . وزين ذلك له وحته عليه أخوه وأصحابه . وأرسل إلى الامتحان ذات مساء ومعه كتاب إلى الممتحن . فلما أدخل الفتى على الممتحن حيّاه وأخذ منه الكتاب فنظر فيه ثم ألقى عليه سؤالا ورد الفتى جواب السؤال خطأ أو صواباً

لم يدر ، ولكن الممتحن قال له انصرف يا علامة . فانصرف راضياً ولم يمض إلا وقت قليل حتى أصبح الفتى مستحقاً ونال رغيفين في كل يوم ، فكثر الخبز في الغرفة ، وفرحت الأسرة في الريف .

على أن الفتى لم ينل رغيفين فحسب . وإنما نال معهما خزانة في الرواق كانت أثر عنده من الرغيفين . فقد كان يستطيع إذا دخل الأزهر مع الصبح أن يذهب إلى خزانته فيضع فيها نعليه ورغيفيه أو أحدهما ، ويقضى نهاره حرّاً لا يعنى بهاتين النعلين اللتين كان يبذل جهداً غير قليل لحمايتهما من عدوان الخاطفين والسارقين . وما أكثر ما كانت تسرق النعال في الأزهر ، وما أكثر ما كانت تلصق على جدران الأزهر من حول الصحن أوراق يعلن فيها أصحابها أن نعالهم قد ضاعت وأن من ظفر بها فردها إلى صاحبها في مكان كذا ، أو رواق كذا ، فله الأجر والثواب ، ومن احتفظ بها متعدياً قطعه الله من هذا المكان .

كان الفتى إذن سعيداً بخزائنه ورغيفيه ولكنه لم يكن سعيداً بما كان يحصل من العلم أو يسمع من الدرس . وقد كان يكره نفسه إكراهاً على أن يسمع بعد الفجر درساً في التوحيد كان

يلقيه الشيخ راضى رحمه الله ويقرأ له كتاب المقاصد ، ويسمع
فى الصبح درس الفقه على الشيخ بنخيت وكان يقرأ كتاب
الهداية ، ويسمع فى الظهر درس البلاغة على الشيخ عبد الحكم عطا
وكان يقرأ شرح السعد .

وكان درس الفقه يسلى الفتى ويلهيه بما كان يسمع فيه من
غناء الشيخ إذا خلا الطلاب بينه وبين الغناء ، وحدة الشيخ
ونكته الأزهرية إذا قطع الطلاب عليه غناؤه فجادلوه فى بعض
ما كان يقرأ أو كان يقول . وربما كان الشيخ ينشد طلابه
أحياناً من شعره إذا صفا وطابت نفسه للإشاد ، وقد حفظ عنه
الفتى بيتاً من الشعر لم ينس قط صوت الشيخ وهو يتغنى به مترنحاً :
كأن عمته من فوق هامته

شَنَف من التبن محمول على جمل
وقد روى الفتى هذا البيت لأخيه وأصحابه فتضاحكوا وتذاكروا
شعر الشيخ وتناشدوا بعضه ، وروى الفتى إلى البيت السابق بيتاً
آخر ليس أقل منه طرافة وظرفاً وهو مطلع قصيدة ، قالها الشيخ
رحمه الله فى رثاء بعض العلماء وهو :

خطب جليل بعد موتك يا نبي

فقد الأئمة كالإمام المغربى

وقد روى المصريون جميعاً عن الشيخ بعد ذلك العهد بأعوام
طوال بيتاً آخر لم ينسه ظرفاًؤهم بعد وقد سار فيهم كما تسير
الأمثال وهو :

إنا مع الأمرأ والوفد والوزرا

على وفاق له فى القلب تأييد

وكان الفتى ربما جادل الشيخ فأطال الجدل . وقد أسرف
الجدال مرة فى الطول حتى تأخر الدرس عن إبانة وتصايح الطلاب
من جوانب المسجد الحسينى بالشيخ أن حسبك فقد نفذ القول .
فأجابهم الشيخ فى غناؤه الظريف ؛ لا والله لا تقوم حتى يقتنع
هذا المجنون . ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع . فقد كان هو
أيضاً حريصاً على أن يدرك القول قبل أن ينفذ .

وكان درس البلاغة أثيراً عند الفتى ، لا لما كان يحصل فيه
من علم ، فقد مضى منذ وقت طويل إقبال الفتى على الدروس
فى الأزهر لتحصيل العلم ، وإنما كان يقبل عليها أداء للواجب
وقطعاً للوقت والتماساً للفكاهة . وكان درس البلاغة أثيراً عنده
لأنه كان يجد فيه هذه الفكاهة ، ولأن الشيخ نظر الله وجهه
كان سمح النفس رضى الخلق مخلصاً فى درسه للعلم وللطلاب .

ولأنه بعد ذلك كان يكلف نفسه في الفهم والافهام جهداً عظيماً وعناء ثقيلاً . وكان إذا بلغ منه الجهد رفه على نفسه بهذه الجملة يوجهها إلى طلابه بين حين وحين ، في لهجة منياوية عذبة مضحكة « فاهمين يا سيادى » .

وكان إذا انتصف الدرس أشفق على نفسه وعلى الطلاب فقطع القراءة والتفسير وأقام دقائق صامتة لا ينطق ، وأقبل على نشوقه فالتهم منه بأنفه ما استطاع في تودة وروية وأناة . وكان الطلاب ينتهزون هذه الفرصة ليظفئوا ما كان يتأجج في بطونهم من نار الفول والطعمية والكراث بقدر من أقذاح الشراب الذى كان يطوف به الباعة عليهم أثناء الدروس ، ويدعونهم إليه دعاء لطيفاً بهذا النقر الخفيف الذى كان يمس به الزجاج فيبعث إلى الآذان صوتاً خفيفاً ظريفاً .

وفي ذات يوم كان الفتى يستريح مع بعض أصحابه أثناء هذه السكينة ، وكان الشيخ مقبلاً على نشوقه والطلاب مقبلين على شراهم وإذا أحد المشدين يأتى فيدعو الفتى وصاحبيه في رفق إلى غرفة شيخ الجامع .

ولكن هذه قصة لم يأت وقتها بعد وإن كان الناس قد
(١٢)

عرفوها منذ وقت بعيد . وقد قام الفتى وصاحباؤه عن الدرس ثم لم يعودوا إليه بعد ذلك .

وفي هذا الوقت أو قريبا من هذا الوقت ، وقعت قصة دخل فيها الفتى ومضى فيها إلى غايتها ولكنها قضت في نفسه على كل أمل في أن يظهر بنجاح في الأزهر قليل أو كثير .

غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر فمنع الشيخ من إلقاء دروسه ، رأى الناس في هذا المنع ظلماً للشيخ وعدواناً على حقوق الأزهر ، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً وكان الأزهريون أشدهم فتوراً وخضوعاً . ولكن صديقاً من أصدقاء الفتى — كانت له فيما أقبل من الأيام مواقف مشهورة يحمدها الناس — أقبل عليه ذات يوم فقال له أأنت ترى فيما حل بشيخنا ظلماً وعدواناً ؟ قال الفتى : بلى وأى ظلم وأى عدوان ؟ قال له الصديق : ألا تشارك في الاحتجاج على هذا الظلم ؟ قال الفتى : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال الصديق : نجمع نفراً من أصدقائنا الذين كانوا يسمعون دروس الشيخ ونسعى إليه نتمنى عليه أن يمضى في إلقاء دروسه علينا في بيته ، فإذا قبل انتفعنا بالدرس وأعلننا ذلك في الصحف ، فعرف الظالمون للأزهر أن بين الأزهريين من لا يقرون الظلم ولا يذعنون له . قال الفتى : هذا حسن .

واجتمع نفر من طلاب الشيخ فسعوا إليه بما أرادوا وأجابهم إلى ما طلبوا فأعلنوا ذلك في الصحف ، وأعلنوا أن الشيخ سيقراً لهم سلم العلوم في المنطق ومسلم الثبوت في الأصول يقسم الأسبوع بين هذين الكتابين .

وبدأ الشيخ دروسه في بيته ، وكثر الطلاب المقبلون على هذه الدروس حين علموا بها ، ورضى هؤلاء الشباب عن أنفسهم وعن شجاعتهم ، وعاد إلى الفتى شيء قليل من الأمل .

ولكن في ذات يوم جادل الشيخ في بعض ما كان يقول . فلما طال الجدل غضب الشيخ وقال للفتى في حدة ساخرة : « أسكت يا أعشى ما أنت وذاك » . فغضب الفتى وأجاب الشيخ في حدة : « إن طول اللسان لم يثبت قط حقاً ولم يح باطلاً » . فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة ، ثم قال الشيخ لطلابه : « انصرفوا اليوم فهذا يكفي » .

ولم يعد الفتى منذ ذلك اليوم إلى دروس الشيخ بل جهل كل ما كان من أمرها .

وكذلك عاد الفتى إلى يأسه من الأزهر ، ولم يبق له أمل إلا في درس الأدب الذي آن الوقت للتحدث عنه وعن آثاره البعيدة في حياة هذا الشاب .

(١٩)

لم يكد الصبي يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع ذكر الأدب والأدباء كما سمع ذكر العلم والعلماء . سمع حديث الأدب بين هؤلاء الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقيطى ، رحمه الله ، وحماية الأستاذ الامام له وبره به . وقد وقع هذا الاسم الأجنبى من نفس الصبي موقعاً غريباً . وزاد موقعه غرابة ما كان الصبي يسمعه من أعاجيب الشيخ وأطواره الشاذة وآرائه التى كانت تضحك قوماً وتغضب قوماً آخرين .

كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريباً للشيخ الشنقيطى فى حفظ اللغة ورواية الحديث سنداً وممتناً عن ظهر قلب . وكانوا يتحدثون بحديثه وشده وسرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول ، وكانوا يضربونه مثلاً لحدة المغاربة . وكانوا يذكرون اقامته فى المدينة ورحلته إلى قسطنطينية ، وزيارته للأندلس ، وربما تناشدوا شعره فى بعض ذلك . وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالخطوط والمطبوع فى مصر وفى أوروبا ، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق

أكثر وقته في دار الكتب قارئاً أو ناسخاً . ثم كانوا
يذكرون بعد ذلك متضاحكين قصته الكبرى تلك التي شغلته
بالناس وشغلت الناس به ، وعرضته لكثير من الشر والالم . وهي
رأيه في أن عمر مصروف لا ممنوع من الصرف .

وكان الصبي يسمع حديث عمر هذا فلا يفهم منه شيئاً أول
الأمر ، ولكنه لم يلبث أن فهمه في وضوح حين تقدم في درس
النحو وعرف المصروف والممنوع من الصرف . وعرف غير
المتمكن والمتمكن الأمكن من الأسماء . وكان أولئك الشباب
يذكرون مناظرات الشيخ مع جماعات من علماء الأزهر في صرف
عمر هذا أو منعه من الصرف ، ويتحدثون ضاحكين بأن العلماء
اجتمعوا للشيخ ذات يوم في الأزهر يرأسهم شيخ الجامع فطلبوا
إليه أن يعرض عليهم رأيه في صرف عمر . فقال الشيخ في
لهجته المغربية المتحدرة لا أعرض عليكم هذا الرأي حتى تجلسوا
منى مجلس التلاميذ من الأستاذ . فتردد الشيوخ ولكن واحداً منهم
ماكرراً ماهراً نهض عن مجلسه وسعى حتى كان بين يدي الشيخ
فجلس على الأرض متربعاً ، وأخذ الشيخ في عرض رأيه فقال :
أشد الخليل :

يا أيها الزارى على عمر

قد قلت فيه غير ما تعلم

قال الشيخ الجالس مجلس التلاميذ بصوته الماكر النحيف :
لقد رأيت الخليل أمس فأنشدنى البيت على هذا النحو :
يا أيها الزارى على عمر . ولم يدعه الشيخ الشنقيطى يتم انشاده ،
وإنما قطع عليه الانشاد محتدأ وهو يقول : كذبت . كذبت لقد
مات الخليل منذ قرون طويلة فكيف يمكن لقاء الموقى ، وجعل
بعد ذلك يشهد الشيوخ على تعمد صاحبهم للكذب ، وعلى
جهله بالنحو والعروض . وضحك القوم وتفرق المجلس دون أن
يقضى فى أمر عمر أمنوع من الصرف كما يقول النحاة أم مصروف
كما يقول هذا الشيخ الغريب . وكان الصبي يسمع هذا الكلام
فيحفظه ويجد اللذة فيما فهم منه ويعجب بما لم يفهم .

وكان الشيخ يقرأ لبعض الطلاب هذه القصائد التى تعرف
بالعلاقات . وكان أخو الصبي وبعض أصدقائه يسمعون هذا الدرس
فى يوم الخميس أو فى يوم الجمعة من كل أسبوع . وكانوا
يعدون هذا الدرس كغيره من الدروس . وكذلك سمع الصبي
لأول مرة :

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وما أسرع ما انصرف هؤلاء الطلاب الكبار عن هذا الدرس الذى لم يسيغوه . ولكن أخا الصبي حاول أن يحفظ المعلقات ، فحفظ منها معلقة امرىء القيس ومعلقة طرفة . كان يردد الأبيات بصوت مرتفع والصبي يسمع فيحفظ ، ثم لم يلبث أن أشرك الصبي معه فى الحفظ . ولكنه لم يتجاوز هاتين المعلقتين وانصرف إلى دروسه الأزهرية الأخرى . واستقرت المعلقتان فى نفس الصبي يحفظهما ولا يفهم منهما إلا قليلاً .

وكان هؤلاء الطلاب يتحدثون عن درس آخر كان يلقى فى الأزهر ليعلم الأزهرين صناعة الانشاء . وكان يلقيه شيخ سورى من خاصة الأستاذ الامام ، وقد اختلف إليه هؤلاء الطلاب فاشتروا الدفاتر وكتبوا موضوعات الانشاء . ولكنهم عدلوا عنه بعد قليل كما عدلوا عن درس الشقيطى . وأقبل أخو الصبي ذات يوم ومعه مقامات الحريرى ، فجعل يحفظ بعضها رافعاً صوته بالقراءة والصبي يحفظ صامتاً . ثم أشركه فى الحفظ كما أشركه فى حفظ المعلقات ، ومضيا فى ذلك حتى حفظا عشر مقامات . ثم انصرف

الشيخ الفتي إلى الأصول والفقه والتوحيد كما انصرف عن المعلقات
ودرس الانشاء .

وأقبل مرة أخرى ومعه كتاب ضخم يسمى نهج البلاغة فيه
خطب الأمام عليّ وقد شرحها الأستاذ الإمام نفسه . فجعل يحفظ
من هذه الخطب ويحفظ الصبي معه ، ثم أعرض عن هذا الكتاب
كما أعرض عن غيره بعد أن حفظ الصبي طائفة من الخطب .
وصنع الشيخ الفتي هذا الصنيع نفسه بمقامات بديع الزمان
الهمداني . ولم ينس الصبي قط قصيدة أبي فراس :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر

أما للهوى نهى عليك ولا أمر

فقد أقبل بها أخوه وقد طبعت مشطرة أو خمسة ، شطرها أو
خمسها بعض الأزهريين فجعل يقرأ في هذه القصيدة ، ثم لم يلبث
أن أعرض عن تشطير الأزهري أو تخميسه وأخذ في حفظ القصيدة
نفسها مع أخيه .

وإنما ذكر الصبي هذه القصيدة لأنه صادف في أثنائها بيتاً

كان يقع في أذنه موقعاً غريباً وهو قول أبي فراس :

بدوت وأهلى حاضرون لأنني

أرى أن داراً لست من أهلها قفر

فقد قرأه الشيخ الفتي وحفظه وأحفظه أخاه : لأنتى أرى أن دار الست من أهلها قفر . وكان الصبي يسأل نفسه عن معنى هذا البيت . كما كان يرى غريباً أن تأتى كلمة الست فى بيت من الشعر فلما تقدمت به السن وتقدمت به المعرفة أيضاً قرأ البيت على وجهه ففهمه . وعرف كذلك أن كلمة الست ربما جاءت فى شعر المحدثين من العباسيين ونثرهم أيضاً .

وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط . وجمع فى نفسه أطرافاً من هذا الخليط من الشعر والنثر . ولكنه لم يقف عند شىء من ذلك ولم يفرغ له ، وإنما كان يحفظ منه ما يمر به حين تتاح له الفرصة ، ثم يمضى لشأنه وفناقله .

وفى ذات يوم من أول العام الدراسى أقبل أولئك الشباب متحمسين أشد التحمس لدرس جديد يلقي فى الضحى ، ويلقى فى الرواق العباسى ويلقيه الشيخ سيد المرصفى فى الأدب . وسموا ديوان الحماسة .

وكانوا قد فتنوا بهذا الدرس حين سمعوه فلم يعودوا إلى غرفاتهم حتى اشتروا هذا الديوان ، وأزمعوا أن يحضروا الدرس وأن يعنوا به وأن يحفظوا الديوان نفسه . وأسرع أخو الصبي كهاده دائماً ، فاشتري شرح التبريزى لديوان الحماسة وجلده

تجليداً ظريفاً وزين به دولابه ذاك ، وإن كان قد نظر فيه بين حين وحين . وقد جعل أخو الصبي يحفظ ديوان الحماسة ويحفظه لأخيه وربما قرأ عليه شيئاً من شرح التبريزي . وكان يقرأه على نحو ما كان يقرأ كتب الفقه والأصول ، ويتفهمه على نحو ما يتفهم هذه الكتب .

وكان الصبي يحس أن هذا الكتاب لا ينبغي أن يقرأ على هذا النحو ولا أن يفهم على هذا النحو . كان الشيخ الفتي وأصحابه يرون ديوان الحماسة متناً ، وكتاب التبريزي شرحاً ، وكانوا يأسفون على أن أحداً لم يكتب على هذا الشرح حاشية . وكانوا كثيراً ما يقصون حديث الشيخ إليهم وعبه بهم وتندرته على أساتذتهم وعلى كتبهم الأزهرية .

يقصون ذلك ضاحكين منه معجبين به ، ماضين على الرغم منه في دروسهم الأزهرية لا يفترون عنه ولا يقصرون فيه .

وكان صاحبنا يسمع أحاديثهم فيتمجج لها أشد الابتهاج ويشتاق إلى هذا الدرس أشد الشوق . ولكن أولئك الشباب لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا الدرس كما أعرضوا عن غيره من دروس الأدب لأنهم لم يروه جداً ، ولأنه لم يكن من الدروس الأساسية في الأزهر ،

وإنما كان درساً إضافياً من هذه الدروس التي أنشأها الأستاذ الإمام ، والتي كانت تسمى دروس العلوم الحديثة ؛ وكانت منها الجغرافيا والحساب والأدب . ولأن الشيخ كان يسخر منهم فيسرف في السخرية ، ويعبث بهم فيغلو في العبث .

ساء ظنه بهم فرآهم غير مستعدين لهذا الدرس الذي يحتاج إلى الذوق ولا يحتمل الفنقلة ، وساء ظنهم به فأروه غير متمكن من العلم الصحيح ولا بارع فيه ، وإنما هو صاحب شعر ينشد وكلام يقال ونكت تضحك ثم لا يبقى منها شيء .

وكانوا مع ذلك حراساً على أن يحضروا هذا الدرس لأن الأستاذ الإمام كان يحميه ، ولأن الشيخ كان مقرباً من الأستاذ الإمام ، ينتهز كل فرصة لينشئ في مدحه قصيدة يرفعها إليه ثم يملئها على الطلاب ، ويأخذ بعضهم بحفظها على أنها من جيد الشعر ورائعه . وكانوا يرونها جيدة رائعة لأنها كانت في مدح الأستاذ الإمام .

وقد بذلوا ما استطاعوا من الجهد للمواظبة على هذا الدرس ولكنهم لم يطيقوا عليه صبراً ، فانصرفوا عنه وعادوا إلى شايهم يستمتعون به في الضحى على مهل . وانقطع عن صاحبنا ذكر

الأدب بعد أن حفظ من ديوان الحماسة جزءاً صالحاً . ثم أشيع ذات يوم أن الشيخ المرصفي سيخصص يومين من أيام الأسبوع لقراءة المفصل للزخشرى فى النحو . فسعى صاحبنا إلى هذا الدرس الجديد . ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلف به ، وحضر درس الأدب فى أيامه من الأسبوع ولزم الشيخ منذ ذلك الوقت .

وكان الصبى قوى الذاكرة فكان لا يسمع من الشيخ كلمة إلا حفظها ولا رأياً إلا وعاه ولا تفسيراً إلا قيده فى نفسه ، وكثيراً ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قدم من درسه فكان صاحبنا يعيد على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيد من آرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشرحها وتصحيحه لرواية أبى تمام وإكمله للمقطوعات التى كان أبو تمام يرويها .

وإذا الشيخ يحب الفتى ويكلف به ويوجه إليه الحديث أثناء الدرس ويدعوه إليه بعد الدرس فيصحبه إلى باب الأزهر ثم يدعوه إلى أن يصحبه فى بعض الطريق . وقد دعاه ذات يوم إلى أن يبعد معه فى السير حتى انتهى الشيخ وتلميذه هذا وتلاميذ آخرون

إلى قهوة فجلسوا فيها ، وكان هذا أول عهد الفتى بالقهوات . وقد طال المجلس منذ صليت الظهر حتى دعا المؤذن إلى صلاة العصر . وعاد الفتى سعيداً مغتبطاً قوى الأمل شديد النشاط .

ولم يكن للشيخ حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه . وكان الشيخ قاسياً إذا طرق هذا الموضوع . وكان نقده لاذعاً وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليماً حقاً . ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى . وكان يؤثر في نفس هذا الفتى خاصة أبلغ تأثير وأعماقه .

وإذا الفتى يؤثر هذا الدرس على غيره من الدروس شيئاً فشيئاً ، ويختص اثنين من التلاميذ المقربين إلى الشيخ بمودته ثم بوقته . وإذا هم يلتقون إذا كان الضحى فيسمعون للشيخ ، ثم يذهبون إلى دار الكتب فيقرأون فيها الأدب القديم ، ثم يعودون إلى الأزهر بعد العصر فيجلسون في هذا الممر بين الإدارة والرواق العباسي ، يتحدثون عن شيخهم وعما قرأوا في دار الكتب ويعبثون بشيوخهم الآخرين ، ويعبثون بالداخلين والخارجين من الشيوخ والطلاب . فإذا صليت المغرب دخلوا الرواق العباسي فسمعوا درس الشيخ بنحيت الذي كان يقرأ في تفسير القرآن مكان الأستاذ الإمام بعد أن توفي .

ولكن الفتية لم يكونوا يسمعون للشيخ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب . وإنما كانوا يسمعون له ليضحكوا منه وليقيدوا عليه أغلاطه ، وكانت كثيرة ولا سيما حين كان يعرض للغة والأدب . وليشنعوا عليه بهذه الأغلاط بعد الدرس وليعرضوا هذه الأغلاط من الغد على شيخهم المرصفي فيقدموا إليه مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيوخ .

وقد كانت نفوس هؤلاء الفتية ضيقة بالأزهر فزادها الشيخ ودرسه به ضيقاً ، وكانت نفوسهم شيقة إلى الحرية فخط الشيخ ودرسه عنها القيود والأغلال .

وما أعرف شيئاً يدفع النفوس ، ولا سيما النفوس الناشئة ، إلى الحرية والإسراف فيها أحياناً كالأدب ، وكالأدب الذى يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفي يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم الحماسة أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك . نقد حر للشاعر أولاً وللراوى ثانياً وللشرح بعد ذلك ، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء . ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف مواطن الجمال فى الشعر أو النثر ، فى المعنى جملة وتفصيلاً ، فى الوزن والقافية وفى مكان الكلمة بين أخواتها . ثم اختبار للذوق الحديث فى

هذه البيئة التي كان يلقي فيها الدرس وموازنة بين غلظة الذوق الأزهرى ورقة الذوق القديم ، وبين كلال العقل الأزهرى ونفاذ العقل القديم ، وانهاء من هذا كله إلى تحطيم القيود الأزهرية جملة ، وإلى الثورة على الشيوخ في علمهم وذوقهم وفي سيرتهم وأحاديثهم بالحق في كثير من الأحيان ، والإسراف والتجنى في بعض الأحيان .

ومن أجل هذا لم يثبت حول الشيخ من تلاميذه الذين كثروا أول الأمر إلا نفر قليل وامتاز منهم هؤلاء الثلاثة خاصة فكونوا عصابة صغيرة ولكنها لم تلبث أن بعد صوتها في الأزهر ، وتسامع بها الطلاب والشيوخ ، وتسامعوا خاصة بنقدها للأزهر وثورتها على التقاليد ، وبما كانت تنظم من الشعر في هجاء الشيوخ والطلاب . وإذا هي بغیضة إلى الأزهريين مهيبة منهم في وقت واحد .

ولم يكن الشيخ أستاذاً فحسب ولكنه كان أديباً أيضاً . ومعنى ذلك أنه كان يصطنع وقار العلماء إذا لقي الناس أو جلس للتعليم في الأزهر ، فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصتهم عاش معهم عيشة الأديب ، فتحدث في حرية مطلقة عن كل إنسان وعن كل موضوع . وروى لخاصته من شعر القدماء ونثرهم وسيرتهم

ما يثبت أنهم كانوا أحراراً مثله ، يقولون في كل شيء وفي كل
إنسان لا متنطعين ولا متحفظين كما كان يقول .

وكان أيسر شيء وأهونه أن يذهب الطلاب مذهب شيخهم ،
ولا سيما إذا أحبوه وأكبروه ورأوا فيه المثل الأعلى للصبر على
المكروه والرضى بالقليل ، والتعفف عما لا يليق بالعلماء والترفع عما
كان ينفخس فيه كثير من شيوخ الأزهر من ألوان السعاية والنميمة
والكيد والتقرب إلى الرؤساء وأصحاب السلطان .

كان تلاميذ الشيخ يرون منه ذلك رأى العين ويلامسونه
بأيديهم ، ويعيشون معه في حين كانوا يزورونه في منزله ذلك
المتهدم الخرب القديم في حارة قذرة من حارات باب البحر يقال
لها حارة الركراكي .

هناك في أقصى هذه الحارة كان الشيخ يسكن بيتاً قذراً
متهدماً ، تدخل فيه من بابه فإذا أنت في ممر ضيق رطب
تنبعث فيه روائح كريهة ، قد خلا من كل شيء إلا هذه
الدكة الخشبية الضيقة الطويلة العارية التي قد أسندت إلى حائط
يتساقط منه التراب .

وكان الشيخ ينزل لتلاميذه فيجلس معهم على هذا المجلس

النابى ، ولكنه يجلس راضياً مطمئناً يسمع لهم باسماء ويتحدث إليهم أرق الحديث وأعذبه وأصفاه وأبراه من التكلف . وربما كان مشغولاً حين يقبل تلاميذه لزيارته فيدعوهم إلى غرفته ، فيصعدون إليه فى سلم متهدم ويسلكون إليه دهليزاً خالياً من كل شىء قد انتشر فيه ضوء الشمس ، حتى إذا بلغوا غرفته دخلوا على شيخ منحن قد جلس على الأرض ومن حوله عشرات الكتب يبحث فيها عن مقطوعة يريد أن يتمها ، أو بيت يريد أن يفسره ، أو لفظ يريد أن يحققه ، أو حديث يريد أن يصحح الرأى فيه ، وعن يمينه أدوات القهوة . فاذا دخلوا عليه لم يقم لهم ، وإنما تلقاهم مستبشراً فرحاً ، ثم دعاهم إلى الجلوس حيث يستطيعون ، ودعا أحدهم إلى صنع القهوة وإدارتها عليه وعليهم . ثم تحدث إليهم لحظات ثم دعاهم إلى أن يشاركوه فيما كان بسبيله من بحث أو تحقيق .

ولم ينس الفتى وأحد صديقيه أنهما زارا الشيخ ذات يوم حين صليت العصر . فلما صعدا إليه لقيا شيخاً قد جلس على فراش متواضع ألقى فى هذا الدهليز ، وإلى جانبه امرأة محطمة قد انحنى حتى كاد رأسها يبلغ الأرض والشيخ يطعمها بيده .

فلما رأى تلميذه هش لها وأمرها أن ينتظره في غرفته شيئاً ،
ثم أقبل عليهم — بعد حين وهو يقول ضاحكاً راضى النفس
« كنت أعشى أمى » .

كان هذا الشيخ إذا خرج من داره صورة للوقار والدعة
وأمن النفس وطمأنينة القلب وصفاء الضمير . وكان صورة الغنى
واليسار لا يحس من تحدث إليه إلا رجلاً قد يسر عليه في
الرزق ، فهو يعيش عيشة أمن وهناء وهدوء .

ولكن تلاميذه وخاصة كانوا يعلمون حق العلم أنه كان من
أشد الناس فقراً وأضيقهم يداً ، وأنه كان ينفق الأسبوع أو
الأسابيع لا يطعم إلا خبز الجراية يغمسه في شيء من الملح .
وكان على ذلك يعلم ابنه تعليماً ممتازاً . ويرعى غيره من أبنائه
الذين كانوا يطلبون العلم في الأزهر رعاية حسنة ، ويدلل ابنته
تدليلاً مؤثراً .

يصنع هذا كله بمرتبه الضئيل الذى لم يكن يتجاوز
ثلاثة جنيهات ونصف جنيه . كان من أصحاب الدرجة الأولى
فكان يتقاضى جنيهاً ونصف جنيه لذلك ، وكان الأستاذ
الإمام قد كلفه درس الأدب فكان يتقاضى لذلك جنيهين .
وكان يستحي أن يقبض مرتبه أول الشهر ويكره أن يختلط

بالعلماء وهم يتهافتون على المباشر ليتقاضوا منه مرتباتهم ، فكان يدفع خاتمه إلى تلميذ من خاصته ليقبض له هذا المرتب الضئيل في الضحى ويؤديه إليه بعد الظهر .

كذلك كان يعيش هذا الشيخ وكان تلاميذه يرونه ويشاركونه في حياته تلك البأسة الحرة الممتازة . وكانوا يرون ويسمعون من أمر شيوخ آخرين ما كان يملأ قلوبهم غيظاً وحقدًا ، ونفوسهم ازدراء واحتقارًا . فأى غرابة في أن يفتنوا بشيخهم ويتأثروه في سيرته وفي مذهبه وفي ازدرائه للأزهريين وثورته بما كان لهم من تقاليد .

لم ينكر تلاميذ الشيخ عليه في ذلك العهد إلا أنه انحرف ذات يوم عن الوفاء للأستاذ الإمام حين تولى الشيخ الشربيني مشيخة الأزهر ، فنظم الشيخ قصيدة يمدح بها الشيخ الجديد ، وكان تلميذًا للشيخ ومحبًا له . وكان الشيخ الشربيني خليقًا بالحب والإعجاب . وأملى الشيخ الموصى على تلاميذه قصيدته التي سماها ثامنة المعلقات ، والتي غارض بها قصيدة طرفة . فلما فرغ من إملائها والتف حوله تلاميذه مضى في الثناء على أستاذه وعرض بالأستاذ الإمام شيئًا ، فردده بعض تلاميذه في رفق ، فارتد أسفًا خجلًا واستغفر الله من خطيئته .

وكذلك اندفع هؤلاء التلاميذ فيما دفعهم إليه حبهم للشيخ وتأثرهم به . فأسرفوا على أنفسهم وعلى شيخهم أيضاً .

لم يكتفوا بهذا العبث الذى كانوا يعبثونه بالشيخ والطلاب ، ولكنهم جعلوا يجهرون بقراءة الكتب القديمة وتفضيلها على الكتب الأزهرية . يقرأون كتاب سيدويه أو كتاب المفصل فى النحو ، ويقرأون كتابى عبد القاهر الجرجانى فى البلاغة ، ويقرأون دواوين الشعراء لا يتخرجون فى اختيار هذه الدواوين ولا فى الجهر بإنشاد ما كان فيها من شعر المجون أحياناً فى الأزهر . ويقلدون هذا الشعر ويتناشدون ما ينشؤون من ذلك إذا التقوا . والطلاب ينظرون إليهم شذراً ويتربصون بهم الدوائر ويتتبعون بهم الفرص . وربما أقبل عليهم بعض الطلاب الناشئين يسمعون منهم ويتحدثون إليهم ، ويريدون أن يتعلموا منهم الشعر والأدب . فيغيب ذلك نظراءهم من الطلاب الكبار ويزيدهم مودة عليهم واثقاراً بهم .

وفى ذات يوم كان صاحبنا يعد مع أحد صديقيه درس الكامل فعرضت لهم هذه الجملة من كلام المبرد : ومما كفرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره : « إنما يطوفون برمة وأعواد » . فأنكر صاحبنا أن يكون فى كلام الحجاج

ما يكفي لتكفيره ، وقال لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره ولكنه لم يكفر . وسمع بعض الطلاب ذلك فأنكروه ، ثم تناقلوه .

وإن فتياننا الثلاثة لفي مجلسهم حول الشيخ عبد الحكم عطا وإذا هم يدعون إلى حجرة شيخ الجامع ، فيذهبون واجمين لا يفهمون شيئاً . فاذا دخلوا على الشيخ حسونة لم يجدوه وحده وإنما وجدوا من حوله أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهم من كبار العلماء ؛ فيهم الشيخ بنحيت ، والشيخ محمد حسنين العدوي ، والشيخ راضى وآخرون . ويلقاهم الشيخ متجهما ثم يأمر رضوان رئيس المشدين أن يدعو من عنده من الطلاب . فيقبل جماعة من الطلاب فيسألهم الشيخ عما عندهم . ويتقدم أحدهم فيتهم هؤلاء الفتية بالكفر لمقاتلتهم في الحجاج ، ثم يقص من أمرهم الأعاجيب . وكان هذا الطالب ماهراً حقاً . فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيراً جداً مما كانوا يعيبون به الشيوخ ومما كانوا يعيبون به الشيخ بنحيت والشيخ محمد حسنين والشيخ راضى والشيخ الرفاعى وكانوا جميعاً حاضرين . فسمعوا بأذانهم آراء هؤلاء الفتية فيهم . وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب في كل ما قال . وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئاً . ولكن الشيخ لم يحاورهم ولم

يداورهم وإنما دعا إليه رضوان فأمره في شدة بمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر ، لأنه لا يريد مثل هذا الكلام الفارغ ، ثم صرفهم عنه في عنف . فخرجوا وجلين قد سقط في أيديهم لا يعرفون ماذا يصنعون ولا كيف يصورون هذه القصة لأهلهم .

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ولا عند نظر الطلاب إليهم في ضحك منهم وشماتة بهم ، ولكنهم أقبلوا بعد صلاة العشاء ليلقوا شيخهم المرصفي وليسمعوا منه درس الكامل ، وأقبل الشيخ فلقية رضوان وأنبأه في أدب ولطف بأن شيخ الجامع قد ألغى درس الكامل وبأنه ينتظره في مكتبه إذا كان الغد .

فانصرف الشيخ محزوناً ومضى معه تلاميذه الثلاثة خجلين وجلين . والشيخ يسرى عنهم مع ذلك حتى إذا كانوا في بعض الطريق خطر لهم أن يذهبوا إلى الشيخ بجيت ليستعطفوه ويوسطوه عند شيخ الجامع . وقال لهم شيخهم لا تفعلوا فلن تبلغوا من سعيكم هذا شيئاً . ولكنهم مضوا مع ذلك إلى دار الشيخ بجيت ، فلما أدخلوا عليه عرفهم فتلقاهم ضاحكاً ، ثم سألمهم عن جلية أمرهم في فتور . فلما أخذوا يدافعون عن أنفسهم قال لهم في فتور أيضاً ، ولكنكم تدرسون الكامل للمبرد وقد كان المبرد من المعتزلة فدرس كتابه إثم .

وهنالك نسي الفتية أنهم جاءوا مستعطفين وأخذوا يجادلون الشيخ حتى أحفظوه . وانصرفوا عنه وقد ملأه الغضب وملأهم اليأس . ولكنهم مع ذلك تضاحكوا من الشيخ وأعادوا بعض كلماته وتفرقوا وقد تعاهدوا على أن يخفوا الأمر على أهلهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولقوا شيخهم من الغد فأنبأهم بأن شيخ الجامع قد حضر عليه قراءة الكامل وكلفه قراءة المغني لابن هشام ، ونقله من الرواق العباسي إلى عامود في داخل الأزهر .

ثم جعل الأستاذ يعبت بشيخ الجامع ويزعم لتلاميذه أنه لم يخلق للعلم ولا للمشيخة وإنما خلق لبيع العسل الأسود في سرياقوس ، وكان قد فقد أسنانه فكان ينطق السين ثاء . وكان يتكلم لغة القاهرة فكان يجعل القاف همزة ويمد الواو بينها وبين السين ، وكان يتكلم هامساً فلم ينس تلاميذه قط هذه الجملة التي طبعوا بها الشيخ حسونه رحمه الله ، فسموه « بائع العسل في ثرياووث » . ولكن بائع سرياقوس هذا كان شديداً حازماً وكان مهمباً صارماً ، يخافه الشيوخ جميعاً ومنهم الشيخ المرصفي ، فقد أخذ يقرأ كتاب المغني وذهب إليه تلاميذه مطمئنين وما يعينهم أن يقرأ

الشيخ هذا الكتاب أو ذاك . حسبهم أن يقرأ الشيخ وأن يسمعوا منه ويقولوا له وقد سمعوا منه . فلما هم الفتى أن يقول له بعض الشيء أسكتته في رفق وهو يقول « لا ، لا ، علوزين ناكل عيش » . ولم يعرف الفتى أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه ، فانصرف عنه ومعه صديقه وإن قلوبهم لملؤها حزن عميق .

على أنهم لم يرضوا بهذه العقوبة التي فرضها عليهم شيخ الجامع وإنما فكروا في الطريق التي يجب أن يسلكوها ليرفعوا عن أنفسهم هذا الظلم . فأما أحدهم فقد آثر العافية وفارق صاحبيه واتخذ لنفسه مجلساً في جامع المؤيد بمعزل من العدو والصديق حتى تهدأ العاصفة . وأما الآخر فقص الأمر على أبيه وجعل أبوه يسعى في إصلاح شأن ابنه سعيًا رقيقًا . ولكن الفتى لم يفارق صاحبه ولم يعتزل عدواً ولا صديقاً ، وإنما كان يلقي صاحبه كل يوم فيتخذان مجلسهما بين الرواق العباسي والإدارة ويمضيان فيما تعودا أن يمضيا فيه من العبث بالطلاب والشيوخ .

وأما صاحبنا فلم يحتج إلى أن يقص الأمر على أخيه فقد انتهى الأمر إلى أخيه من طريق لا يعرفها . ولكن أخاه لم

يلمه ولم يعنف عليه وإنما قال له : « أنت وما تشاء فستجنى ثمرة هذا العيث وستجدها شديدة المرامة » . ولكن الفتى لم يكن يعرف رقفاً ولا ليناً فلم يسع إلى أحد ولم يتوسل إلى الشيخ بأحد . وإنما كتب مقالاً عنيفاً يهاجم فيه الأزهر كله وشيخ الأزهر خاصة ويطالب بحرية الرأى . وماذا يمنعه من ذلك وكانت الجريدة قد ظهرت وكان مديرها يدعو كل يوم إلى حرية الرأى .

وذهب صاحبنا بمقاله إلى مدير الجريدة فتلقاء لقاء حسناً فيه كثير من العطف والاشفاق . وقرأ المقال ثم دفعه ضاحكاً إلى صديق له كان فى مجلسه يومئذ ، فألقى الصديق نظرة على هذا المقال ثم قال غاضباً : لو لم تكن قد عوقبت على ما جنيت من ذنب لكنت هذه المقالة وحدها كافية لعقابك . وهم الفتى أن يرد على هذا الصديق ولكن مدير الجريدة قال له مترفقاً إن الذى يحدثك هو حسن بك صبرى مفتش العلوم الحديثة فى الأزهر . ثم قال له أتريد أن تشتم الشيخ وتعييب الأزهر ، أم تريد أن يرفع عنك هذا العقاب ؟ قال الفتى : بل أريد أن يرفع عني هذا العقاب ، وأن أستمتع بحقى من الحرية . قال مدير الجريدة : فدع لى إذن هذه القصة وانصرف راشداً .

وقد انصرف الفتى ، ثم لم يلبث أن تبين وتبين معه صاحبا ،
أن شيخ الجامع لم يعاقبهم ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر
وإنما أراد تخويفهم ليس غير .

ومنذ ذلك الوقت اتصل الفتى بمدير الجريدة وجعل يتردد عليه
حتى جاء وقت كان يلقاه فيه كل يوم .

وفي مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشيء طالما تمناه وهو أن
يتصل ببيئة الطرايش بعد أن سُم بيئة العمام . ولكنه اتصل
من بيئة الطرايش بأرقاها منزلة وأثرها ثراء وكان هو فقير
متوسط الحال في أسرته ، سيء الحال جداً إذا أقام في القاهرة .
فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه الفروق الهائلة بين
الأغنياء المترفين والفقراء البائسين .

(٢٠)

واشتد ضيق الفتى بالأزهر وأهله وبحياته فى القاهرة غارقاً فيما لا يحب ، مقصى عما تشتهيه نفسه ويتحرق إليه قلبه . حتى لقد كان يصل إلى القاهرة فى أول العام الدراسى ، فلا يكاد يستقر فيها حتى يدعو آخره متشدداً فى الدعاء أو ملحاً فيه . والله وحده يعلم كم كان يسعد ويتتهج حين كانت بشار الصيف تقبل ، وحين كانت أرجاء الحى الذى كان يقيم فيه تمتلئ بهذه الروائح الكريهة التى كانت تبعثها حرارة الشمس فتملاً الهواء وتجعل التنفس ثقيلاً بغيضاً ، وحين كان لا يجلس إلى شيخ من شيوخه فى درس من دروس الظهر أو درس من دروس المساء إلا أسرع النوم إلى رأسه خفق به خفقاً عنيفاً يلفت إليه الطلاب من حوله فيوقظونه جادين أو هازلين .

كان مقدم الصيف يملاً صدره حبوراً وبشراً ، لأنه كان يؤذن بقرب الأجازة والعودة إلى الريف والراحة من الأزهر والأزهريين . ولم يكن يحب الأجازة لهذا وحده ، ولم يكن يحبها لأنه سيملى فيها أهله ، ولأنه سينعم فيها بما كان يتمتع عليه فى القاهرة من

طبيبات الحياة ، وإنما كان يجب الاجازة لهذا كله ولشيء آخر
كان أعظم في نفسه خطراً وأبعد أثراً من هذا كله . فقد كانت
الاجازة أنفع لعقله وقلبه من العام الدراسي كله .

كانت الاجازة تمكنه من أن يفرغ لنفسه فيفكر — وما أكثر
ما كان يفكر — ومن أن يخلو إلى إخوته فيقرأ — وما أكثر
ما كان يقرأ — وما أشد تنوعه وأعظم فائدة .

كان شباب الأسرة يعودون من معاهدهم ومدارسهم وقد ملأوا
حقائبهم بتلك الكتب التي لا تتصل بدراساتهم المنظمة ، ولا يتاح
لهم أن يقرأوها أثناء العام . وكانت هذه الكتب ألواناً منها الجدد
ومنها الهزل ، منها ما ألف ومنها ما ترجم ، منها القديم
ومنها الجديد .

فكان هؤلاء الشباب لا ينفقون أياماً في الأسرة حتى يسأموا
البطالة ويعافوا الكسل ويقبلوا على كتبهم هذه فيعكفون عليها
نهارهم وأطرافاً من ليلهم . وكان أبوهم الشيخ يحب منهم ذلك
ويحمدهم . وربما ضاق منهم بذلك ولا مهم فيه حين كانوا
يقبلون على القصص الشعبي فيغرقون في ألف ليلة وليلة ، أو في
قصص عنتره وسيف ابن ذي يزن .

ولكنهم كانوا يقبلون على كتبهم هذه رضىت الأسرة
أم سخطت . وكانوا يجدون في هذه الكتب من المتاع واللذة
أضعاف ما كانوا يجدون في كتبهم الدراسية وكانوا يقرأون ما ترجم
فتحى زغلول عن الفرنسية ، وما كان السباعى يترجم عن الانجليزية ،
وما كان جورجى زيدان يكتب فى الهلال من مقالات ، وما كان
ينشر من قصص ، وما كان يؤلف من كتب فى تاريخ الأدب
والحضارة ، وما كان يعقوب صروف يكتب فى المقتطف ، وما كان
الشيخ رشيد رضا يكتب فى المنار .

وفى الاجازات قرأوا كتب قاسم أمين وكثيراً من آثار الأستاذ
الإمام . وكانوا يقرأون هذه القصص الكثيرة التى كانت تترجم
لتلهية القراء والتى كانوا يفتنون بما كانوا يجدون فيها من صور
للحياة تخالف ما عرفوا فى ريفهم ومدنهم . وكان هذا كله يغريهم
بالمضى فى القراءة حتى يسرفوا على أنفسهم وربما أسرفوا على
أسرتهم أيضاً . فقد كانوا لا يجدون فى الصحف والمجلات إشارة
إلى كتاب جديد أو إلى كتاب قديم لم يعرفوه إلا كتبوا إلى
الناشر يطلبون إليه إرساله إليهم . وما هى إلا أيام حتى يأتى
الكتاب أو تأتى الكتب محمولة على البريد وحتى تضطر الأسرة

إلى أن تدفع ثمنها سواء أَرْضِيتَ عن ذلك أم ضاقت به .
وكان صاحبنا يحب الاجازة لأنه كان يفرغ للتفكير في أصدقائه
من بعيد فيكتب إليهم ويتلقى منهم الكتب . ويجد في نفسه لذلك
نشاطاً وبه لذة لم يكن يجدها حين يلقى أصدقاءه في القاهرة
ويتحدث إليهم من قريب .

ثم كان يحب الاجازة لأنه كان يلقى فيها شباباً آخرين غير
شباب أسرته ، شباباً من بيئة الطرايش ، منهم من كان في
المدارس الثانوية ، ومنهم من كان في المدارس العالية قد أقبلوا مثله
يلتمسون الراحة بين أهلهم في الريف . وهم يجدون في لقائه
والتحدث إليه اللذة والمتاع مثل ما يجد في لقاءهم والتحدث
إليهم ، فكان يسألهم عما يتعلمون ويسألونه عما يتعلم . وربما
قرأوا عليه بعض كتبهم وربما قرأ معهم شيئاً من الأدب القديم .
ولكنه أنكر بعض اجازاته أول الأمر . فقد حدث حدث في
أسرته فتحولت عن مدينتها التي نشأ فيها الصبي إلى أعلى الأقاليم
أول الأمر ، فأقامت فيه عاماً أو عامين ثم تحولت بعد ذلك إلى
أقصى الصعيد ، فأقامت فيه أعواماً طويلاً . وكان صاحبنا
شديد الحزن على مدينته القديمة ، شديد الضيق بهذه الأماكن

الجديدة التي لا عهد له بها ، والتي لم يكن يستطيع أن يذهب فيها
عن يمين أو شمال . ولكنه اطمأن أخيراً إلى مدينته تلك في
أقصى الصعيد حتى ألفها أشد الألف وكلف بها أعظم الكلف
وأصبحت له وطناً ثانياً . مع أن زيارته الأولى لهذه المدينة قد
آذته وشقت عليه .

ذهب إليها مع الأسرة كلها لزيارة أبيه الشيخ وكان قد بدأ
عمله فيها وحيداً . فلما دبر أمره واستقر به المقام دعا الأسرة
إلى أن تنتقل إليه . وصادف ذلك إجازة الصيف فانتقلت الأسرة
ومعها الفتى . ركبت القطار منتصف الليل وبلغت تلك المدينة
في الساعة الرابعة من غد . وكانت المدينة جديدة وكان القطار
لا يقف فيها إلا دقيقة واحدة . وكانت الأسرة ضخمة يقودها
أكبر أبناءها وفيها النساء والأطفال ومعها متاع ضخمة عظيم . فلما دنا
القطار من المحطة أقبل كبار الأسرة على النساء والأطفال والمتاع
يقربون ذلك كله من باب العرب ، حتى إذا وقف القطار دفعوا
ذلك كله دفعاً إلى الأرض ، ثم تواثبوا من ورائه ومضى القطار
ولم ينسوا فيه إلا أخاهم هذا الضريع .

وقد دعر الفتى حين رأى نفسه وحيداً عاجزاً عن أن يقضى

في أمره بشيء . ولكن جماعة من السفر رأوا عجزه وحيرته
فرفقوا به وجعلوا يهدؤنه . حتى إذا وقف القطار في أول محطة
أنزلوه وأسلموه إلى صاحب التلغراف وعادوا إلى قطارهم .

وقد عرف الفتى بعد ذلك أن الأسرة بلغت دارها في مدينتها
الجديدة ، فجعلت تزور الدار وتتفقد حجراتها وغرفاتها وتقر كل
شيء في مكانه . ثم أقبل الشيخ عليها فجلس يتحدث إلى هذا
وذاك من أبنائه وإلى هذه وتلك من بناته .

ثم جرى عرضاً ذكر الفتى بعد أن مضى على وصول الأسرة
وقت غير قصير . فلما سمع الشيخ اسم الفتى ارتاع وارتاعت أمه
وارتاع أخوته وهروا الشباب منهم إلى مكتب التلغراف . ولكنهم
لم يبلغوه حتى وجدوا النبأ بأن أخاهم في المحطة الجاورة ينتظر من
يأتى ليرده إليهم . فأرسلوا إليه من جاء به ردفاً على ظهر بغلة
كانت تسعى هادئة مرة وتهملج به مرة أخرى ، فتضيف في قلبه
فرقاً إلى فرق وذعراً إلى ذعر .

ولم ينس الفتى قط مجلسه عند صاحب التلغراف . وكان
شاباً نشيطاً كثير الضحك كثير المزاح ، وقد اجتمع إليه جماعة
من موظفي المحطة فلما رأوا عنده هذا الفتى أنكروه ثم عرفوا
أمره فأظهروا العطف عليه والرقه له . وقد رأوا شيخاً ضريراً فما

شكوا في أنه يحسن قراءة القرآن أو يحسن الغناء . وهم يطلبون إليه أن يغنى لهم شيئاً . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئاً من القرآن ، فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عليه وأبوا إلا أن يسمعه . واضطر الفتى إلى أن يقرأ القرآن خجلاً وجلاً مستحيين ضيقاً بالحياة لاعناً للأيام . وإذا صوته يحتبس في حلقه وإذا الدموع تنهمر على خديه وإذا القوم يرفقون به وينصرفون عنه ، ويتركونه وحيداً أو كالوحيد حتى يأتي من يرده إلى أسرته .

أدت هذه القصة الفتى في نفسه ولكنها على ذلك لم تبغض إليه المدينة الجديدة ، ولم تزهد في زيارتها . وإنما أحبها وجعلت نفسه تشتاق إليها أشد الشوق كلما دنا الصيف ، وإن كان الحر فيها لشديداً لا يطاق .

وتغيرت أمور أهل الربع تغيراً شديداً . فأما كبار الطلاب فقد ظفر اثنان منهم بدرجة العالمية ، والتحق سائرهم ، ومنهم أخو الفتى بمدرسة القضاء لأول إنشائها . وأما الفتى فقد فارق ابن خالته ذاك الذي كان يعينه على وحدته في الأزهر والربع معاً والتحق بدار العلوم . ونظر الفتى فإذا هو يعود إلى عزلته القاسية المنكرة التي طالما حملته ألوان العذاب في أول عهده بطلب العلم . وإذا أمره يزداد

شدة وقسوة ، فلن يفرغ له أحد إذا عاد إلى القاهرة بعد انقضاء الصيف . سيذهب أخوه إلى مدرسة القضاء وسيذهب ابن خالته إلى دار العلوم . وماذا عسى أن يصنع هو وحيداً في الربيع ؟ وأي نفع له أو لغيره في أن يذهب إلى القاهرة ؟ لقد أخذ من العلم حظاً لا بأس به . وما عسى أن يفيد من درجة العالمية إن ظفر بها وأكبر الظن أنه لن يظفر بها ، فإن نيلها يحتاج إلى جهد عظيم لا يستطيع هو أن يبذله وحده ؟ كذلك قال أخوه للأسرة في يوم من أيام الصيف حين أوشكت الاجازة أن تبلغ أجلها . وقد هم الشيخ الوالد أن يقول شيئاً فقطع ابنه عليه الكلام بهذه الحجة المفحمة . ولم تجد أم الفتى ما تقول فأرسلت دموعاً صامتة غزاراً . ونهض الفتى فمشى متعثراً حتى خلا إلى نفسه في إحدى الحجرات جامداً واجماً لا يفكر في شيء .

وكانت ليلة ثقيلة طويلة لقي الفتى فيها من نفسه عذاباً شديداً . ثم أصبح لا يقول شيئاً ولا يقول له أحد شيئاً ، ف قضى نهراً ثقيلاً طويلاً . ثم أقبل عليه أبوه الشيخ مع المساء فمسح رأسه وقبله وقال له : ستذهب إلى القاهرة وسيكون لك خادم خاص . هنالك أجهد الفتى باليكاء وأجهشت أمه بالبكاء أيضاً .

وجاء يوم السفر وخرج شباب الأسرة إلى القطار وفيهم الفتى .
وكان أهل الخادم قد ضربوا للأسرة موعداً في المحطة . فهؤلاء
الشباب يبلغون المحطة وهذا القطار يصل ولم يأت الخادم . وهؤلاء
شباب الأسرة يركبون القطار وهو يمضى بهم وقد تركوا الفتى
فعاد به أبوه إلى الدار وكلاهما واجم حزين .

ويأتى الخادم مع الليل فيعود إلى الفتى استبشاره وابتهاجه . ويسافر
مع خادمه الأسود الصغير إلى القاهرة بعد يومين وقد حمل إلى
أخيه طعاماً وزاداً .

وقد بلغ القاهرة وأقام فيها مع خادمه هذا الأسود يختلف معه
إلى دروس الأزهر ويهيء له طعام الإفطار ويقرأ له قراءة
محطمة متعثرة أثناء فراغه .

ولكن الجامعة قد أنشئت ، وإذا صاحبنا يقبل عليها —
وينتسب إليها . وإذا هو يختلف مع غلامه الأسود إلى دروس
الأزهر مصباحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً . وإذا هو يجد
للحياة طعماً جديداً ، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة
لا سبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته في الأزهر . وقد
بعدت الجامعة عن الربع ، وبعدت عنه مدرسة القضاء ، وبعدت

دار العلوم . فلم يبق للجماعة فيه مقام ، وإذا هي تتحول عنه إلى بيت جديد أيضاً في درب الجمايز .

وإذا الفتى يستأنف حياة لا صلة بينها وبين حياته القديمة إلا أنه كان ربما ألم بالأزهر مرة في الأسبوع أو في الأسبوعين . وإلا أنه كان ربما لقي أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين . وإلا أنه كان يزور الشيخ المرصفي من وقت إلى وقت .

وفي الحق أن الفتى قد قطع الصلة بينه وبين الأزهر في دخيلة نفسه وأعماق ضميره . ولكنه ظل مقيداً في السجلات . ولم يظهر أباه على ما تم عليه عزمه مخافة أن يحزن الشيخ أو يئأس ، فما كان يعرف من أمر الجامعة شيئاً ، وما كان يعنى من أمر الجامعة بقليل أو كثير . ولكن الفتى عاد مع أخوته إلى مدينتهم تلك في إجازة الصيف وإنهم لفي قراءتهم ذات يوم وإذا البريد يحمل إلى أخيه كتاباً من أحد أصحابه . وإذا هو يقرأ هذا الكتاب ثم يعيد قراءته على أخيه الفتى فيسمع منه عجباً من العجب .

كان الفتى قد أنفق في طلب العلم في الأزهر ثمانى سنين . وكان الأزهر قد تعرض لألوان مختلفة من النظام . فلما كان

ذلك الصيف أيسح للطلاب المنتسبين أن يزيدوا مدة انتسابهم النظامية إذا استطاعوا أن يثبتوا أنهم درسوا في الأزهر أو في المعاهد الدينية الأخرى قبل أن يبلغوا السن التي كانت تبيح لهم الانتساب النظامي وهو خمس عشرة سنة ، ليعتجلوا تقدمهم للامتحان وظفرهم بالدرجات .

وأعلن هذا الترخيص أثناء الأجازة فيسرع هذا الصديق فيكتب إلى المشيخة طلباً باسم الفتى ، يزعم فيه أنه قد درس في الأزهر سنتين قبل أن يبلغ السن القانونية . ويعرض هذا الطلب على اثنين من كبار الشيوخ لم يرها الفتى ولم يراه قط ، لم يسمع لهما الفتى درساً ولم يسمعا منه شيئاً . ولكنهما يقرآن ثم يشهدان بأن الفتى لم يقل الا حقاً . وأى بأس لذلك وما أكثر من اختلف إليهما من الطلاب ؟ وكيف السبيل إلى أن يعرفا تلاميذها الذين لا يحصون ؟ وكذلك عرف الفتى من حيث لا يدري أنه قد أنفق في الأزهر عشرة أعوام وإن لم ينفق فيه إلا ثمانية وأنه لم يبق بينه وبين التقدم لنيل الدرجة إلا سنتان اثنتان .

فليصل إذن من حبل الأزهر ما انتقطع أو ما هم أن ينقطع ، وليظل إذن طالباً بالجامعتين . بالجامعة الأزهرية كما كان الأزهر

يسمى فى ذلك الوقت ، وبالجامعة المصرية ، وليحيا إذن هذه
الحياة المشتركة التى يتجاذبه فيها قديم الأزهر فى ذلك الحى
العتيق بين الباطنية وكفر الطماعين ، وجديد الجامعة فى ذلك
الحى الأنيق من شارع كوبرى قصر النيل .

فلندعه كما كان موضوعاً للصراع بين القديم والجديد . ومن
يدرى لعلنا نعود إليه مرة أخرى .

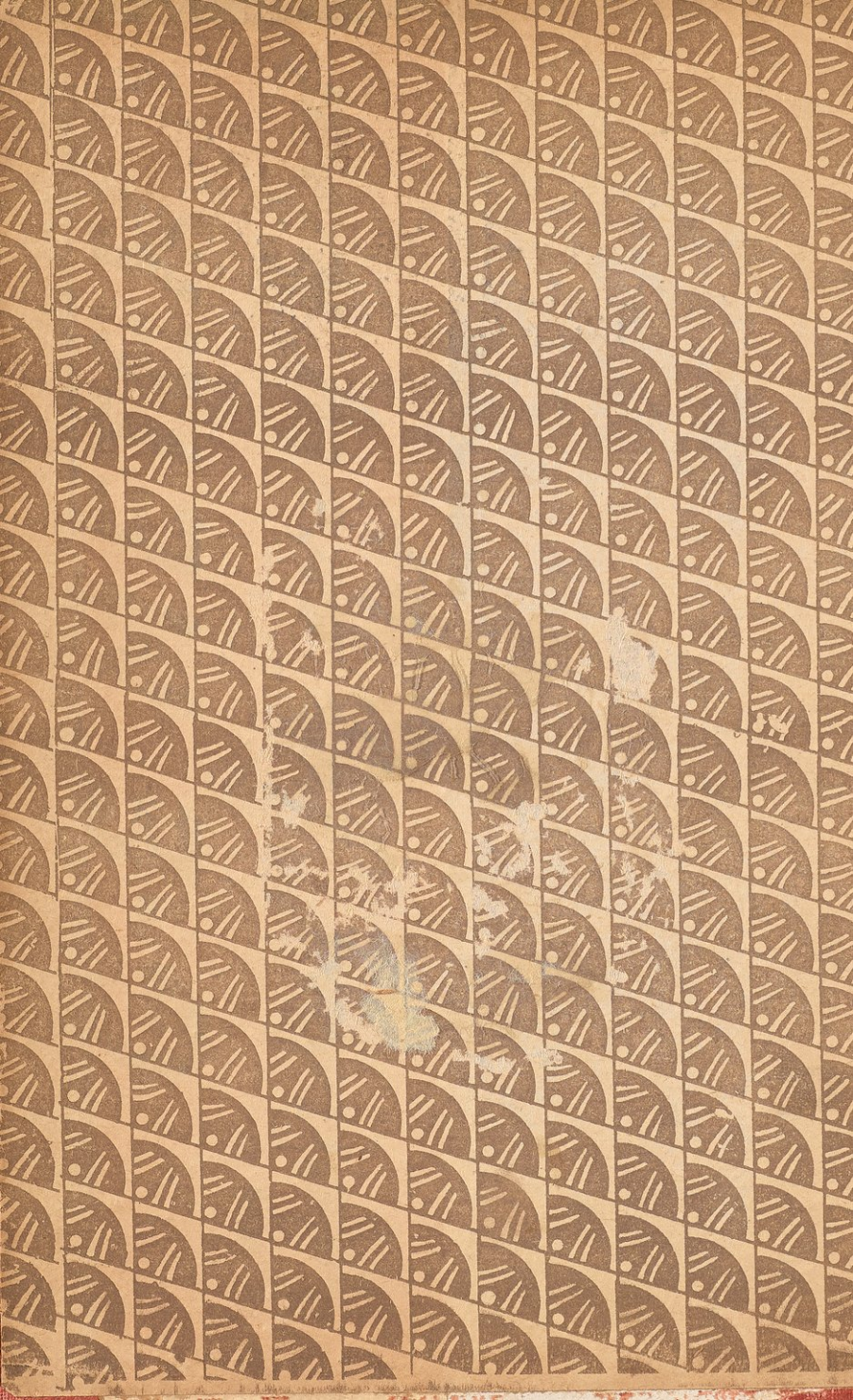


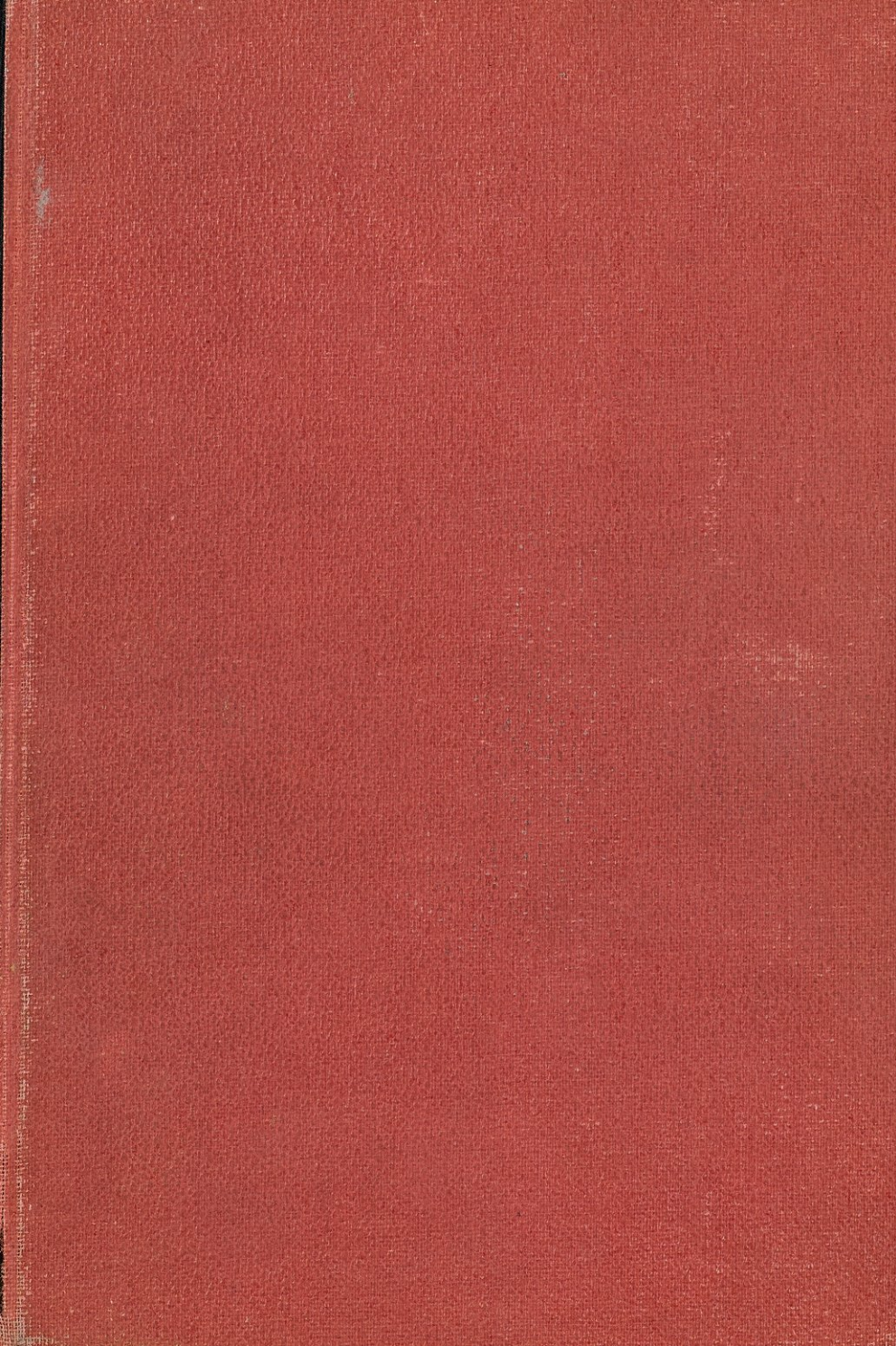
وها أنت ذا يا بنى تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتفارق
أهلك وأصدقاءك ، وتعبر البحر فى سنك هذه الصغيرة لتطلب
العلم وحيداً فى باريس .

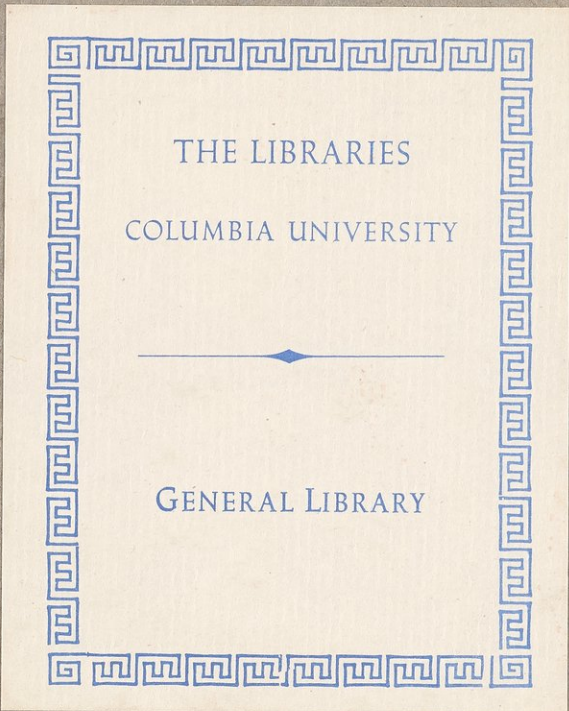
فدعنى أهدى إليك هذا الحديث لعلك ترتاح إليه بين حين
وحين إذا أجهدك درسك ووجدت فى اللاتينية واليونانية مشقة
أو عناء . هنالك ترى لوناً لم تعرفه من ألوان الحياة فى مصر ،
وتذكر شخصاً طالما ارتاح إلى قربك منه ، وطالما وجد فى جدك
وهزلك لذة ، لا تعدلها لذة ومتاعاً لا يعدله متاع .

فيك سور سير









THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

